الوصية كانت مزوّرة

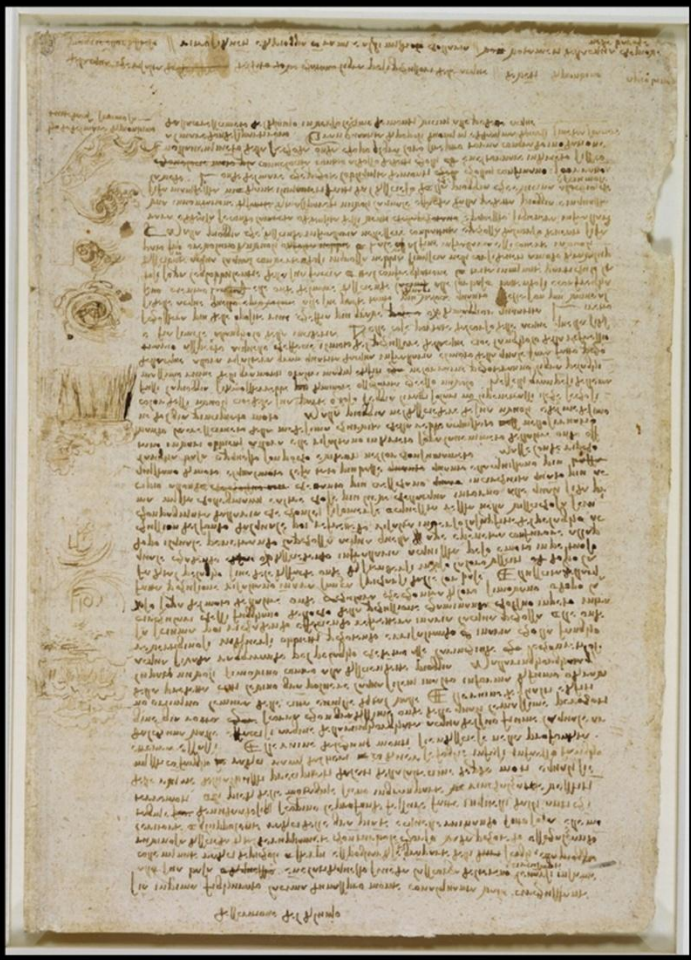

روبير كازانوفاس

النسخة العربية

الملخّص

يكتشف الأستاذ بيير بيرتييه غيابًا مثيرًا للقلق في الأرشيف الفرنسي: لا أثر لرسائل التجنّس التي كان ينبغي أن يحصل عليها ليوناردو دافنشي، المولود في فلورنسا، لكي يورّث أعماله. فعند وفاته سنة 1519، وبغياب هذه الوثيقة، كان "حق الأوبين" المطبَّق على الأجانب يفرض مصادرة جميع ممتلكاته لصالح التاج، بما في ذلك اللوحة الشهيرة "الموناليزا". استنادًا إلى وقائع حقيقية أُعيد بناؤها بدقة متناهية، تروي هذه الرواية الليلة المصيرية التي سرق فيها ميلزي وسالاي، تلميذا الفنان، قطعًا رئيسية قبل الجرد الملكي، ثم زوّرا وصية لتبرير حيازتهما لها. يحكي السرد كيف اجتاز هذا التزوير خمسة قرون. تقف هذه الرواية عند تقاطع الإثارة التاريخية والتحقيق العلمي، وتتساءل عن الحدّ الفاصل بين الجريمة والبطولة: هل كان ميلزي وسالاي لصّين أم منقذَين لتراث لا يقدَّر بثمن؟

المؤلف

روبير كازانوفا أستاذ مبرَّز فخري وعضو في جمعية أهل الأدب الفرنسية (Société des Gens de Lettres). حقوقي شغوف بتاريخ المجموعات الفنية، كرّس سنوات طويلة لدراسة استيلاء الدول على الأعمال الفنية، بصفته رئيسًا للمنظمة غير الحكومية International Restitutions. نشر العديد من الأعمال الأكاديمية حول هذا الموضوع.

الوصية كانت مزوّرة

روبير كازانوفاس
casanovas@hotmail.com

الإيداع القانوني: نوفمبر 2025 – نسخة إلكترونية ونسخة ورقية

© 2025 كازانوفاس. جميع الحقوق محفوظة

ISBN : 978-2-488999-60-1
www.international-restitutions.org
الغلاف: نسخة طبق الأصل، 2020 ،Italian Art Society

النسخة العربية

الطبعة الثانية، مُنقّحة ومصححة

من المؤلف نفسه:

الغرفة المسرو

تنويه

هذه الرواية عمل روائي تاريخي يستند إلى أبحاث حقيقية. معظم الوثائق المذكورة موجودة فعلاً، والتناقضات المرصودة حقيقية، وغياب رسائل التجنّس ثابت. لكنّ المشاهد والحوارات ودوافع الشخصيات من نسج الخيال. لا تزال وصية ليوناردو دافنشي حتى اليوم وثيقة محل جدل. لم يُعثر قط على نسخة أصلية فرنسية منها. لا تظهر رسائل التجنّس في أي سجل ملكي. وكان حق الغريب (droit d'aubaine) يُطبَّق فعلاً على الأجانب.

هل سرق فرانشيسكو ميلزي حقاً هذه الأعمال؟ هل زوّر وصية؟ من المرجح أننا لن نعرف ذلك أبداً بيقين مطلق. لكن أمراً واحداً مؤكد: الأعمال بقيت. وربما هذا كل ما يهم. تُرجمت النسخة الأصلية للرواية، المكتوبة بالفرنسية، إلى عدة لغات أجنبية. قد تحتوي النسخ المترجمة على أخطاء لغوية أو التباسات أو تقريبات.

لمزيد من التحليل المعمّق، يُدعى القارئ إلى الاطلاع على المقال الأكاديمي الذي نشره المؤلف في «Leibniz Institut für Sozial Wissenschaften».

https://www.ssoar.info/ssoar/handle/document/94357

فهرس المحتويات

المقدّمة

الفصل 1: سيّد كلو–لوسيه

الفصل 2: عملاء الملك

الفصل 3: سنوات التضليل

الفصل 4: بنية الكذب

الخاتمة

الوصية كانت مزوّرة

المقدّمة

باريس، الأرشيف الوطني الفرنسي، أكتوبر 2023

ظلّ بيار بيرتييه يحدّق في الجملة منذ عشر دقائق.

« إذ كانت لديه رسائل من الملك المسيحي جداً تجيز له أن يوصي... »

تفصيل. مجرّد تفصيل في مراسلات فرانشيسكو ميلزي، المؤرَّخة في 15 يونيو 1519. قادته ثلاث سنوات من الأبحاث إلى هذا السطر الغامض. والآن إذ يُعيد قراءته للمرة المئة، لم يتوقّف عن مضايقته.

— رسائل غير موجودة، تمتم قائلاً.

— عفواً؟

كان أنطوان مارشان قد دخل للتوّ قاعة القراءة الكبرى للوثائق الأصلية، حاملاً فنجاني قهوة. أمين الأرشيف الوطني الفرنسي كان

يتابع أعمال بيرتييه منذ سنوات عديدة. نشأت بينهما ألفة فكرية، قوامها تبادل حماسي وغداءات معتادة.

رفع بيرتييه عينيه عن النسخ المصوّرة المنتشرة أمامه.

— تلك الرسائل الشهيرة لمنح الجنسية التي يُفترض أن ليوناردو تلقّاها من فرانسوا الأول. لقد انتهيت للتوّ من تمحيص المجلدات التسعة لفهرس الأعمال. جميع الرسائل الممنوحة بين عامي 1515 و1547. أتعلم ماذا وجدت فيها؟

وضع مارشان فنجاني القهوة وجلس.

— لا شيء؟

— لا شيء على الإطلاق. ولا أثر واحد لليوناردو دافنشي في السجلات الملكية.

فهم مارشان الدلالة، لكنه تردّد في صياغتها.

— ما يعني أنّ...

— ما يعني أنّ ليوناردو لم يستطع قط أن يورّث أعماله بصورة قانونية. فمن دون التجنّس، كان حق الغريب يُطبَّق: عند وفاته، يعود كل شيء إلى الملك.

دفع بيرتييه نحوه الإشعار المطبوع من موقع متحف اللوفر.

— انظر ماذا يقول المتحف: يُقال إنّ الجوكندا *«قُدّمت للسيّد الملك»* عام 1518 من تلميذه سالاي. قبل عام واحد من وفاة المعلّم. ألا تجد ذلك غريباً؟

— تلميذ يهدي الملك لوحة لا تعود ملكيتها إليه بعد؟

— بالضبط. الفرضية الرسمية هي أن ليوناردو كان قد رتّب أمر خلافته مسبقاً. لكن من دون رسائل التجنّس، كان ذلك مستحيلاً من الناحية القانونية.

شرب مارشان رشفة من قهوته، وعيناه مثبّتتان على الوثائق.

— بماذا تخبرني يا بيار؟

استقرّ بيرتييه في مقعده، يزن كلماته.

— أقول لك إنّ وصية ليوناردو، تلك التي تقوم عليها كل قصة انتقال أعماله، لا توجد إلا بالنسخة الإيطالية. أما الأصل الفرنسي؟ لم يُعثر عليه قط. وموثّقو أمبواز؟ رفضوا دائماً إظهار أرشيفهم.

توقّف لحظة.

— وأضيف أنّ فرانشيسكو ميلزي ربما زوّر وصية ليستأثر بأعمال كانت، من الناحية القانونية، ملكاً للتاج.

ترددت دقّات الساعة الجدارية في صمت القاعة. كان مارشان ينظر إلى محدّثه وكأنه يراه لأول مرة.

— هل تدرك ما تقوله؟ الجوكندا...

— الجوكندا دخلت فعلاً المجموعات الملكية. لكن ليس البتة كما رُوي لنا. لا عن طريق الشراء، ولا عن طريق الهبة. بل عن طريق المصادرة، تطبيقاً لحق إقطاعي مثير للجدل وغير شرعي لم يرغب أحد في رؤيته. وهذا يطرح اليوم مشكلات قانونية جدّية. ليس فقط بخصوص الجوكندا، بل أيضاً بخصوص أعمال أخرى كثيرة للرسام معروضة في متاحفنا.

توجّه مارشان نحو النافذة المطلّة على فناء قصر سوبيز. في الخارج، كان المارّة يتجولون، جاهلين السرّ الذي حفظه الأرشيف منذ خمسة قرون.

جمع بيرتييه وثائقه بحركات بطيئة.

— ما سأرويه لك لا يرد في أي كتاب مدرسي، ولا في أي إشعار رسمي. إنها القصة السرية لأشهر تحفة لدينا. قصة جشع، وتزوير، ونصب. قصة تختلط فيها الحقائق بالأساطير، حيث تكذب الوثائق أحياناً ببلاغة.

رفع عينيه نحو أمين الأرشيف.

— هل أنت مستعد لاكتشاف القصة الحقيقية للموناليزا؟

الفصل 1: سيّد كلو–لوسيه

قصر كلو–لوسيه، قرب أمبواز

قبل عامين ونصف من وفاته، عبر ليوناردو دافنشي للمرة الأولى عتبة قصر كلو–لوسيه. في الرابعة والستين من عمره، منهكاً من ترحاله الإيطالي، كان قد أمضى ثلاثين عاماً يتنقل من بلاط إلى بلاط، من ميلانو إلى روما، ومن فلورنسا إلى البندقية، باحثاً عن رعاة يفهمون عبقريته المتعددة الأوجه. وكان دوماً يصطدم بالعقبات نفسها: الغيرة، وعدم فهم الأمراء، ونفاد صبر أصحاب الطلبات.

كانت الرحلة من ليون شاقة. فعبور جبال الألب في محفة، رغم الوسائد والأغطية، أيقظ آلام مفاصله. لكن الآن، وهو يتأمل هذا القصر ذا الطوب الوردي والحجر الأبيض المتوارٍ بين خضرة تورين، غمره هدوء غريب. ربما هنا أخيراً سيجد السلام.

الملك الشاب لفرنسا، المُتوَّج بانتصاره في مارينيان، كان يقدّم له أخيراً ما لم يجده قط في إيطاليا: حرية كاملة. لا أوامر ملحّة، لا التزامات

مقيّدة. مجرد شرف أن يكون «*الرسام الأول، والمهندس والمعماري للملك*»، براتب سخي قدره ألف قطعة ذهبية سنوياً وهذا القصر الواقع على بعد بضع مئات من الخطوات من القصر الملكي.

— أيها المعلّم، قال فرانشيسكو ميلزي، تلميذه الأول، وهو يساعده على النزول من المحفة، هذا مسكنك الجديد. أليس رائعاً؟

تفحّص ليوناردو المبنى الذي سيكون ملجأه الأخير. شُيّد قبل نصف قرن على يد إتيان لو لو، أمين خزانة لويس الحادي عشر، وكان الصرح يمتد على طابقين بأسلوب يمزج بانسجام بين العمارة القوطية المتأخرة وبواكير التأثيرات الإيطالية للنهضة. كانت النوافذ العالية ذات الصلبان الحجرية تكشف عن غرف واسعة مضاءة. وارتفعت برج ثُمانية الأضلاع على أحد الجوانب، يعلوها سقف من الأردواز على شكل مطحنة فلفل. وحولها، تنحدر حدائق مصانة بعناية على شكل مصاطب نحو نهر أماس.

— إنه جميل، أقرّ الشيخ. لكنه أيضاً بعيد جداً عن كل ما كانت عليه حياتي.

كان يفكّر في فلورنسا، مسقط رأسه حيث تعلّم فنه في ورشة أندريا ديل فيروكيو. وفي ميلانو، حيث أمضى سبعة عشر عاماً في خدمة الدوق لودوفيكو سفورزا، مصمّماً آلات حربية، ورساماً «العشاء الأخير» في مطعم دير سانتا ماريا ديلي غراتسيه، ودارساً التشريح سراً في المشرحات. وفي روما، حيث استقبله البابا ليون العاشر

بحماس أقل مما كان يأمل، مفضّلاً عليه الشاب المتحمّس رافائيل. وفي البندقية، ومانتوفا، وفلورنسا من جديد، دائماً بحثاً عن ملاذ سلام كان يفلت منه.

التلميذ الثاني، الملقّب سالاي، كان اسمه الحقيقي جان جياكومو كابروتّي. وبينما يشرف على تفريغ الصناديق الحاوية للأعمال والمخطوطات، تدخّل بلامبالاته المعهودة:

— على الأقل هنا يا معلّم، لن يأتي أحد ليلومك على عدم العمل بسرعة كافية. الملك فرانسوا يترك لك حرية الإبداع بالوتيرة التي تناسبك.

أومأ ليوناردو برأسه. كانت فرنسا تمثّل بداية جديدة. لكنه أيضاً، بشكل غامض، شعر أنها خاتمة. وبيده اليمنى المشلولة جزئياً منذ نوبة أصابته في العام السابق، كان يعلم أن أيام رسمه معدودة. ربما لا يزال بإمكانه الرسم التخطيطي والتفكير والكتابة. لكن اللوحات الكبرى والجداريات الضخمة، فقد انتهى عهدها.

خُصّصت الأسابيع التالية للاستقرار. اختار ليوناردو القاعة الكبرى في الطابق الأول ورشة له، وكانت متجهة نحو الشمال لتستفيد من إضاءة ثابتة. نظّم رفيقاه المكان: الحوامل قرب النوافذ، وطاولات العمل في الوسط، والخزائن للدفاتر على طول الجدران.

كان قد جلب أعزّ أعماله: الجوكندا، بالطبع، التي لم يرغب قط في بيعها رغم العروض المغرية؛ والقديسة آنّا غير المكتملة التي كان يتقنها منذ خمسة عشر عاماً؛ والقديس يوحنا المعمدان بنظرته المقلِقة؛ وليدا مع البجعة التي كانت شهوانيتها تُثير فضيحة عند المتزمّتين. وقبل كل شيء، عشرات الدفاتر المليئة بأبحاثه: دراسات مبنية على تشريحات سرّية، ومخططات لآلات طائرة، ورسائل حول جريان السوائل، وتأملات في المنظور ولعبة الظلال.

استغرق تفريغ هذه الكنوز عدة أيام. فُتح كل صندوق بحذر، وأُخرج كل لوحة بإجلال. كان فرانشيسكو وسالاي معتادَين على هذه العمليات، لكنهما كانا دائماً يمضيان فيها بانتباه شديد. صدمة واحدة، خدش واحد، وكانت سنوات من العمل قد تتعرّض للتلف.

وُضعت الجوكندا على حامل قرب النافذة الرئيسية، حيث تكشف أشعة الصباح المائلة كل تفاصيل السفوماتو. أمضى ليوناردو ساعات طويلة يتأملها، متسائلاً إن كان عليه أن يعيد لمسها أو أن يعتبرها أخيراً منتهية. خمسة عشر عاماً وهو يعمل على هذا الصورة، خمسة عشر عاماً يعود إليها بلا انقطاع، مضيفاً طبقة شفافة لا تكاد تُرى هنا، معدّلاً ظلاً هناك. أما ليزا غيراردّيني، زوجة التاجر الفلورنسي فرانشيسكو ديل جوكوندو، فقد ماتت منذ زمن بعيد. لكن صورتها ظلّت تطارد الرسام.

رُتّبت المخطوطات بمنهجية في الخزائن. كان ميلزي قد وضع نظام تصنيف: الدراسات التشريحية في الخزانة الأولى، والأبحاث عن الماء والقنوات في الثانية، والملاحظات عن الطيران والآلات في الثالثة، والتأملات في الرسم والمنظور في الرابعة. كان كل مجلّد موسوماً، ومؤرَّخاً حين أمكن ذلك، وموصوفاً باختصار.

وكان هذا الكنز الفكري هو ما جعل ليوناردو أكثر بكثير من مجرد رسام. كان رجلاً موسوعياً، عقلاً يحتضن كل أشكال المعرفة. كشفت له تشريحاته السرّية أسراراً كان أطباء السوربون يجهلونها. وقادته ملاحظاته لطيران الطيور إلى تصميم آلات طائرة قد تسمح يوماً ما للبشر بالارتفاع في الهواء.

لكن مَن سيهتم بكل هذا بعد موته؟ من سيدرك أهمية هذه الرسوم المشخبطة، وهذه الملاحظات المكتوبة بالمرآة، وهذه المخططات المعقدة؟ شعر ليوناردو بثقل المسؤولية عن نقل هذا العلم. لكن لمن؟ كان فرانشيسكو ذكياً ومخلصاً، لكنه يفتقر إلى السعة العلمية اللازمة. وكان سالاي ماهراً بيديه، لكنه ضعيف الميل إلى النظرية. فهل سيكون التلميذان قادرَين على صون هذا الإرث؟

كان ليوناردو يستيقظ باكراً، رغم إعيائه المزمن. أحبّ أن يشاهد الفجر من نافذة غرفته، يرقب كيف يحوّل الضوء المشهد تدريجياً، كاشفاً أولاً الكتل المظلمة للأشجار، ثم تفاصيل الأوراق، ثم الألوان أخيراً.

بعد إفطار خفيف — خبز وفاكهة وقليل من الجبن، لا لحم أبداً، إذ كان قد تبنّى منذ زمن طويل نظاماً غذائياً نباتياً — كان ينزل إلى الورشة. خُصّص الصباح للعمل الإبداعي: لمسات على اللوحات، ورسوم في دفاتره، وتأملات في رسائله. ثم يأتي الغداء، تتبعه قيلولة لا غنى عنها في سنّه. وكان بعد الظهر مخصصاً للتنزّه في الحدائق أو للأحاديث مع تلميذَيه المفضّلَين. أما في المساء فكان يقرأ على ضوء الشموع، يراجع الكتب التي أحضرها معه: بلينيوس الأكبر، وفيتروفيوس، وألبرتي، وكتابه المقدس المحشّى بالتعليقات.

استقرّ فرانشيسكو وسالاي في غرفتين مجاورتين لغرفة المعلّم. وكان سالاي يملك إضافة إلى ذلك ملحقاً صغيراً في الحديقة هيّأه ورشة خاصة به. وكان دورهما متعدداً: مساعدَين في الورشة، وكاتبَين للمراسلات، ووكيلَين للإدارة اليومية للقصر. وضع الملك تحت تصرّفهما عدة خدم — طاهية وخادمتين وسائساً وبستانياً — لكنهما فضّلا أن يتوليا بأنفسهما كل ما يمسّ ليوناردو مباشرة.

كانت العلاقات بين الرجال الثلاثة معقّدة. عامل ليوناردو فرانشيسكو بحنان يكاد يكون أبوياً. وكان هذا النبيل الميلاني الشاب، ابن قائد في الميليشيا الدوقية، قد ترك كل شيء في السادسة عشرة ليتبعه: عائلته، ثروته، آفاق مستقبله. وبعد أحد عشر عاماً، في السابعة والعشرين من عمره، أصبح أكثر بكثير من مجرد مساعد. كان صديقاً موثوقاً، ورفيقاً، وابناً روحياً.

أما مع سالاي فكانت العلاقة مختلفة. كان جان جياكومو قد استقبله وهو في العاشرة كولد شوارع، لصاً ومشاغباً. علّمه ليوناردو، وكوّنه، وحوّله إلى فنان كفء. لكن ظلّ بينهما دائماً توتر، لعبة غامضة مزيج من المحبة والضيق. وظلّ سالاي، البالغ الآن ستة وثلاثين عاماً، متقلّب المزاج، غير منضبط، مغرياً. كان يختفي أحياناً أياماً، ويعود من دون تفسير. كان ليوناردو يوبّخه برفق، لكنه في أعماقه كان يغفر له دائماً.

كوّن الرجال الثلاثة أسرة غريبة. كان ليوناردو الأب الحكيم والشارد أحياناً. وكان فرانشيسكو المنظّم المنهجي والمخلص. وكان سالاي الروح الحرّة التي تضفي لمسة من الخفة على حياتهم الجادة.

شرع ليوناردو في استكشاف موطنه الجديد. ورغم رومانتيزمه، أحبّ المشي. كان يجوب حدائق القصر كل يوم، ثم يغامر في الأرجاء المحيطة.

كان كلو–لوسيه متّصلاً بالقصر الملكي عبر نفق سري. وكانت هذه الممرات المحفورة في الحجر الجيري تُبهر ليوناردو. نزل إليها عدة مرات، يدرس تقنية بنائها، مسجّلاً كيف تتسرّب الرطوبة من الجدران، متأملاً في وسائل تحسين التهوية. دوّن ملاحظات، ورسم مخططات. ربما يقترح على الملك تحسينات.

كانت الحدائق رائعة، حتى في نهاية هذا الخريف. تنحدر المصاطب نحو النهر المزروع بأشجار الفاكهة والخضار والأعشاب العطرية.

وكان البستاني، رجل يُدعى ريمي، صموت الطباع، يعتني بهذا الضيعة بحب. كان ليوناردو يمضي ساعات طويلة يراقب عمل الطبيعة: كيف تسقط الأوراق من الأشجار، وكيف تبني الطيور أعشاشها، وكيف يجري الماء في سواقي الري.

كان كل شيء مادة للدراسة. في يوم من الأيام، أمضى ثلاث ساعات يراقب حلزوناً يتسلّق جداراً، مفتوناً بميكانيكية حركته. وفي يوم آخر، شرّح ضفدعاً، دارساً بنية قوائمه المكفّفة، فاهماً كيف تدفع الحيوان في الماء. كانت كل ملاحظة تُدوَّن في دفاتره، مرفَقة برسوم بدقة مذهلة.

كانت قرية أمبواز، بقصرها الملكي المطلّ على نهر اللوار، تقدّم مشهداً مبهراً. كان ليوناردو يتردد عليها بانتظام، برفقة فرانشيسكو. كانا يعبران النفق، ويظهران في حدائق القصر، ثم يتجولان في أزقّة المدينة الضيقة. أحبّ التوسكاني مشاهدة الحرفيين وهم يعملون: الحدّاد يطرق الحديد، والنجّار يركّب ألواحه، والخبّاز يعجن عجينه. وكانت كل حرفة تكشف مبادئ ميكانيكية يحلّلها عقله على الفور.

وكان نهر اللوار نفسه موضوع دراسة لا ينضب. أمضى ليوناردو ساعات على ضفافه، يتفحّص التيار، ويسجّل تغيّرات المنسوب، ويفحص الدوّامات التي تتشكّل حول ركائز الجسر. لطالما سحره الماء، هو الذي نشأ قرب نهر آرنو. كان يرى فيه مبدأً كونياً، قوة

أولية تنحت الأرض، وتغذّي الحياة، وتطهّر الأجساد. وكانت أبحاثه عن حركة السوائل من بين أنضج أعماله.

زار الملك ليوناردو في الأسبوع الأول من ديسمبر. كان فرانسوا الأول آنذاك في الثانية والعشرين من عمره، سنّ يمتزج فيه الحماس بالطموح. طويل القامة، رياضي البنية، ذو وجه ممشوق تعلوه لحية بنية مشذّبة بعناية، جسّد الجيل الجديد من الأمراء الإنسانويين، عاشقاً للفنون والآداب بقدر عشقه للحرب والصيد.

وصل صباحاً برفقة حاشية صغيرة: صديقه الحميم الأميرال بونيفيه، وكبير حجّابه كونت سان–بول، وبالطبع كاتبه غيوم غوفييه. كانوا قد سلكوا النفق السري، يظهرون في حدائق كلو–لوسيه كمتآمرين.

كان ليوناردو في انتظارهم في الصالون الكبير في الطابق الأرضي، مرتدياً أجمل ثوب مخملي أسود. وقف فرانشيسكو وسالاي في الخلف، مستعدَّين لتقديم الخمر والحلويات.

— أيها المعلّم ليوناردو، قال فرانسوا بالإيطالية بلكنة فرنسية قوية، إنه لشرف عظيم أن نستضيفك في مملكتنا. لطالما أعجبنا بإبداعاتك منذ نعومة أظفارنا. كان معلّمنا الخاص، السيد كريستوف دو لونغوي، يُرينا نسخاً من رسومك ويحدّثنا عن عبقريتك.

كان فرانسوا معجباً بليوناردو، حقاً. لكنه كان أيضاً ملكاً عملياً. استثمار. ألف قطعة ذهبية سنوياً كانت ثمن فوج من المرتزقة. فماذا

كان يجني في المقابل؟ هيبة استضافة أعظم عبقري في عصره في بلاطه. مجد حماية ما رفضته إيطاليا. لكن أيضاً — ولم يكن فرانسوا يخفي ذلك عن مستشاريه — أملاً في أن يصمّم له ليوناردو آلات حربية، وتحصينات منيعة، وأسلحة جديدة. كان الكرم والحساب يمكن أن يتعايشا.

انحنى ليوناردو باحترام، لكن الملك أوقفه بإشارة ودّية.

— لا، لا، أيها المعلّم! نحن من يجب أن ننحني أمامك! أنت أعظم فنان في عصرنا، وربما في كل العصور! لسنا سوى ملك شاب لا يزال عليه أن يتعلّم كل شيء.

لمس هذا التواضع الآسر، وإن كان محسوباً قليلاً لكنه صادق، قلب الشيخ. كان قد عرف كثيراً من الأمراء المتغطرسين، وكثيراً من الرعاة المتعالين. أما هذا فكان مختلفاً.

— يا مولاي، تشرّفني بحضورك وكلماتك. لكنّني أنا من يجب أن يشكرك على استضافتي في مملكتك بينما كانت وطني ترفضني.

— إيطاليا فسيفساء من دويلات متنافسة يغار بعضها من بعض. أما فرنسا فمملكة موحّدة تحت تاج واحد. هنا سيُعترف بعبقريتك على حقيقتها.

استقرّ فرانسوا في مقعد، مشيراً إلى ليوناردو ليحذو حذوه. بقي رفاقه واقفين، لكن الأجواء كانت مسترخية.

— أيها المعلّم، أريدك أن تشعر بالحرية هنا. حرية تامة. لن يقع عليك أي التزام بالإنتاج. عِش، وأبدع، وتأمّل كما يحلو لك. حضورك وحده هدية لا تُقدَّر بثمن.

— يا مولاي، أنت شديد الكرم.

— بل غير كافٍ، على العكس. أتعلم أنني أحلم منذ طفولتي بجعل فرنسا مركزاً جديداً للنهضة؟ روما لديها ميكل أنجلو. فلورنسا لديها آل ميديتشي. البندقية لديها رسّاموها. أما فرنسا فستكون لديها ليوناردو دافنشي.

خلال الساعتين التاليتين، تحدّثا في الفن والعلم والعمارة. أراد فرانسوا أن يحوّل مملكته، أن يبني قلاعاً تنافس القصور الإيطالية، وأن يجذب أفضل الفنانين...

— لديّ مشروع سيثير حماسك، أعلن وهو يفرد مخططات على طاولة. نريد بناء قلعة جديدة في شامبور، على بعد بضعة فراسخ من هنا. صرح يمزج بين الابتكارات الإيطالية وتقاليدنا الفرنسية. فكّرنا في درج مزدوج الدوران، يستطيع فيه شخصان الصعود والنزول في آنٍ واحد من دون أن يتقاطعا أبداً. ما رأيك؟

تفحّص ليوناردو المخططات بانتباه. كانت الفكرة بارعة، لكن التصميم التقني ينطوي على تحدّيات كبيرة.

— يا مولاي، المفهوم أصيل. سيتطلّب الهيكل حسابات بدقة متناهية ليتحمّل وزن الحجارة مع الحفاظ على سلاسة المنحنيات. اسمح لي أن أدرس ذلك وأقترح عليك حلولاً.

— خذ كل الوقت اللازم. الجمال لا يُملى، بل يُنتظر.

حين غادر الملك أخيراً، شعر ليوناردو بانتعاش غريب. للمرة الأولى منذ سنوات، كان يلتقي بأمير يفهم حقاً ما يفعله، ويهتم صادقاً بأفكاره، ويحترمه لا كحرفيّ نافع، بل كمفكّر صاحب رؤية.

استقرّ الشتاء على منطقة تورين، حاملاً معه نصيبه من الصقيع والضباب الصباحي. كان كلو–لوسيه، بمداخنه الكبيرة وسجاداته الجدارية السميكة، يوفّر ملاذاً مريحاً من البرد. وكان ليوناردو، الذي عانى دوماً من شتاءات ميلانو، يقدّر هذا المناخ الأكثر لطفاً.

كان فرانشيسكو يتولى كل الجوانب العملية لإقامتهما. همس بعضهم بأن عاطفة خاصة تربط الرجلين، لكن فرانشيسكو كان يصدّ هذا الافتراء بهزّة كتف.

— يا ولدي العزيز، كان ليوناردو يكرّر غالباً، لقد ضحّيت بشبابك من أجلي. كان بإمكانك أن تكون قائداً مثل والدك، وأن تتزوّج وريثة ثرية، وأن تعيش حياة مريحة في ميلانو. وبدلاً من ذلك، تقضي أيامك في ترتيب دفاتري وتحضير ألواني.

— تعلّمت إلى جانبك أكثر مما كنت لأتعلّمه في عشر حيوات من حياة رجل بلاط ميلاني، كان فرانشيسكو يجيب دائماً. لقد علّمتني أن أرى العالم بعيون جديدة، وأن أشكّك في اليقينيات، وأن أبحث عن الجمال في العلم وعن العلم في الجمال. كيف لي أن أندم على هذا الاختيار؟

بدت الورشة كمغارة علي بابا. على الجدران، عشرات الرسوم المثبَّتة: دراسات للرؤوس، والأقمشة، والمناظر الطبيعية، والآلات، والتشريح. وعلى الطاولات، أدوات علمية: فرجار ومساطر وزوايا واسطرلابات. وفي الخزائن، مئات الأوراق المتناثرة المغطّاة بتلك الكتابة العاكسة المرآوية المميّزة، تسير من اليمين إلى اليسار وكأنها تصعد عكس مجرى الزمن.

كان ليوناردو يعمل على مشاريع عدة في آن واحد. كان يعيد لمس الجوكندا بلا كلل، مضيفاً طبقات شفافة لا تكاد تُرى ليُتقن ذلك السفوماتو الذي يمنح الجلد نسيجاً مقلِقاً من الصدق.

لكن ذراعه اليمنى بدأت تخونه. كان الأطباء يتحدّثون عن «*سكتة*»، نوع من النوبة شلّت جانبه الأيمن جزئياً. كان لا يزال بإمكانه الرسم، لكن الحركات الدقيقة تتطلّب منه جهداً كبيراً. وأصبح الرسم الزيتي، بتفاصيله الدقيقة، مرهقاً.

— أشيخ، كان يتمتم أحياناً. لم يعد جسدي يستجيب لأوامر عقلي. إنه شعور غريب أن يشعر المرء بأنه سجين لحمه.

كان فرانشيسكو يحاول طمأنته:

— أيها المعلّم، في سنّك هذه، لا تزال قوياً بشكل لافت. أفكارك لا تزال مبتكرة، ونظرتك إلى العالم لا تزال ثاقبة. فماذا يهمّك أن ترتجف يدك قليلاً؟

— ماذا يهمّني؟ أنا رسام يا فرانشيسكو. يدي هي أداتي. فإذا خانتني، فماذا أكون؟

— أنت أكثر بكثير من رسام. أنت مفكّر، وعالم، ومهندس. عقلك يساوي ألف يد.

كانت هذه الأحاديث تتكرر بانتظام، دليلاً على أن ليوناردو يقيس بوضوح تدهور قدراته الجسدية. لكنه رفض الاعتراف بالهزيمة. كان يجلس كل يوم أمام الجوكندا محاولاً إتقان ظلّ ما، أو تعديل انعكاس ما. وكانت النتيجة غالباً مخيّبة — إذ لم تعد يمناه تطاوعه — لكنه كان يثابر بعناد صلب.

وفى فرانسوا الأول بوعده: كان يزور ليوناردو بانتظام. أحياناً بصحبة بلاطه — زوجته كلود دو فرانس، وأخته مارغريت دو نافار، ومستشاروه وحاشيته. وأحياناً وحده، أو شبه وحده، برفقة صديقه بونيفيه، لأحاديث حميمة.

كانت هذه الزيارات الملكية أحداثاً. كان الخدم يهرعون. وكان فرانشيسكو يحرص على أن تكون الورشة لائقة، مرتّباً الأوراق

المتناثرة، منفّضاً الأثاث. وكان سالاي، الذي كان له ذوق في الإخراج المسرحي، يعرض بعضاً من أجمل الرسوم في مكان بارز.

لكن ليوناردو كان يكره هذا الاضطراب. كان يفضّل الزيارات المفاجئة، حين يصل الملك عبر النفق من دون مراسم، يجلس في مقعد، ويبدأ الحديث كصديق لا كملك.

في يوم من أيام فبراير، وصل فرانسوا هكذا فجأة، فوجد ليوناردو وحيداً في الورشة، يحدّق في الجوكندا.

— لا تزال تسحرك هذه السيدة؟

— يا مولاي، لا أدري أيّنا يسحر الآخر... خمسة عشر عاماً وأنا أعمل على هذه اللوحة. خمسة عشر عاماً وأنا أبحث عن الكمال. ولا أزال لا أعلم إن كنت قد بلغته.

— كمالي حتى العبث، همس الملك مقترباً من اللوحة. لكن ربما هذا ما يصنع عبقريتك. هذا السعي المستحيل نحو المطلق.

— أو لعنتي. أتعلم كم لوحة تركتها غير مكتملة؟ كم طلبية خيّبتها؟ يلومونني على بطئي، وترددي. يزعمون أنني أفضّل التفكير على الفعل.

— يُقال أيضاً إن كل عمل من أعمالك المنتهية يساوي عشرة أعمال لمعلّم آخر.

وقف فرانسوا أمام الجوكندا، يتأملها بصمت.

— كيف تمنح هذه السيدة هذا الحضور؟ كأنها ستنزل من إطارها وتحدّثنا.

ابتسم ليوناردو ابتسامة خافتة.

— يا مولاي، أمضيت وقتاً لا نهائياً في رسم هذه اللوحة وإعادة رسمها. درست تلاعب الظلال على الجلد البشري، وكيف تذوب المناطق الداكنة في الأجزاء الفاتحة. هذا ما يُسمّى السفوماتو، فنّ إخفاء الحدود لمنح انطباع الحياة.

— سفوماتو، كرّر فرانسوا مستمتعاً بالكلمة الإيطالية.

«مُدخَّن»، بمعنى ما. كأنك ترسم عبر حجاب من الضباب.

— بالضبط. الطبيعة لا تعرف الخطوط. كل شيء انتقال، مرور من شكل أو لون إلى آخر. الرسام الذي يرسم حدوداً واضحة يخون الطبيعة. يجب أن يوحي لا أن يجزم.

استمع الملك. كان يتمنى لو رسم ليوناردو تحفاً أخرى، لكنه فهم أنه بات الآن شديد الإعياء، شديد الإنهاك بسبب شلله الجزئي.

— لا تُنهك نفسك في الإبداع من أجلنا، أضاف بلطف غير معهود. حضورك هنا هدية لا تُقدَّر بثمن. حادثنا، أرشدنا، شاركنا حكمتك. هذا ما ننتظره منك.

لمس هذا العطف ليوناردو. كم من الرعاة أبدوا له مثل هذا الفهم؟ كم منهم قبل أن فناناً متقدماً في السنّ لم يعد بذات الإنتاجية السابقة؟

— يا مولاي، أنت أمير نادر. خدمت لودوفيكو سفورزا، وتشيزاره بورجيا، والبابا ليون العاشر. لم يعاملني أحد منهم بهذا القدر من الاحترام والحرية. سأبقى ممتناً لك أبد الدهر.

— نحن من ندين لك بالامتنان. بالفعل، فنانون إيطاليون آخرون ينضمون إلينا، يجذبهم مثالك. قريباً ستكون لدينا فلورنسا خاصة بنا، وروما خاصة بنا.

لكن وراء هذا الطموح السياسي، كان فرانشيسكو يدرك شيئاً أكثر أصالة: صداقة حقيقية بين الملك الشاب والمعلّم الشيخ. صداقة غير محتملة، تعبر الأجيال والمراتب الاجتماعية، قائمة على إعجاب متبادل.

في ربيع عام 1517، أوكل فرانسوا الأول إلى ليوناردو الإشراف الفني على ورشة بناء شامبور. كان على هذه القلعة، التي سيُوضَع حجر أساسها في سبتمبر، أن تجسّد عظمة الملكية الفرنسية وانفتاحها على التأثيرات الإيطالية.

انغمس ليوناردو في المشروع بطاقة رجل في الثلاثين. كانت ذراعه اليمنى ضعيفة، لكن عقله ظلّ حاداً. رسم مخططات، وتخيّل ابتكارات، واقترح حلولاً تقنية للتحديات المعمارية.

كان الدرج مزدوج الدوران، تلك الجوهرة في القلعة المستقبلية، يشغل باله. كيف يبني هيكلاً يستطيع فيه شخصان الصعود والنزول من

دون أن يتقاطعا؟ كان المبدأ الهندسي بسيطاً: حلزونان متشابكان. لكن تنفيذه بالحجر الصلب أثار مشكلات إستاتيكية مخيفة.

أمضى ليوناردو أسابيع يحسب الأحمال، ويرسم الأقبية، ويصمّم النواة المركزية. ملأ دفاتر بأكملها بالمخططات والملاحظات والحسابات. وكان فرانشيسكو يساعده، ينسخ الرسوم المشخبطة بخط نظيف، ويتحقق من الحسابات، وينظّم الوثائق لتقديمها إلى الملك.

— أيها المعلّم، هذا الدرج تحفة من العبقرية، لكن هل أنت متأكد من إمكانية بنائه؟ كان فرانشيسكو يقلق أحياناً، خشية أن يرى معلّمه يُنهك نفسه في مشروع قد يكون غير قابل للتحقيق.

— كل ما يمكن التفكير فيه يمكن بناؤه، كان ليوناردو يجيب بقناعة. السؤال ليس *«هل يمكن؟»*، بل *«كيف؟»*. وسأريهم كيف.

لم يكن شامبور المشروع الوحيد. كانت لفرانسوا الأول طموحات أخرى لمملكته. أراد تحديث تحصينات المدن الحدودية، وحفر قنوات لتسهيل التجارة، وتهيئة حدائق على الطراز الإيطالي في قصوره، وتطوير مدفعية المملكة.

في كل هذه المواضيع، كان يستشير ليوناردو. وكان الشيخ يجيب بسخاء، مشاركاً علمه الهائل المتراكم عبر أربعين عاماً من التأمل والتجريب.

أما بالنسبة للتحصينات، فقد اقترح معاقل نجمية الشكل تصمد أمام قذائف المدافع أفضل من الأسوار القروسطية القديمة. رسم مخططات دقيقة، تُظهر كيف تصرف الزوايا المحسوبة القذائف عوضاً عن استقبالها مباشرة.

أما بالنسبة للقنوات، فقد اقترح مساراً يربط نهر اللوار بنهر السون، مما يسمح للبضائع بعبور فرنسا من دون سلوك الطرق الخطرة. صمّم أنظمة أهوسة تُوفّر الماء وتُسرّع في الوقت نفسه مرور المراكب.

أما للحدائق، فقد تخيّل ألعاب مياه مبهرة، ومغاور اصطناعية، وآليات ستُدهش الزوار. مستوحياً من حدائق فيلا ديستي التي اكتشفها في إيطاليا، أراد أن يخلق شيئاً أكثر طموحاً بعد.

ساعده تلميذاه على قدر استطاعتهما. فرانشيسكو، بتكوينه الهندسي، كان يفهم الجوانب التقنية. وسالاي، بمهارته اليدوية، كان يصنع نماذج مصغّرة تبعث الحياة في مفاهيم ليوناردو المجرّدة.

أصبحت ورشة كلو–لوسيه مختبراً للأفكار حيث يُجرَّب ويُختبر ويُحسَّن. نماذج مصغّرة لآلات تكدّس الطاولات. رسوم تغطي الجدران. رسائل تتراكم على الأرفف. كان فوضى منظّمة، اضطراباً خصباً يشهد على الحيوية الإبداعية التي تسود المكان.

في ربيع عام 1517، بدأت صحة ليوناردو تتدهور. تفاقم روماتيزمه، فأصبحت الحركات مؤلمة. وتقدّم شلل يمناه، ليمتد إلى الساعد. وفي بعض الأيام، لم يعد قادراً حتى على مسك قلم.

قدم الأطباء من القصر. فحصوا المريض، وطرحوا الأسئلة، وجسّوا الأطراف الخدرة. كان تشخيصهم قاطعاً: أُصيب المعلّم بسكتة دماغية أضرّت بمراكز الأعصاب المتحكّمة بالجانب الأيمن من الجسد. وكان الشلل غير قابل للشفاء، بل قد يتفاقم.

— كم بقي لي من الوقت؟ سأل ليوناردو بوضوح فاجأ الأطباء.

— هذا بيد الله، أجاب بحذر الدكتور بورجنسيس، طبيب الملك الخاص. قد تعيش سنوات بعد، أو...

— أو أموت غداً. أفهم. شكراً على صراحتك.

حين انصرف الأطباء، ظلّ ليوناردو صامتاً، محدّقاً في يده اليمنى الجامدة الموضوعة على مسند المقعد. تلك اليد التي رسمت العشاء الأخير، ونحتت ملائكة من الرخام، وشرّحت عشرات الجثث، ورسمت آلاف الرسوم. تلك اليد التي لم تعد تطيعه.

— أيها المعلّم، همس فرانشيسكو وحلقه ينقبض، لا تفقد الأمل. ربما...

— يا فرانشيسكو، صديقي، الأمل فضيلة رائعة. لكن الواقعية أكثر نفعاً أحياناً. جسدي يخذلني. هذه حقيقة. عليّ أن أتقبّلها وأتكيّف معها.

— تتكيّف كيف؟

— بالتركيز على ما لا يزال بإمكاني فعله. لم أعد أستطيع الرسم، حسناً. لكن لا يزال بإمكاني التفكير، والكتابة بيدي اليسرى، وإملاء أفكاري. لا يزال بإمكاني أن أنقل.

أثار هذا التقبّل الرواقي إعجاب الرفيقين. لم يكن ليوناردو رجلاً يتوجّع. كان يواجه المحنة بالفضول العلمي نفسه الذي يطبّقه على كل شيء: يحلّل الأعراض، ويفهم الآليات، ويبحث عن الحلول.

وفي الأسابيع التالية، تكيّفت الورشة. أصبح فرانشيسكو يدَي ليوناردو. حين أراد المعلّم إعادة لمس لوحة، كان يُملي تعليماته وينفّذ فرانشيسكو، مسترشداً بتوجيهات مستمرة. كان الأمر محبطاً لكليهما، لكن لم يكن أمامهما خيار.

أما سالاي، فتولّى كل الجوانب العملية التي لم يعد ليوناردو قادراً على إدارتها وحده: تلبيسه، وحلاقة ذقنه، وتقطيع طعامه. كان *«الشيطان الصغير»* يُظهر في هذه المهام المتواضعة حناناً غير متوقّع، وصبراً لم يعرفه به أحد.

جلب صيف 1517 تسلية. نظّم فرانسوا الأول احتفالات كبرى للاحتفال بتعميد ابنه، ولي العهد. لأسابيع عدة، تحوّلت أمبواز إلى مسرح للبطولات والحفلات الراقصة والولائم والعروض.

طلب الملك من ليوناردو تصميم بعض التسليات. ورغم إعيائه، وافق ليوناردو. كانت فرصة لإظهار أن عبقريته الإبداعية لم تضعف، حتى وإن كان جسده يتدهور.

صمّم أسداً آلياً يتقدّم نحو الملك ثم يفتح صدره، فتنبثق منه زنابق — رمز الملكية الفرنسية. وحشدت بناء هذا الآلي فرانشيسكو وسالاي لأسابيع، بمساعدة عدة حرفيين محليين. كان ليوناردو يدير العملية من مقعده، يُملي التعليمات، ويصحّح الأخطاء، ويُتقن الآليات.

يوم العرض، حبس كل أمبواز أنفاسها. تحرّك الأسد، ذو الحجم العملاق، مصدراً هدير آليات. تقدّم نحو الملك، وتوقّف أمامه، ثم انفتح صدره، كاشفاً باقة من الزنابق الاصطناعية بجمال مذهل.

صفّق الحضور. اقترب فرانسوا الأول، متأثراً، من ليوناردو الذي كان يشهد المشهد من منصة.

— أيها المعلّم، أدهشتنا مرة أخرى.

— يا مولاي، ليست سوى لعبة. لكنني سعيد لأنها أعجبتك.

— أكثر من لعبة. إنها رمز. الأسد، رمز فلورنسا التي أتيت منها، ينفتح ليكشف عن زنابق فرنسا. هذا تحالفنا مجسّداً، إيطاليا وفرنسا متّحدتان في الفن والجمال.

لم يكن ليوناردو قد فكّر في هذا الرمز، لكنه تأثّر بأن يجد الملك فيه معنى بهذا العمق.

استمرت الاحتفالات عدة أيام. كانت هناك مسابقات فروسية مائية على نهر اللوار، وباليهات مائية، وألعاب نارية. أما ليوناردو، المُرهَق أكثر من أن يحضر كل شيء، فاكتفى بالروايات التي كان فرانشيسكو وسالاي ينقلانها إليه كل مساء.

لكن هذه الفترة المفرحة أنهكته أكثر. الجهد الذهني لتصميم الأسد الآلي، والتوتر العصبي أثناء العرض، والحماس العام، أفرغته من قواه. ففي أغسطس، اضطر إلى ملازمة الفراش أسبوعين، منهاراً بحمى عنيدة.

شهد الخريف عودة الأمطار وأولى موجات البرد. كان ليوناردو يمضي وقتاً متزايداً طريح الفراش أو في مقعده قرب المدفأة. لم تعد ساقاه تحملانه جيداً. وأصبحت الأدراج عذاباً حقيقياً.

أمر فرانشيسكو بتركيب سرير في الورشة نفسها، حتى لا يضطر ليوناردو للصعود والنزول بعد الآن. أصبحت الورشة غرفة نوم ومكتباً

وصالوناً في آن واحد. كان المعلّم يستقبل فيها زواره، ويعمل فيها بقدر ما تسمح صحته، ويقضي فيها لياليه.

تميّزت هذه الأشهر بتأمّل داخلي عميق. أخذ ليوناردو، الذي كان دوماً رجلاً متطلّعاً إلى المستقبل، إلى المشاريع والاكتشافات، يتأمّل في حياته، وفي إرثه، وفيما سيتركه خلفه.

أعاد قراءة دفاتره القديمة، فوجد رسوماً منسية، وملاحظات كُتبت قبل عشرين أو ثلاثين عاماً. بعض المشاريع كانت لا تزال تُدهشه بجرأتها. وبدا له بعضها الآخر ساذجاً، غير ناضج. لكنها جميعاً كانت تشهد على حياة كُرِّست للسعي وراء المعرفة.

— يا فرانشيسكو، قال ذات مساء بينما كانا يتصفّحان معاً دفتراً قديماً، انظر إلى كل ما فكّرت فيه، وتخيّلته، ورسمته. مئات الآلات، وآلاف الملاحظات، ورسائل كاملة. ومع ذلك، أشعر بأنني لم ألامس سوى سطح المعرفة.

— لقد أنجزت في عمر واحد ما لن ينجزه آخرون في عشرة أعمار. اكتشافاتك التشريحية وحدها ستحوّل الطب.

— إن نُشرت. إن لم تبقَ مدفونة في هذه المجلدات التي لا يستطيع أحد قراءتها بسبب خطّي. إن لم تُفقَد، أو تتبعثر، أو تُنسى بعد موتي.

كان هذا الهاجس يعود كثيراً. كان ليوناردو يقيس بقلق خطر أن يُفقَد كل عمله. من سيهتم بهذه الدفاتر المشخبطة؟ من سيخصّص الوقت لفكّ رموزها؟

— سأحرص على أن تُصان أعمالك، وعد فرانشيسكو بجدّية. سأكرّس حياتي، إن لزم الأمر، لإظهار عبقريتك.

— أنت ابن بارّ. أفضل مما أستحق.

— المشكلة أن هذه الدفاتر لا قيمة لها إلا لمن يستطيع فهمها. بالنسبة إلى تاجر، ليست سوى خربشات على ورق قديم. كيف سيستطيع فرانشيسكو صونها إن لم يرغب أحد في شرائها؟

صدمت هذه الملاحظة القاسية لكن الواقعية من سالاي المعلّم. كان فرانشيسكو محقاً. بعد موته، من سيرغب في هذه الدفاتر؟ من سيدفع لاقتنائها؟ من سيدرسها؟

— إذن يجب أن نُهديها إلى مؤسسات، إلى جامعة باريس ربما، أو إلى نبلاء متعلّمين كبار يدركون قيمتها.

— الجامعات لا تهتم إلا بأرسطو وآباء الكنيسة. ملاحظاتك، وآلاتك الطائرة، كل هذا سيبدو لها مريباً، بل ربما هرطقة.

اضطر ليوناردو إلى الاعتراف بأن تلميذه محقّ. كان العلم الذي جمعه متقدماً جداً على زمانه. ربما يلزم قرن، أو قرنان، قبل أن يفهم أحد قيمة اكتشافاته.

— إذن، احفظا اللوحات على الأقل، تنهّد بإعياء. اللوحات يمكن للجميع أن يقدّرها. الجوكندا، والقديسة آنّا، والقديس يوحنا المعمدان. هي التي ستُبقيني حياً.

كان الشتاء قاسياً. كان المعلّم يمضي وقتاً متزايداً في الفراش أو قرب المدفأة، ملفوفاً بأغطية صوفية. كان الأطباء يأتون، يصفون الفصادة، ومنقوعات الأعشاب، واللبخات. لم يجدِ شيء نفعاً حقاً.

استمرّ فرانسوا الأول في زيارته، رغم سوء الطقس.

في ربيع عام 1518، تدهورت حالة ليوناردو.

تناوب فرانشيسكو وسالاي على السهر عند فراشه، ينشّفان جبينه المحموم، ويسقيانه، ويحرسانه ليلاً ونهاراً. كان القلق يخنقهما. هل سيفقدان معلّمهما؟ ذاك الذي كان أباً وصديقاً ومرشداً طوال هذه السنوات؟

— سيموت، همس فرانشيسكو ذات مساء لسالاي، والدموع في عينيه. سيرحل عنّا، ولن نستطيع فعل شيء.

— لا تتحدّث هكذا، ردّ سالاي. المعلّم قوي. تخطّى محناً كثيرة. سينجو مرة أخرى.

وعلى غير المتوقّع، تعافى ليوناردو. في مايو 1518، انحسرت الحمى. استطاع النهوض، والمشي بضع خطوات، واستعادة شبه شهية. تحدّث الأطباء عن معجزة، وشكر الرفيقان العناية الإلهية.

— رأيت الموت، أسرّ ليوناردو لفرانشيسكو وهما يتنزّهان في حدائق كلو–لوسيه. كان هناك، قريباً جداً. شعرت بأنفاسه الباردة على قفاي. لكن شيئاً ما أمسك بي. لا يزال لديّ أشياء أفعلها، أشياء أنقلها.

— أيّ أشياء؟

— لا أعلم بعد. لكنني سأعرف حين يحين الوقت.

وأنهكه المرض، فاستأنف ليوناردو أنشطته.

مضى صيف 1518، ثم الخريف. كان قد استعاد جزءاً من قواه وعاد إلى العمل بمثابرة مفاجئة، وكأنه يريد إنجاز أقصى ما يمكن قبل الأجل الأخير الذي شعر باقترابه.

كان يرسم مخططات لمدينة مثالية، بشوارع متعددة المستويات لفصل المشاة عن العربات. كان يدرس اضطرابات الماء، ملأ دفاتر كاملة برسوم الدوامات والزوابع.

تميّز الخريف أيضاً بقلق متزايد بشأن مصير إبداعاته. كان ليوناردو يراقب تلميذَيه ويتساءل عمّا إذا كانا قادرَين على صون إرثه.

كان فرانشيسكو ذكياً، ومخلصاً، ومنظّماً. لكن هل ستكون له السلطة اللازمة لفرض قيمة هذه الدفاتر على عالم لن يفهمها؟ هل ستكون

له الوسائل المالية للحفاظ على اللوحات بدلاً من بيعها لأول تاجر يظهر؟

أما سالاي فكان ماهراً، وسريع البديهة، لكنه أيضاً متقلّب المزاج وقليل الورع أحياناً. كان ليوناردو قد ضبطه أكثر من مرة يكذب، ويستولي على أشياء لا تعود له. فهل يمكن الوثوق به لإدارة إرث بهذه الأهمية؟

كانت هذه الشكوك تعذّبه. تحدّث بها إلى فرانسوا الأول خلال زيارة في أكتوبر.

— يا مولاي، رفيقاي شابان طيبان. لكنني أخشى ألا يكونا في مستوى مواجهة الصعوبات التي تنتظرهما بعد موتي.

— أيّ صعوبات؟

— الدائنون الذين سيأتون يطالبون بديون وهمية. تجار الفن عديمو الضمير الذين سيحاولون خداعهما. كيف سيستطيع شابان إيطاليان تائهان في فرنسا مقاومة كل هذا؟

وضع فرانسوا يده على كتف ليوناردو.

— سأسهر عليهما. أعدك بذلك. بعد موتك، سأحرص على ألا ينقصهما شيء وأن تُحترم إبداعاتك.

— أشكرك يا مولاي. لكن الملوك ينسون وعودهم بسرعة حين يغيب من ألهمهم بها.

— لن أنسى. لك كلمتي الملكية.

أراد ليوناردو أن يصدّق الملك. لكنه كان يعلم في أعماقه أن الكلمات، حتى الملكية منها، تتبدّد مع الزمن.

كان شتاء 1518–1519 هو الأخير. كان ليوناردو يشعر بذلك، وكان الرفيقان يعرفانه، لكنهما كانا لا يزالان يرفضان الاعتراف به.

في يناير 1519، عاد المرض. سعال مستمر، صعوبات في التنفس، وهن عام. وهذه المرة، كان الأطباء متشائمين. لم يعد الجسد المنهك يستجيب للعلاجات. لم تكن الفصادات تُحدث سوى راحة مؤقتة. وظلّت منقوعات الأعشاب من دون تأثير.

كان فرانسوا الأول يزوره كل يوم تقريباً. كان يجلس عند فراشه، يمسك بيده، ويحدّثه بلطف. وكانت هذه الزيارات الملكية تُحرّك مشاعر كل أهل الدار. فأن يكرّس ملك فرنسا كل هذا الوقت لعجوز يحتضر، دليل على المودّة الصادقة التي يكنّها له.

— يا مولاي، قال ليوناردو ذات يوم في لحظة صفاء، أشكرك على كل ما فعلته من أجلي. كانت هذه السنوات في أمبواز سنوات هادئة.

— بل أنا من يشكرك، أجاب فرانسوا بتأثّر. أضاء حضورك بلاطنا. علّمتنا أن ننظر إلى العالم بعيون جديدة.

— كنت أتمنى لو فعلت المزيد من أجلك. أن أُتمّ شامبور، وأحفر ذلك القناة، وأرسم تلك الجداريات التي تحدّثنا عنها. لكنّ جسدي خانني.

— لقد فعلت الأهم: أريتنا ما هي العبقرية. هذه هدية لا تُقدَّر بثمن.

في فبراير ومارس، مرّ ليوناردو بفترات تحسّن تتناوب مع انتكاسات. في بعض الأيام كان يشعر بتحسّن، يستطيع النهوض، والجلوس في مقعده، والحديث بشكل شبه طبيعي. وفي أيام أخرى، كان يبقى منهاراً، أنفاسه قصيرة، عاجزاً عن نطق أكثر من بضع كلمات.

لم يعد فرانشيسكو وسالاي يغادران الورشة. كانا ينامان على فرش موضوعة قرب سرير المعلّم، مستعدَّين للتدخّل عند أدنى علامة ضيق. كانا مخلصَين تماماً.

في مارس وأبريل، دارت بين ليوناردو وتلميذيه محادثات عدة كانت لتظل محفورة في ذاكرتهما.

في يوم من الأيام، استدعى فرانشيسكو وأسرّ إليه:

— حين أرحل، سيتعيّن عليك أن تواصل من دوني. سيكون الأمر صعباً. ستشعر بالضياع، بالتخلّي. لكنك ستجد طريقك. تملك في داخلك قوة لا تعرفها بعد.

وفي يوم آخر، استدعى سالاي:

— يا «*شيطاني الصغير*»، لطالما كنت معي منذ العاشرة من عمرك. استقبلتك حين لم تكن سوى ولد شوارع. أما الآن، فأنت رجل مكتمل، فنان كفء. لكنك بقيت أيضاً ذلك الشقي الغريب الأطوار الذي عرفته.

ابتسم سالاي عبر دموعه.

— لم أعرف قط أن أكون جدّياً. ليس ذلك في طبيعتي.

— أعلم. ولهذا أحبّك. أدخلت الفرح إليّ حين كنت حزيناً، والخفّة حين كنت متعقلاً أكثر مما ينبغي. لا تتغيّر. ابقَ على حالك.

— أعدك بذلك.

كانت هناك أيضاً محادثات أكثر عملية. أراد ليوناردو أن يتأكّد من أن رفيقيه يعرفان أين توجد أوراقه المهمّة، وكيف يديران ديونه، وأيّ إبداعاته لها قيمة.

— في الصندوق البلوطي، توجد سندات دَين من مصرفيين فلورنسيين. ستستطيعان تحصيل هذه الديون بعد موتي. سيمنحكما ذلك بعض المال للعيش بانتظار بيع بعض اللوحات.

— لن نبيع شيئاً، احتجّ فرانشيسكو. سنحتفظ بكل شيء إحياءً لذكراك.

— لا تكن أحمق. ستحتاجان إلى المال للعيش. بيعا ما يلزم، لكن بذكاء. لا تبخسا قيمة لوحاتي لأول تاجر يظهر. انتظرا حتى تجدا هواة حقيقيين يدركون قيمتها.

كانت هذه التعليمات تتناوب مع تأمّلات أكثر فلسفية حول الحياة والموت والفن والعلم. أراد ليوناردو، وهو يشعر باقتراب نهايته، أن ينقل جوهر حكمته المتراكمة عبر سبعة وستين عاماً من وجود مكثّف.

— يا أبنائي، كان يكرّر، أمضيت حياتي أبحث عن الحقيقة. في الرسم، وفي العلم، وفي مراقبة الطبيعة. أتعلمان ماذا اكتشفت؟ أن الحقيقة عصية على الإمساك. فكلّما ظنّ المرء أنه أمسك بها، أفلتت. لا نرى منها سوى شذرات، انعكاسات. لكن هذا السعي، وإن كان عبثاً، يمنح الحياة معنى.

قصر كلو–لوسيه، قرب أمبواز، 28 أبريل 1519

تسلّل ضوء الشمس الصباحي عبر النوافذ الواسعة لقصر كلو–لوسيه. في الورشة الكبرى بالطابق الأول، كان فرانشيسكو ميلزي يراقب معلّمه الغافي. منذ أيام عدة، كانت حالته قد تدهورت.

لكن الآن، اقتربت النهاية، ومعها أسئلة رهيبة كان الشيخ قد أجّلها طويلاً جداً.

— أيها المعلّم، همس فرانشيسكو مقترباً من المقعد، كيف تشعر هذا الصباح؟

فتح ليوناردو جفنيه قليلاً، وكأنه يعود من بعيد جداً. ورغم الإعياء، ظلّت عيناه تحتفظان بذلك الذكاء الحاد الذي أدهش فرانشيسكو كثيراً في لقائهما الأول. لكن الشاب أدرك فيهما أيضاً انكساراً جديداً، استسلاماً عصر قلبه.

— أشعر كشجرة عتيقة بدأت جذورها تنفصل عن التراب. كل نَفَس يتطلب جهداً كبيراً، وكل نبضة قلب تبدو وكأنها الأخيرة.

سعل، واضعاً يده السليمة على صدره.

— لا تتحدّث هكذا. لقد تخطّيت محناً كثيرة! تذكّر مرضك في العام الماضي، ظنّنا جميعاً أنك ستفارقنا، ومع ذلك...

— هذا صحيح، قاطعه ليوناردو. نجوت من دسائس تشيزاره بورجيا، ومن غيرة ميكل أنجلو، ومن افتراءات حاشية روما. لكن هناك لحظة تُدرك فيها الروح أن الجسد لم يعد قادراً على خدمتها. وهذه اللحظة قد حانت.

في زاوية، كان سالاي يُعدّ الألوان على لوحة رخامية، وحركاته الدقيقة تشي بسنوات من الخبرة.

— يا صديقي، نادى ليوناردو بصوت واهن، اقترب. علينا أن نتحدّث، نحن الثلاثة.

وضع سالاي فراشيه وانضمّ إلى فرانشيسكو قرب المقعد. كان وجهه منهكاً، دليلاً على أنه لم ينم كثيراً في الليالي الأخيرة. منذ أسبوع، كانا يسهران عند فراش المعلّم، يترقّبان أدنى علامة تحسّن، ويخشيان كل تدهور.

— الطبيب الذي أحضرناه من أورليان يزعم أن حالتك لا تزال قابلة للتحسّن. وصف فصادات يومية ومنقوعات كينا...

— طبيب أورليان لا يعرف عن حالتي أكثر مني. شرّحت من الأجساد البشرية ما يكفي لأفهم ما يجري في داخلي. قلبي يضعف، ورئتاي تعانيان، وحتى دماغي بدأ ينفصل عن هذا العالم.

نظر ليوناردو إلى تلميذيه بذلك الحنان الأبوي الذي أظهره لهما طوال سنوات عديدة.

— أتعلمان ما هو الأمر الأكثر إيلاماً في اقتراب الموت؟ ليس الألم الجسدي، فالأدوية يمكنها تخفيفه. وليس حتى الخوف من المجهول، فلطالما كنت فضولياً لاكتشاف ما ينتظرنا في العالم الآخر. لا، الأكثر إيلاماً هو أن أضطر إلى ترك من أحبّ، أن أتركهما وحيدَين في مواجهة صعوبات الوجود.

لم يحدّثه ليوناردو قط بهذا القدر من العاطفة.

— لم نعد أطفالاً. نقلت إلينا علمك، وشغفك بالفن. سنعرف كيف نُكرّم ذكراك.

— أنت لا تقدّر الصعوبات التي تنتظركما. هناك حقائق لم أتحدّث عنها قط، ربما بسبب إهمالي. وقد حان الوقت لأكشفها لكما.

جمع قواه لهذا الحديث الحاسم.

— ساعداني على النهوض. أريد أن أتأمّل مرة أخيرة إبداعاتي، وبخاصة سيّدتي.

هرع فرانشيسكو وسالاي لدعمه وقياده إلى الحامل حيث استقرّت، محميّة بعناية بحجاب من الحرير القرمزي المطرَّز بالذهب، اللوحة التي لم تغادر الورشة قط منذ وصولهم إلى فرنسا.

— هذه السيدة رافقتني في كل مكان. عبر كل تِيهي، وكل منافيَّ، وكل خيبات أملي. لم أفترق عنها قط، لم أقبل قط بيعها، حتى حين كانت أحوالي المالية في أسوأ حالاتها أو حين عُرضت عليّ ثروة مقابلها.

رفع الحجاب، كاشفاً عن الجوكندا بكل جمالها الغامض. لامس الضوء الصباحي المتسلّل من النوافذ الوجه المرسوم بلطف خاص، كاشفاً عن التعقيد اللانهائي للتشكيل.

— تأمّلاها جيداً. انظرا إلى هذه الابتسامة التي استغرقت مني أربع سنوات لرسمها في جلستي الأولى في فلورنسا، ثم أعدت العمل عليها أحد عشر عاماً أخرى. كل شفافية، وكل ظل، فُكِّر فيه، وأُعيد التفكير فيه، وصُحِّح. لم تعد هذه المرأة مجرد ليزا غيراردّيني، زوجة

فرانشيسكو ديل جوكوندو، البورجوازية الفلورنسية التي رسمتها مقابل بضعة فلورين. أصبحت تجسيداً لكل تساؤلاتي عن الجمال الأنثوي، وأسرار الروح البشرية، وفنّ بعث الحياة في الرسم.

كان فرانشيسكو يتأمّل اللوحة. تذكّر رؤيته الأولى للجوكندا، في الورشة الميلانية، عام 1508. كان ليوناردو آنذاك يُتقن ذلك السفوماتو الذي يمنح الجلد نسيجاً مقلِقاً من الصدق. كان قد أمضى ساعات يراقبه وهو يعمل، مفتوناً بتقنيته، مذهولاً بصبره.

— هذه اللوحة تحفتك المطلقة، أكّد. لم يستطع أحد قط أن يرسم الحياة بهذا الحضور. حين ننظر إليها، نشعر بأنها ستتحدّث، بأنها ستنهض من مقعدها.

— الحياة... كرّر ليوناردو متأمّلاً. نعم، هذا ما سعيت إلى التقاطه. لا مظهر الحياة، بل الحياة نفسها. انظرا إلى هاتين اليدين...

أشار إلى يدَي الجوكندا، الموضوعة إحداهما فوق الأخرى بنعومة لا نهائية، مُشكَّلتَين بدقة تقارب الكمال.

— رسمت عشرات الدراسات قبل أن أجد هذه الوضعية. هاتان اليدان ليستا موضوعتين ببساطة، إنهما تعبّران عن حالة نفسية: هدوء ملطَّخ بحزن خفيف، وسكينة تُخفي توتراً داخلياً.

اقترب سالاي من اللوحة، مسحوراً كعادته دوماً بهذا الإبداع الذي رآه يولد ويتحوّل عبر السنين.

— هذا الثوب الحريري الأسود، وهذه الحُجُب الشفافة التي تطفو حول العنق... كيف استطعت أن تجعل الخامة بهذا الملمس الواقعي؟ نكاد نصدّق أن بإمكاننا لمس القماش.

— بالمراقبة. بالمراقبة الدؤوبة، بصبر ناسخ راهب. أتعلمان أنني أمضيت ساعات أدرس انعكاسات الضوء على الساتان، وطيّات الموسلين، وتلاعب الظلال على وجه؟ رسمت مئات الدراسات التحضيرية، واختبرت عشرات المزائج اللونية. كل تفصيل في هذه اللوحة نتاج آلاف الملاحظات، وآلاف المحاولات.

تأمّل ليوناردو المشهد الممتدّ خلف شخصية الجوكندا، ذلك المشهد المتخيّل بصخوره الخيالية، ومياهه المتعرّجة، وضبابه الغامض.

— وهذا المشهد لا وجود له في أي مكان. ألّفته مستمداً إياه من ذكرياتي عن جبال الألب اللومباردية، وتلال توسكانا، ومستنقعات بونتين. إنه انعكاس لعالمي الداخلي. فالنهران اللذان يجريان على مستويين مختلفين يرمزان إلى مرور الزمن، وإلى تدفّق الحياة الذي لا يُقهر.

استند بثقل أكبر إلى رفيقيه، والإعياء يغلبه.

— لكن كفى حديثاً عن التقنية والشعر. هناك أمور أخطر يجب ذكرها، حقائق أكثر واقعية، لكنها للأسف أكثر إلحاحاً.

عادوا إلى وسط الغرفة، حيث استعاد ليوناردو مكانه في مقعده بتنهيدة ارتياح. فمجرد المشي بضع خطوات بات يُنهك الشيخ.

— أتعلمان ماذا سيحدث عند موتي؟

هزّا رأسيهما، غير مرتاحَين أمام استحضار هذا الأجل المرهوب.

— سأعلّمكما ذلك، وهذا الدرس في القانون الفرنسي سيفيدكما، صدّقاني. أكثر فائدة من كل التعاليم الفنية التي نقلتها إليكما. أنا، المولود في فينشي بجمهورية فلورنسا، رعية دوق توسكانا، أظلّ في نظر القانون الفرنسي أجنبياً. غريباً، كما يقول فقهاء هذه المملكة. وتوجد في فرنسا قاعدة قانونية لا ترحم، قديمة قِدَم الملكية الكابيتية، تُسمّى «حق الغريب» (droit d'aubaine). ينصّ هذا القانون على أنه حين يموت أجنبي على أراضي المملكة من دون أن يكون قد حصل من الملك على رسائل تجنّس، تعود جميع أملاكه — من دون استثناء — إلى التاج.

كان الصمت الذي تلا هذا الكشف ثقيلاً. بدا له هذا الاحتمال، الذي لم يفكّر فيه قط، فجأةً بكل واقعه المروّع.

— أتعني أنّ... أنّ كل هذا... تلعثم ميلزي مشيراً إلى الغرفة، كل إبداعاتك، ودفاترك، وأدواتك...

— كل هذا سيصبح ملكاً للتاج في لحظة موتي. سيأتي عملاء الخزانة، برفقة كتّاب العدل والموثّقين، ليضعوا جرداً. سيضعون

الأختام، ويحرّرون المحاضر، ويقيّمون كل قطعة. ثم سيأخذون لوحاتي ومجلداتي وأدواتي وكتبي. حتى سيدتي ليزا ستغادر هذا المكان لتنضمّ إلى مجموعات الملك.

انهار سالاي على مقعد بلا مسند، مذهولاً.

— لكن هذا مستحيل! صاح متأثراً. أنت رسام الملك! فرانسوا الأول يجلّك! أعطاك هذا القصر، ويمنحك راتباً قدره ألف قطعة ذهبية! لن يترك حتماً هذا القانون البغيض يُطبَّق!

— ولاؤك يشرّفك، لكنه يُعميك عن الحقائق. أتظنّ أن ملكاً، حتى الأكثر تعاطفاً، سيستثني فناناً بسيطاً من قوانين مملكته؟ أتظنّ أن مستشاريه لن يُلفتوا نظره إلى القيمة الهائلة لممتلكاتي؟

جال بنظره في الغرفة، مقيّماً الثروة الفنية والعلمية المتراكمة فيها.

— كنت طائشاً حين جمعت عبر السنين كنزاً عظيماً. هذه اللوحات التي تعجبان بها، وهذه الدفاتر التي تدرسانها، وهذه الأدوات التي تستعملانها، تمثّل ثروة. ثروة لن يجد التاج أدنى صعوبة في مصادرتها بكل شرعية.

كان ميلزي، الذي استعاد رباطة جأشه، يفكّر.

— لكن رسائل التجنّس هذه التي تتحدّث عنها، لماذا لم تطلبها قط؟ الملك فرانسوا يقدّرك، وكان سيمنحكها لك حتماً!

ارتسمت ابتسامة مريرة على شفتي ليوناردو.

— آه! لو تعلم كم يطاردني هذا السؤال منذ أشهر! كم ألوم نفسي على إهمالي! فكّرت فيه، بالطبع، لكن دائماً بعد فوات الأوان، دائماً وأنا أقول لنفسي إن الوقت لا يزال أمامي. تنطوي هذه الإجراءات على تعقيد جهنّمي. يجب أولاً توجيه عريضة مفصّلة إلى ديوان الملك الأكبر، تعرض فيها مآثري والخدمات التي قدّمتها للمملكة. ويجب أن تُصاغ هذه العريضة وفق أشكال صارمة جداً، بلاتينية قانونية لا تشوبها شائبة، ومدعّمة بشهادات من شخصيات نافذة.

توقّف، سعل، ثم تابع:

— بعد ذلك، إن اعتُبر الطلب مقبولاً — وهو أمر غير مضمون قط —، يُحال إلى مجلس الملك للنظر فيه. يتداول المستشارون، ويتحقّقون من سوابق مقدّم الطلب، ويستفسرون عن أخلاقه، وآرائه الدينية، وولائه للمملكة. كل ذلك يستغرق وقتاً، وقتاً طويلاً.

كان فرانشيسكو يستمع إلى هذا السرد بذهول متزايد.

— كم من الوقت تستغرق كل هذه الإجراءات؟

— إن سارت الأمور على ما يرام، وإن لم يعترض أي مستشار، وإن لم يُضِع أي كاتب الملف، وإن لم يهمس أي منافس حاقد في أذن أحد الأقوياء... ستة أشهر على الأقل. وغالباً عام كامل، وأحياناً أكثر. سألت كاتب الملك. أكّد لي أن الإجراء طويل وغير مضمون.

أضاف ليوناردو بجدّية:

— لكن هذا ليس كل شيء. فبعد منح الرسائل — إن مُنحت —، يجب أيضاً التحقّق منها من قِبل غرفة الحسابات للتأكّد من أنها لا تمسّ بحقوق خزانة الملك. ثم تسجيلها لدى البرلمان، الذي قد يرفضها لعيب في الشكل. وأخيراً، إقرارها من قِبل غرفة الخزانة. ويجب إتمام كل هذا في السنة التي تلي منح الرسائل، وإلا سقطت صلاحيتها.

صمت لحظة، تائهة عيناه في ألسنة نار المدفأة المتطاير شررها.

— انظرا إليّ. جسدي يقول لي إنه لم يعد أمامي ستة أشهر، وربما ولا حتى ستة أسابيع. انتظرت طويلاً جداً. فات الأوان على القيام بهذه الإجراءات. فات الأوان تماماً.

نهض فرانشيسكو، مدفوعاً بعزم مفاجئ.

— إذن يجب أن نتصرّف! سأذهب إلى البلاط غداً! سأتحدّث إلى الملك! سأشرح له إلحاح الموقف! فرانسوا الأول يحبّك حقاً، سيتفهّم! سيصدر أوامر لتسريع الإجراءات!

— أتظنّ أن ملكاً يستطيع اتخاذ قرارات كهذه في نزوة عابرة؟ سأل ليوناردو برفق. حتى لو أراد ذلك، وحتى لو كان مستعداً لتجاوز الأعراف من أجلي، فسيتعيّن عليه استشارة مجلسه، وماليّيه. وهؤلاء...

تردّد، وكأنه يصارع نفسه ليكشف سرّاً مؤلماً.

— ثم... هناك أمر آخر. شيء لم أُطلعكما عليه قط، لكي لا أُقلقكما.

انحنيا نحو معلّمهما، مفتونَين.

— قبل ثلاثة أسابيع، تلقّيت زيارة... زيارة كاشفة. شخصية من البلاط، يرتدي السواد كما يليق برجال القانون. كان السيد غيوم دو مونكورنيه، كبير كتّاب غرفة الخزانة.

استعاد ليوناردو المشهد المزعج، واستطاع فرانشيسكو أن يقرأ على وجهه النفور الذي أثاره هذا الزائر فيه.

— حدّثني هذا الرجل عن إبداعاتي، وجمالها، وقيمتها. طرح عليّ أسئلة دقيقة عن ممتلكاتي، ومداخيلي، ومشاريعي. ثم، بتلك المهارة الخاصة برجال القانون، أدرج في الحديث إشارات إلى وضعي كأجنبي.

— أيّ إشارات؟ استفسر فرانشيسكو، متوقّعاً الأسوأ.

— أفهمني، بكل النفاق الذي يقدر عليه هؤلاء الناس، أن طلب تجنّسي قد لا يُستقبل... بترحاب. ذكر «*مخاوف مشروعة لخزانة الملك*»، و«*سوابق مؤسفة يجدر تجنّبها*».

— كيف ذلك؟ استاء سالاي. أيّ سوابق؟ من يجرؤ على معارضة طلب كهذا؟

— أناس أقوياء جداً. أناس لهم أذن الملك ويقولون في أنفسهم: «*لماذا نسهّل نقل هذه الثروات إلى ورثة أجانب بينما يستطيع حق الغريب أن يُدخلها في خزينة المملكة؟*». مستشارون يرون أن

ممتلكاتي غالية جداً على أن تفلت من التاج، ويرون في موتي فرصة — وهذا هو المصطلح الدقيق — لإثراء المجموعات الملكية من دون إنفاق أي قرش.

علا غضب مكتوم في فرانشيسكو.

— هذا بغيض! هؤلاء الناس يراهنون على موتك! ينتظرون أن تسلّم الروح ليستولوا على كنوزك!

— على الأرجح. لكنهم رجال نافذون، يعرفون كل خبايا الإدارة الملكية. ونحن، ماذا نكون أمامهم؟ فنانون بلا حماية، بلا ثروة شخصية، بلا سند سياسي متين. الملك يقدّرني، صحيح. لكن ماذا تساوي مودّة أمير أمام مصالح خزانة المملكة؟

حدّق ليوناردو للمرة الأخيرة في الجوكندا، وكأنه يريد أن يحفر في ذاكرته هذا الإبداع الذي يلخّص كل فلسفته الفنية.

— أمضيت حياتي أخلق الجمال، وأبحث عن الحقيقة في الفن والعلم. لكنني أهملت الحقائق الواقعية للوجود. لم أفكّر قط في بناء شبكة نفوذ، في مصادقة الأقوياء. ستكلّف هذه السذاجة غالياً من أحبّهم أكثر في هذا العالم.

رفع يده السليمة إلى جبينه، وكأنه مُثقَل بوطأة ندمه.

— كم مرة قلت لنفسي: *«غداً، سأحرّر هذه العريضة. الأسبوع المقبل، سأزور ذلك المستشار النافذ. الشهر المقبل، سأبدأ*

الإجراءات». ومرّت الأسابيع، وانقضت الأشهر، والآن فات الأوان. فات الأوان على التصرّف وفق القانون. لم يبقَ سوى أن...

توقّف، تاركاً جملته معلّقة، وكأنه يتردّد في تجاوز خطّ غير مرئي.

جثا سالاي، متأثّراً، قرب المقعد، واضعاً يده على ذراع الرجل الذي استقبله وربّاه وأحبّه كأب.

— لا تعذّب نفسك هكذا. لقد خلقت جواهر ستعبر القرون! دفعت الفن والعلم إلى الأمام! ماذا يهمّنا المال والممتلكات؟ سنتدبّر أمرنا، وسنعرف كيف ننقل تعليمك...

— أنت لا تفهم حجم الكارثة التي تتهدّدنا، قاطعه ليوناردو بحماس مفاجئ. لا يتعلّق الأمر فقط بتركك في العوز — رغم أن هذا الاحتمال لا يسرّني. يتعلّق الأمر برؤية إرث فكري وفني لا يُعوَّض يتبعثر ويُهدَر.

استقام في مقعده، مدفوعاً بطاقة أدهشت تلميذيه.

— انظرا حولكما! هذه الدفاتر تحوي أسرار أبحاثي! دوّنت فيها ملاحظات سيستغرق الأطباء وقتاً طويلاً لإعادة اكتشافها! بنية القلب، وطريقة عمل العين، وميكانيكية العضلات!

أشار بحركة مرتجفة إلى أكوام المجلدات المفروشة على الطاولات.

— هذه الرسوم تكشف تقنيات تصويرية مجهولة! سرّ السفوماتو، وأسرار المنظور الجوي، وفنّ تشكيل اللحم بالظلال! هذه النماذج

المصغّرة تُظهر آلات لن تُخترع إلا بعد مئة عام! مركبات طائرة، وعربات حربية، وجسور متحرّكة، وأنظمة ري!

نهض بصعوبة وتوجّه نحو طاولة تنتشر عليها رسوم بتعقيد مذهل.

— هناك، هذه الدراسات عن طيران الطيور! اكتشفت مبادئ ستسمح يوماً ما للبشر بالارتفاع في الهواء! تأمّلا هذه الحسابات عن قوة الرفع، وعن ميكانيكية الانزلاق الجوي! فهمت أن الهواء يتصرّف كالماء، وأنه يستطيع حمل جسم إن كان لهذا الجسم الشكل المناسب!

كان فرانشيسكو يتأمّل بتأثّر هذه الرسوم التي رآها تولد تحت ريشة ليوناردو، تلك الأبحاث الشغوفة التي شغلته أشهراً، بل سنوات.

— هنا، تابع ليوناردو مشيراً إلى لوحات أخرى، أبحاثي عن جريان السوائل! ستقلب فنّ بناء القنوات والأهوسة رأساً على عقب! أشرح فيها لماذا يدور الماء في منعطفات الأنهار، وكيف نتوقّع الفيضانات، وكيف نتجنّب طَمّ الموانئ بالرمال! هذه المبادئ عالمية، تنطبق على كل ما يسيل!

كان فرانشيسكو ينظر إلى معلّمه، مكتشفاً شغفاً وإلحاحاً لم يرهما عليه من قبل بهذا القدر من الحدّة.

— وهذه اللوحات! رسوم القلب، والعين، والدماغ، والعضلات، والعظام...

— آه، هذه اللوحات! صاح ليوناردو بفخر مؤلم. اكتشفت أن القلب يملك أربع تجاويف، لا اثنتين كما تعلّم رسائل أرسطو وجالينوس! سبرت أسرار الرؤية، وشرحت لماذا نرى الألوان، وكيف تتكوّن الصورة على الشبكية، ولماذا تبدو الأجسام البعيدة زرقاء! شرّحت بشراً، رجالاً ونساءً، شيوخاً وشباناً، أصحّاء ومرضى!

التفت نحو تلميذيه، ووجهه محفور بالقلق.

— كل هذا سيتبعثر، ويُباع لجامعين جهلة لن يروا سوى رسوم لطيفة، أو أسوأ، سيُنفى إلى مكتبات رطبة لن يفكّر أحد في مراجعتها فيها. أسراري التقنية ستموت معي. اكتشافاتي العلمية ستغرق في النسيان. سيواصل الأطباء فصد المرضى بأساليب بالية. سيبني المهندسون قنوات ستُطمَر بالرمال. سيبقى البشر مسمّرين على الأرض بينما أريتهم طريق السماء!

في الخارج، كانت تُسمع صيحات فرح الفلاحين العاملين في حقول الضيعة، وصياح ديك في فناء الدواجن، ورنين أجراس كنيسة القديس فلورنتان البعيد. كان كل هذا العالم الهادئ يجهل الدراما التي تجري داخل القصر.

كان ميلزي يتفحّص الورشة بعيون جديدة، يقيس فجأة عظمة الثروات التي تحويها. كم ساعة أمضاها يدرس هذه الدفاتر، ويفكّ رموز هذه الكتابة المرآوية، ويتعلّم أسرار العلم الليوناردي! كم من حوار شغوف خاضه مع المعلّم حول هذه الاكتشافات التي غيّرت نظرته إلى العالم!

— لا بدّ أن هناك وسيلة لإنقاذ جزء على الأقل من هذا الإرث، قال بصوت متغيّر. لديك أصدقاء في البلاط، ومعجبون بين كبار المملكة...

— أصدقائي، معجبيّ؟ صاح ليوناردو. أين هم حين أحتاج إليهم؟ الكاردينال دو أمبواز، الذي كان يحمي أبحاثي ويفهم قيمتها، مات منذ تسعة أعوام. فلوريمون روبرتيه، أمين المالية الذي كان يفهم مشاريعي العمرانية، مريض مرضاً خطيراً. حماتي يختفون واحداً تلو الآخر، وأجد نفسي وحيداً أمام جشع رجال البلاط وموظفي الخزانة. تابع، منهكاً من هذا الخطاب الطويل.

— ثم، حتى لو كان لديّ حماة بعد، فماذا يستطيعون أن يفعلوا؟ القانون هو القانون. حق الغريب يُطبَّق حتماً. حتى الملك لا يستطيع أن يخالفه من دون أن يخلق سابقة خطيرة. سيُلفت مستشاروه نظره: إن استثنينا فناناً إيطالياً، فلماذا لا نستثني تاجراً فلمنكياً؟ أو مصرفياً ألمانياً؟ أين تتوقّف السلسلة؟

اقترب سالاي، الذي بقي صامتاً منذ لحظة، بعزم جديد، وبريق غير معتاد في نظرته.

— وماذا لو... وماذا لو وجدنا وسيلة لانتزاع بعض الإبداعات من هذا الجرد؟ لو أخفينا أثمن لوحاتك قبل وصول عملاء الملك؟

نظر إليه ليوناردو باندهاش، مرتبكاً من هذا الاقتراح الجريء الذي يتجاوز خطاً لم يجرؤ بعد على التفكير فيه.

— ماذا تقصد؟

— أقصد أن بعض القطع قد تكون... غائبة مؤقتاً في اللحظة الحاسمة. أن تفلت بعض اللوحات، وبعض الدفاتر، من أنظار عملاء الملك. أن تختفي قبل أن يأتوا لمصادرتها.

فهم فرانشيسكو إلى أين يريد سالاي أن يصل، وجعلت هذه الفكرة قلبه يخفق أسرع، مزيجاً من الإثارة والرعب.

— إنه محقّ! أيّد فرانشيسكو. يمكننا أن نخفي أثمن الإبداعات! ففي النهاية، أليس من الطبيعي أن يكون رفيقاك الأقربان قد تلقّيا منك، على مرّ هذه السنوات، بعض القطع شاهداً على مودّتك؟ أليس من الطبيعي أن توجد بعض الدفاتر في مسكنينا، لدراستنا الشخصية؟ من يستطيع أن يثبت أنها لا تعود إلينا؟

اضطرب ليوناردو من هذا الاقتراح الذي صدم ضميره كرجل مستقيم عموماً، رغم كل الحيل والمناورات التي اضطر أحياناً إلى استعمالها للنجاة في عالم بلاطات إيطاليا القاسي.

— ما تقترحانه هذا... خطير جداً. لو اكتُشفت حيلتكما، لتعرّضتما للسجن، بل حتى للشنق. اعتبار امتلاك أملاك تعود للملك جريمة إهانة للجلالة. لا يُستهان بذلك.

— من سيكتشف؟ ألحّ سالاي. عملاء الملك هؤلاء لا يعرفون المحتوى الدقيق لورشتك. سيضعون جردهم بناءً على ما يرونه، لا على ما يجب أن يكون موجوداً. كيف سيخمّنون أن هناك قطعاً ناقصة لم يروها قط؟

بقي ليوناردو صامتاً وقتاً طويلاً، يزن حجج رفيقيه. كان نظره يجول في الورشة، يتوقّف عند كل إبداع، وكل مخطوطة، وكأنه يقيّم ما يمكن إنقاذه وما يجب التضحية به لصالح شهية خزائن الملك.

— هل تدركان ماذا تطلبان مني؟ أعلن أخيراً. تطلبان مني أن أصبح شريكاً في احتيال ضد الملك الذي آواني ورعاني ثلاث سنوات. تطلبان مني أن أخون ثقة فرانسوا الأول، الذي عاملني بسخاء لا مثيل له.

— لا نطلب منك شيئاً، أجاب فرانشيسكو برفق. نقترح عليك فقط أن تغضّ الطرف عمّا سيفعله تلميذان مخلصان لإنقاذ إرث معلّمهما الحبيب. لن يكون عليك فعل شيء، ولا قول شيء. سنتصرّف وحدنا، ونتحمّل المخاطرة وحدنا. يمكنك حتى أن تتظاهر بجهل أفعالنا إن اكتُشف أمرنا يوماً.

أثّرت هذه الكلمات في ليوناردو. كان يقدّر هذين الرجلين اللذين كرّسا أجمل سنوات عمرهما لخدمته، واللذين تبعاه في كل تِيهه، وتخلّيا عن طموحاتهما الشخصية ليكرّسا نفسيهما لفنّه وعلمه.

فرانشيسكو، ذلك النبيل الميلاني الذي ترك كل شيء حبّاً بالفن، الذي يمسك الفرشاة برهافة، الذي يفهم دقائق المنظور أفضل من كثير من المعلّمين المتمرّسين. سالاي، ذلك الولد الشقي الذي أصبح فناناً كفؤاً، الذي يُعدّ الألوان وفق وصفاته السرّية، الذي يحفظ كل دفاتره عن ظهر قلب، الذي اعتنى به خلال أمراضه بإخلاص لا حدود له.

— تعلمان أنني أحبّكما كالأبناء الذين لم أُرزَق بهما قط، همس بصوت مخنوق. كنتما عزائي في اللحظات الصعبة، وفخري في ساعات المجد، وسلواي في هذه الشيخوخة التي تشرف على نهايتها. إن رأيتما أن بعض إبداعاتي قد تُصان بأيديكما أفضل من أيدي وكلاء الملك... فافعلا وفق ضميركما.

رفع يده السليمة بحركة تشبه البركة، أو ربما الوداع.

— ففي النهاية، خلقت هذه الأعمال من أجلكما، أيها الرفيقان المخلصان، بقدر ما خلقتها للأجيال القادمة. شاركتما في صنعها، وشاركتما أفراحي وخيبات أملي أثناء إبداعها. إن استطعتما إنقاذ بعضها من مخالب الإدارة الملكية...

ترك جملته معلّقة، عاجزاً عن نطق الكلمات التي ستجعله شريكاً في سرقة.

تبادل فرانشيسكو وسالاي نظرة تواطؤ. بدأت الخطة تتشكّل في ذهنيهما، لكنهما كانا يعلمان أن عليهما التصرّف بحذر وهدوء أعصاب.

— لكن انتبها، أضاف ليوناردو بجدّية، ونظرته صافية فجأة. كونا حذرين. كونا ذكيَّين. لا تكونا جشعَين في اختياركما. يجب ترك ما يكفي من القطع في الورشة كي يبدو الجرد مقنعاً، وكي يغادر عملاء الملك راضين عن صيدهم. إن بدت الورشة فارغة، سيتساءلون، سيحققون، وستكونان في عداد المفقودَين.

أدار نظره نحو الجوكندا.

— وقبل كل شيء... قبل كل شيء، لا تلمسا سيدتي أبداً. هذه اللوحة مشهورة، معروفة لدى هواة الفن. أعجب بها رجال البلاط أثناء زياراتهم للقصر، وكتب عنها أدباء، وجاء رسامون لدراستها. تحدّث عنها الملك نفسه في بلاطه، وأعرب عن رغبته في امتلاكها يوماً ما. اختفاؤها سينبّه السلطات، وسيقلبون فرنسا كلها رأساً على عقب للعثور عليها. سيلاحقانكما حتى إيطاليا إن اقتضى الأمر.

— نعلم ذلك، أكّد فرانشيسكو. يجب أن تبقى الجوكندا. إنها مرئية جداً، ومرغوبة جداً. لكن يمكننا إنقاذ قطع أخرى: دراساتك التشريحية التي لا يعرف قراءتها سوانا، ورسوم اختراعاتك التي سيحسبها رجال البلاط خربشات بلا قيمة، ومجلداتك العلمية التي لن يفهموا أهميتها، وبعض اللوحات الأقل شهرة لدى الجمهور، لكنها ذات جمال آسر.

— هذه القديسة آنّا التي لم تُتمّها قط، أضاف سالاي، هذا القديس يوحنا المعمدان بعينيه المقلِقتين جداً، وهذه ليدا مع البجعة التي رسمتها في روما والتي تُفضّح المتزمّتين... هذه الإبداعات، قليلون من يعلمون بوجودها. يمكنها أن تختفي من دون إثارة الشبهات.

أومأ ليوناردو برأسه بإعياء، لكن أيضاً بارتياح. على الأقل، سينجو جزء من إرثه، منقولاً إلى أيدٍ محبّة ستعرف كيف تصونه، وتعتز به، وربما تعرّفه للعالم حين تكون الأزمنة أكثر ملاءمة.

— افعلا إذن. لكن عداني بأمر واحد: مهما حدث، احرصا على ألا تضيع هذه الإبداعات أبداً. انقلاها إلى ورثتكما، أوصيا بها لهواة مستنيرين، بيعاها إن لزم الأمر لجامعين محترمين يعرفون كيف يقدّرونها، لكن لا تتركا الجمال يموت في النسيان أبداً. لا تتركا اكتشافاتي العلمية تضيع في غبار العلّيات أبداً.

— نعدك بذلك، أعلن التلميذان، متأثّرَين حتى البكاء بجلال هذا العهد.

ابتسم بضعف، مرتاحاً بهذا الوعد الذي منح موته الوشيك معنى.

— والآن، دعاني أرتاح. أنا مُنهك. مُنهك جداً. لكن على الأقل، سأموت أكثر طمأنينة عالماً أنكما ستسهران على أعزّ ما أملك في هذا العالم.

كانت هذه الكلمات آخر ما نطق به تقريباً في وعي كامل. في الساعات التالية، تدهورت حالته بسرعة. غرق في شبه غياب عن الوعي، يتمتم أحياناً كلمات غير مفهومة بالتوسكانية، يرسم في الهواء بيده السليمة أشكالاً غير مرئية لا يدركها سواه، ربما يستعيد في هذيانه اللحظات الكبرى من حياته.

لم يفارق الرجلان فراشه بعد ذلك. كانا يسقيانه حين يستطيع ذلك بعد، وينشّفان جبينه بأقمشة، ويرتّبان أغطيته، ويحافظان على النار مشتعلة في المدفأة. أحياناً، بدا وكأن ليوناردو يستعيد وعيه، فيثبّت عينيه الزرقاوين اللتين لا تزالان حادّتين رغم الحمى عليهما، وكأنه يريد أن يحفر وجهيهما في ذاكرته للأبدية التي تنتظره.

في مساء الأول من مايو، بدت حالته وكأنها تتحسّن قليلاً. شرب بعض المرق الذي قدّمه له فرانشيسكو بملعقة، ونطق بضع كلمات عاقلة عن جمال الغروب الذي كان يُرى من النافذة، وطلب أن يُحضروا له مرآة ليرى وجهه. أمل ميلزي للحظة أن يكون هذا التحسّن علامة على شفاء معجز، وأن المعلّم سيتحدّى الموت المتربّص به مرة أخرى.

لكن في مساء الثاني من مايو 1519، بينما كانت أجراس كنيسة القصر تدقّ صلاة الغروب وكانت الشمس الغاربة تُشعل نوافذ الورشة بضياء ذهبي غير واقعي، لفظ ليوناردو دافنشي أنفاسه الأخيرة،

وابتسامة هادئة على شفتيه، وكأنه وجد أخيراً الجواب عن كل الألغاز التي طاردته طوال سبعة وستين عاماً.

بقيا وقتاً طويلاً بلا حراك قرب الجثمان، عاجزَين عن إدراك ما حدث للتوّ. أخذ الموت أعظم عبقري في زمنهما، وبقيا هما هناك، وحيدَين في هذه الورشة التي بدت فجأة خاوية رغم كل الكنوز التي تحويها.

— لقد رحل، همس فرانشيسكو بصوت مكسور، والدموع تنساب بحرية على خدّيه. تركنا. لم يعد المعلّم بيننا.

وضع سالاي يداً مرتجفة على جبين الفقيد الذي لا يزال دافئاً. أغمض جفنيه برفق، منجزاً هذه اللفتة الأخيرة بحنان.

— ليرقد بسلام. أنهى رحلته الأرضية. علينا الآن أن نُنجز مهمتنا. علينا أن نُنقذ ما ائتمننا عليه.

أعادت هذه الكلمات فرانشيسكو إلى واقع موقفهما. كان على ألم الحداد أن ينتظر. الإلحاح في مكان آخر. الوقت يعمل ضدّهما.

— كم من الوقت أمامنا؟ سأل بصوت شاحب.

استقام سالاي، منتقلاً من الحزن إلى العزم، وجفّت عيناه، واتّخذ وجهه تعبير التركيز.

— سينتشر الخبر بسرعة. سيلاحظ الخدم موته. سيحمل أحدهم النبأ الحزين إلى القصر. الوقت الذي يستغرقه الرسل لإنذار السلطات، ويستغرقه عملاء الخزانة لتنظيم مجيئهم... بضع ساعات على

الأكثر. سيصلون غداً صباحاً عند الفجر، وربما أبكر إن كان مونكورنيه هذا حريصاً كما يُقال. يجب أن نتصرّف الليلة. ليس أمامنا سوى هذه الليلة.

طاف فرانشيسكو في الورشة، يقيّم ما يمكنهما إنقاذه في هذا الوقت الضيق.

— ليس أمامنا وقت لأخذ كل شيء. اذهب وأحضر صناديق، وأكياساً من قماش الكتّان، وأغطية، كل ما قد يفيد في نقل القطع بتكتّم. أما أنا فسأضع جرداً بما يجب إنقاذه.

تردّد سالاي، محدّقاً للمرة الأخيرة في وجه ليوناردو الهادئ.

— لكن... ماذا عنه؟ لا يمكننا أن نتركه هكذا، وحيداً، بلا سهر، بلا صلوات...

— سنعود للاعتناء به لاحقاً، أجاب فرانشيسكو بحزم. الآن، علينا أن نُكرّم وصيّته الأخيرة. أن ننقذ إرثه. هذا ما كان سيريده. هذا ما طلب منّا فعله.

أومأ سالاي برأسه، مدركاً صواب هذه الحجة. غادر الورشة ليحضر العتاد اللازم لمهمتهما.

جثا ميلزي، الذي بقي وحيداً مع الجثمان، للمرة الأخيرة قرب المقعد حيث كان يرقد ليوناردو.

— سامحني أيها المعلّم. سامحني على أنني لا أستطيع أن أسهر عليك كما يليق، بالصلوات والشموع التي تستحقّها عظمتك. لكنني أقسم لك أننا سننقذ ما يمكن إنقاذه. لن تموت عبقريتك معك. ستنجو اكتشافاتك. أقسم بذلك بشرفي، وبحياتي، وبكل ما أملك من مقدّسات.

نهض، مسح عينيه بحركة عنيفة، وشرع في العمل بحماسة.

خلال الساعات التالية، عمل فرانشيسكو وسالاي في صمت متوتر، لا يقطعه سوى صوت خطواتهما على البلاط الحجري وحفيف الورق والأقمشة. كانت كل حركة محسوبة، وكل قرار موزوناً بعناية، وكان يجب أن تكون كل خطوة سريعة وحذرة في آنٍ واحد.

كان فرانشيسكو قد وضع قائمة ذهنية بالقطع ذات الأولوية، ثمرة سنوات طويلة أمضاها إلى جانب المعلّم يدرس إرثه. الدفاتر أولاً — تلك كانت لا تُعوَّض، فريدة، ثمرة خمسة وعشرين عاماً من الأبحاث السرّية والخطرة. دراسات الطيران بعد ذلك — تلك الاكتشافات الرائية عن الديناميكا الهوائية التي سبقت تقدّم العلم بقرون عدة. أعمال ديناميكا السوائل.

أما بالنسبة للوحات، فكان الاختيار أدقّ، وأشدّ إيلاماً. كان يجب أن تبقى الجوكندا، كما أشار ليوناردو. فاختفاؤها سيُطلق تحقيقاً، وسيحرّك كل وسائل التاج للبحث عنها. القديسة آنّا أيضاً كانت معروفة جداً، مرئية جداً، معجَباً بها جداً أثناء زيارات رجال البلاط. لكن كان هناك ذلك القديس يوحنا المعمدان بعينيه المرفوعتين نحو

السماء، لوحة مقلِقة، شبه فاضحة في حسّيتها المخنّثة، لم يرَها كثيرون من الزوار، إذ كان ليوناردو غالباً يبقيها مخفيّة. وتلك ليدا مع البجعة، لوحة حسّية أُنجزت في روما، أزعجت أساطيرها الوثنية وإيروسيتها المتزمّتين، وقد رفض دوماً أن يريها لرجال الدين.

— خذ القديس يوحنا المعمدان، أمر فرانشيسكو بصوت خفيض، وكأنه يخشى أن يُسمَع رغم تأخّر الساعة. لفّه بهذا القماش الكتّاني. طبقات عدة. احمِ الزوايا. سننقله إلى مسكنك قبل الفجر.

— وليدا؟

تردّد فرانشيسكو. كانت هذه اللوحة من أنضج أعمال السنوات الأخيرة. جعل موضوعها الأسطوري الوثني وحسّيتها منها إبداعاً مثيراً للجدل قد يجذب الانتباه.

— نعم، خذها أيضاً. لكن أخفِها جيداً. أفضل من جيد. إن علمت السلطات الكنسية أننا نمتلكها، فقد ترغب في مصادرتها بحجة الفساد الأخلاقي، بل حتى تدميرها. يجب أن تختفي.

واصلا عملهما المنهجي. حُزمت أهمّ المجلدات في صناديق جلدية مبطّنة باللباد. حرص فرانشيسكو على ترك ما يكفي من الدفاتر في الورشة كي يبدو الجرد وافراً. اختار الأكثر إبهاراً بصرياً. تلك المغطّاة برسوم آلات استثنائية، وأشكال هندسية معقدة، وتشريحات مفصّلة،

لكنها الأقل أهمية علمياً. تلك التي ستُبهر عملاء الملك من دون أن تمثّل المعرفة الحقيقية.

أما بالنسبة للرسوم، فأظهر تمييزاً، ودهاءً تكتيكياً شحذه الإلحاح. ترك دراسات الأقمشة، والبورتريهات التحضيرية، والتراكيب التصويرية، والمناظر الطبيعية — كل ما له قيمة فنية واضحة يفهمها العامّة. لكنه أنقذ الدراسات المفصّلة، والرسوم التقنية للآلات، والمخططات المعمارية، والأبحاث النباتية، كل ما يحوي معرفة علمية لا تُقدَّر بثمن لكن لن يقدّرها موظفون جهلة.

— انظر، شرح لسالاي وهو يشير إلى الجدران. نُنزل هذه الإطارات، لكن نترك تلك بارزة أمام الأنظار. يجب ألا تكون آثار على الجدار كثيرة جداً. يجب أن يرى العملاء أن الورشة لا تزال مليئة، وأن صيدهم وافر.

أومأ سالاي برأسه، فاهماً الاستراتيجية. لم تكن الفكرة إفراغ الورشة، فذلك سيثير الشبهة، بل خلق وهم السلامة مع إنقاذ الجوهر. توازن بين الإنقاذ والإخفاء.

تفحّص الجدران بانتباه، ملاحظاً أماكن الإطارات التي ستبقى، وتلك التي ستختفي. كان فرانشيسكو محقّاً: يجب أن تحافظ الورشة على مظهرها المعتاد، ذلك الفوضى الظاهرية التي طالما ميّزت مساحة عمل المعلّم. يجب ألا يشعر عملاء الخزانة إطلاقاً بأن أحداً رتّب

المكان، وفرز، واختار. يجب أن يبدو كل شيء طبيعياً، لم يتغيّر منذ حياة الفقيد.

— لاحظ أكوام الرسوم هذه على الطاولة، أشار فرانشيسكو إلى عدة رزم من أوراق متفرّقة. نترك نصفها، في فوضى، وكأن ليوناردو قد راجعها للتوّ. نأخذ النصف الآخر، لكن نحرص على أن يكون ما يتبقى مثيراً بما يكفي ليُرضي فضول المفتشين.

تصفّح الأكوام، فاصلاً بدقة بين ما يجب أن يُنقَل وما يجب أن يبقى. في الكومة الموجَّهة للجرد الملكي، وضع دراسات لرؤوس غريبة الشكل — تلك الكاريكاتيرات التي كان ليوناردو يحبّ رسمها والتي كانت دائماً تلفت الزوار بتعبيريّتها —، وتراكيب لمعارك لم تُرسَم قط، ودراسات خيول وفرسان، ومناظر طبيعية بصخورها الخيالية.

لكن في الكومة الموجَّهة للإنقاذ، وضع الكنوز الحقيقية: اللوحات التي تُظهر تشريح الذراع بكل عضلاته وأوتاره وأعصابه المشروحة بدقة علمية؛ ودراسات ميكانيكية الطيران التي تُظهر كيف تتكوّن قوة الرفع تحت جناح الطائر؛ ومخططات آلات لأنظمة الري وحساباتها للتدفق والضغط؛ والملاحظات الجيولوجية عن تكوّن الجبال وتآكل الوديان.

— أترى الفرق؟ سأل سالاي الذي كان يراقبه. ما نتركه، هو قطع فنية. جميلة، صحيح، لكن يستطيع أي هاوٍ أن يقدّرها. أما ما ننقذه، فهي وثائق لن يُفهَم مغزاها إلا من قِبل علماء، ربما بعد مئة عام،

ربما بعد مئتين. سيحسب عملاء الملك أن الرسوم التي نتركها هي قمّة فنّ ليوناردو. لن يعرفوا حتى ما فاتهم.

أومأ سالاي موافقاً. لطالما امتلك فرانشيسكو تلك الموهبة في فهم فنّ المعلّم لا فحسب، بل أيضاً فكره العميق. أما هو نفسه، فرغم السنوات التي أمضاها إلى جانب ليوناردو، لم يستوعب قط كامل كثافة الأبحاث التشريحية أو الميكانيكية. كان فناناً، رسّاماً كفؤاً، ناسخاً ماهراً. لكن فرانشيسكو كان مختلفاً: كان يملك ذلك الفضول الفكري، تلك الدقة التي تسمح له بمتابعة أعقد استدلالات التوسكاني العجوز.

— وماذا عن الدفاتر المُجلَّدة؟ استفسر سالاي مشيراً إلى الخزائن حيث تصطفّ عشرات المجلدات.

— الدفاتر أدقّ. كبيرة جداً وكثيرة على أن نأخذها كلها. ثم إن اختفاءها سيكون مرئياً جداً. لا، يجب أن نكون أكثر دهاء.

فكّر لحظة، ثم أشرق وجهه.

— إليك ما سنفعله. نترك كل المجلدات الكبيرة المُجلَّدة بارزة في الخزائن. تلك، سيراها العملاء، ويعدّونها، ويجردونها. سيندهشون من الكمّ، ومن سماكة الكرّاسات. لكن ما لن يعرفوه، أننا سنكون قد انتزعنا أهمّ الصفحات.

— انتزاع صفحات؟ قلق سالاي. ألن يظهر ذلك؟

— ليس إن فعلناه بمهارة. كان ليوناردو نفسه غالباً ما ينتزع صفحات من دفاتره ليُهديها، أو يُنقلها، أو يعيد ترتيبها. مجلداته مليئة بالفجوات، والصفحات الناقصة، والكرّاسات المخيَّطة لاحقاً. كانت تلك طريقة عمله المعتادة. لن يلاحظ العملاء شيئاً غير عادي.

أخرج فرانشيسكو كرّاسة أولى، فتحها، وتفحّص محتواها صفحة بصفحة. كانت من أهمّ المجموعات، تلك التي دوّن فيها ليوناردو ملاحظاته عن تشريح القلب البشري، مكتشفاً بنى كانت مجهولة حتى ذلك الحين.

في هذه الأثناء، كان سالاي يُعدّ الصناديق والأكياس التي ستُنقَل فيها القطع. أنزل بتكتّم من العليّة عدة صناديق سفر من الجلد المسلوق، تلك التي استعملاها في رحلتهما من إيطاليا. متينة، مانعة للماء، مزوّدة بأقفال قوية، يمكن لهذه الصناديق أن تحمي الإبداعات أثناء نقلها.

— كم صندوقاً تظنّ أنه يمكننا نقله من دون لفت الانتباه؟ سأل فرانشيسكو.

— ستة، ربما سبعة على الأكثر. يجب أن يبدو الأمر طبيعياً. نحن رفيقان يستعيدان بعض الأغراض الشخصية قبل وصول السلطات. إن خرجنا من القصر بدزينة صناديق، سيلاحظ أحدهم ذلك.

— إذن يجب أن نُحسّن استغلال المساحة. أن نضع أقصى قدر ممكن في كل صندوق.

شرع سالاي في ترتيب القطع داخل الصناديق. المخطوطات أولاً، مكدَّسة، مفصولة بأوراق مشمَّعة لحمايتها من الرطوبة. الصفحات المنتزَعة من الدفاتر بعد ذلك، مصنَّفة حسب الموضوع، مربوطة معاً بشرائط حريرية لتجنّب اختلاطها. الرسوم الأكثر هشاشة، ملفوفة حول أسطوانات خشبية لتجنّب تجعّدها. اللوحات الصغيرة، منزوعة من إطاراتها لكسب المساحة.

لحق فرانشيسكو به، حاملاً القديس يوحنا المعمدان بحذر.

— هذه اللوحة، لا يمكننا نزعها عن إطارها. الرسم هشّ جداً، والدعامة قديمة جداً. سيتعيّن نقلها كما هي.

كانت اللوحة تُظهر شاباً ذا جمال ساطع، إصبعه يشير نحو السماء، ونظرته مقلِقة. كانت واحدة من آخر القطع التي أنجزها ليوناردو، رُسمت في روما حوالي 1513–1516، وحافظت على كل قوة سفوماتو المعلّم في نضجه التام. بدت الشخصية وكأنها تنبثق من الظلام، مُشكَّلة بضياء غير مرئي، بشرة نعومتها لا واقعية.

— إنها رائعة، همس سالاي. كلما نظرت إليها، أشعر بأن هذا الشاب سينزل من سمائه الليلية ليلحق بنا.

— لهذا يجب أن ننقذها. هذه اللوحة تُظهر ليوناردو في ذروة إتقانه التقني. إن وقعت هذه اللوحة في أيدٍ جاهلة، إن حُفظت بشكل سيّئ، رُمِّمت بشكل سيّئ، فهذه شهادة لا تُعوَّض ستضيع.

— وليدا؟ استفسر سالاي.

ذهب فرانشيسكو ليحضر تلك اللوحة الأخرى المثيرة للجدل. كانت تُظهر ليدا، ملكة إسبرطة، تحتضن بجعة — زيوس متنكّراً وفق الأسطورة اليونانية. كان المشهد ذا حسّية ملموسة، شبه إيروتيكية، مع ليدا نصف عارية، والبجعة ملتصقة بها، وعند قدميهما، زوجان من التوائم وُلدا من هذا الاتحاد الإلهي: كاستور وبولوكس، وهيلين وكليتمنسترا، يخرجون من بيوض عملاقة.

— لطالما أحرجت هذه اللوحة رجال الكنيسة، علّق فرانشيسكو وهو يتأمّل اللوحة. أسطورتها الوثنية، وإيروتيكيتها... رفض البابا ليون العاشر رؤيتها حين كان ليوناردو في روما. بل اقترح بعض الأساقفة تدميرها باعتبارها عملاً فاضحاً.

— سبب إضافي لإنقاذها، ردّ سالاي بحدّة. لن أدع متزمّتين جهلة يدمّرون تحفة كهذه.

حُزمت ليدا بعناية مماثلة للقديس يوحنا المعمدان ووُضعت في صندوق آخر. ثم جاء دور إبداعات أخرى أقلّ شهرة: دراسة لعذراء المغازل التي لم يُتمّها ليوناردو قط، وبورتريه لإيزابيلا ديستي أُنجز

خلال إقامة قصيرة في مانتوفا، وعدة ألواح تحضيرية لمذابح لم تُنجَز قط.

في منتصف الليل، بينما كانا يواصلان عملهما، توقّف فرانشيسكو للحظة. كان قد فتح للتوّ صندوقاً صغيراً من خشب ثمين، ذلك الذي كان ليوناردو يحفظ فيه أعزّ أغراضه الشخصية. في الداخل، ملفوفة بحرير قرمزي، كانت هناك عدة أشياء لا قيمة تجارية لها، لكنها ذات قيمة عاطفية هائلة.

— انظر، قال لسالاي وهو يُخرج الأشياء واحداً تلو الآخر.

كان هناك أولاً ميدالية برونزية تُصوّر ملامح كاترينا، والدة ليوناردو. الفلاحة من فينشي التي أنجبته خارج الزواج، والتي ربّته خلال سنواته الأولى قبل أن يتبنّاه والده الموثّق. كان ليوناردو قد طلب صنع هذه الميدالية اعتماداً على ذكرياته من الطفولة، بعد سنوات عديدة من وفاة والدته. كان يحتفظ بها دوماً قربه، تعويذة طفولة ضائعة.

ثم خاتم ذهبي مرصَّع بحجر أخضر، زمرد أو زبرجد، أهداه لودوفيكو سفورزا لليوناردو حين دخل خدمة دوق ميلانو عام 1482. كان هذا الخاتم يرمز إلى السبعة عشر عاماً التي أمضاها في بلاط ميلانو، ربما أخصب سنواته، حين كان ليوناردو في قمّة إبداعه ويتمتّع برعاية أكثر سخاء.

كانت هناك أيضاً قارورة زجاجية صغيرة تحوي بضع حبيبات من التراب. أخذها فرانشيسكو بحذر، متأمّلاً الغبار البني الذي يلمع بخفوت في ضوء الشموع.

— ما هذا؟ استفسر سالاي، مفتوناً.

— تراب من فينشي. من التلّة حيث كان بيت والدته. أسرّ به إليّ ذات مساء. كان قد جمع هذا التراب أثناء زيارته الأخيرة إلى توسكانا، عام 1507، حين عاد لتسوية شؤون الميراث بعد وفاة عمّه. لم يكن ليعود قط لرؤية أرضه الأمّ.

كان فرانشيسكو يتأمّل القارورة بتأثّر. كان هذا الغبار يلخّص كل حنين رجل أمضى حياته يتيه من بلاط إلى بلاط، غريباً دوماً، باحثاً دوماً عن موطن لن يجده أبداً.

— يجب أن نصون هذه الأشياء أيضاً. لا قيمة لها لدى عملاء الخزانة، لكنها تشهد على الرجل الذي كانه ليوناردو، لا الفنان أو العالم فحسب.

أعاد الميدالية والخاتم والقارورة إلى صندوقها، الذي وضعه في قاع أحد صناديق السفر، تحت طبقة سميكة من المخطوطات.

كانت الساعات تمرّ بسرعة مرعبة. كلما نظر فرانشيسكو من النافذة، لاحظ أن الفجر يقترب. كانت السماء نحو الشرق تصفو، منتقلة من السواد العميق إلى رمادي داكن، ثم إلى أزرق رمادي غير محدَّد.

بدأت الطيور تُغنّي في حدائق كلو–لوسيه. بعد بضع ساعات، سيستيقظ القصر، وسيخرج الخدم من غرفهم، وسينتشر نبأ موت المعلّم.

— يجب أن نُسرع، ألحّ فرانشيسكو. لا يزال أمامنا الكثير لنفعله والوقت يطير.

ضاعفا جهدهما، عاملين في صمت تقريباً، كلٌّ يعرف ما عليه فعله. أوجد التعاون الطويل، والسنوات التي أمضياها جنباً إلى جنب، تواطؤاً بينهما يستغني عن الكلمات.

تولّى فرانشيسكو الأدوات العلمية. كان ليوناردو يملك مجموعة رائعة منها: اسطرلابات نحاسية محفورة بدقة، وفرجارات دقيقة ذات فروع من الفولاذ المصقول، وزوايا ومساطر مدرَّجة، وكرات فلكية تُظهر حركات الكواكب، ومنظاراً فلكياً صغيراً ذا عدسات صنعه بنفسه لرصد النجوم، وموشورات زجاجية لتفكيك الضوء، وموازين دقيقة لوزن الأصبغة.

— للأدوات أيضاً قصة تُروى، شرح فرانشيسكو. بعضها يمكن التعرّف عليه بسهولة كمُستعار للمعلّم من أصدقاء أو مؤسسات. والبعض الآخر نادر جداً، ثمين جداً، على ألا يُذكَر في الجرد.

اختار القطع الأكثر مجهولية، تلك التي لا تظهر في أي سجل رسمي، والتي اشتراها ليوناردو أو صنعها بنفسه. دخل المنظار الفلكي

اليدوي أحد الصناديق — كان قطعة فريدة، شاهدة على الملاحظات الفلكية التي أجراها ليوناردو سرّاً، خشية أن يُتَّهم بالهرطقة لتحديقه في السماء بأدوات اصطناعية. الموشورات أيضاً — استعملها ليوناردو ليفهم طبيعة تلاعب الظلال والألوان، مجرياً تجارب سبقت أعمال نيوتن بقرون عدة.

أما سالاي، فتولّى في هذه الأثناء الأصبغة ووصفات الرسم. أمضى ليوناردو حياته يُتقن تقنياته، خالطاً المواد وفق نسب سرّية، مبتكراً ورنيشاً بمتانة لافتة. دُوِّنت كل هذه الوصفات في دفاتر صغيرة كان المعلّم يصونها بعناية.

— تحوي هذه الدفاتر الأسرار التقنية التي سمحت للمعلّم بابتكار سفوماتوه، أشار سالاي وهو يريها لفرانشيسكو. النسب الدقيقة لزيت بذر الكتّان وأسانس التربنتين، وطريقة سحق الأصبغة للحصول على دقة متناهية، وأوقات الجفاف بين كل طبقة من الطلاء الشفاف. إن فقدنا هذه الوصفات، لن يستطيع أحد يوماً إعادة ابتكارها.

— إذن خذها. أخفِها جيداً. إنها كنوز لا تقلّ قيمة عن اللوحات.

التحقت الدفاتر بالصناديق، مغلّفة بقماش مشمَّع. وضع سالاي معها عدة قوارير تحوي أصبغة نادرة كان ليوناردو قد جلبها من أسفاره: لازورد أفغاني للأزرق القوي، وملكيت مصري للأخضر العميق، وزنجفر صيني للأحمر الساطع، وأورمنت للأصفر الذهبي.

وبينما كانا يغلقان الصندوق الأخير، خطرت لفرانشيسكو فكرة أرعبته فجأة.

— الرسائل! لقد نسينا الرسائل!

— أيّ رسائل؟

— مراسلات المعلّم! تلقّى مئات الرسائل عبر السنين. رسائل من رعاة، وأصدقاء، وعلماء، وفنانين. بعضها بخطّ شخصيات بارزة: لورنزو دو ميديتشي، ولودوفيكو سفورزا، وتشيزاره بورجيا، والبابا ليون العاشر، وحتى الملك فرانسوا نفسه. ثم هناك الرسائل التي كتبها لكن لم يُرسلها قط، المسوّدات التي احتفظ بها.

هرع فرانشيسكو نحو صندوق بلوطي كبير موضوع في زاوية الورشة. فتحه وأخرج منه عدة رزم من الرسائل مربوطة بأشرطة ملوّنة.

— انظر! سنوات من المراسلات! تحوي هذه الرسائل معلومات ثمينة عن حياة المعلّم، وعن علاقاته، وعن الطلبيات التي تلقّاها، وعن النقاشات الفنية والعلمية في عصره.

شرع في تصفّحها، فاصلاً بين ما يجب إنقاذه وما يمكن أن يبقى. الرسائل الرسمية، تلك المتعلّقة بطلبيات أو مدفوعات، يجب أن تبقى — إذ سيُلاحظ غيابها أثناء الجرد. لكن الرسائل الشخصية، تلك التي تكشف حميمية المعلّم، وشكوكه، وآماله، وأحلامه، تستحقّ أن تُصان.

عثر على رسالة، لم تُرسَل قط، موجّهة إلى ميكل أنجلو. رسالة غريبة، معجَبة ولاذعة في آنٍ واحد، يعترف فيها ليوناردو بعبقرية منافسه بينما ينتقد وحشيّته، واحتقاره للسفوماتو، وتفضيله الخطّ على حساب اللون. كانت هذه الرسالة تكشف الكثير عن العلاقة المعقدة بين أعظم فنانين في عصرهما.

— هذه، نحتفظ بها، همس فرانشيسكو.

بينما كان يفرز، أدرك ميلزي إلى أيّ مدى تشكّل هذه الرسائل شهادة لا تُعوَّض. سيستطيع المؤرّخون المستقبليون أن يُعيدوا تكوين حياة المعلّم من خلالها، وتنقّلاته، ومشاريعه، وعلاقاته. لكن بعضها كان يحوي معلومات حرجة أو حميمة جداً على أن تُسلَّم لأنظار موظفي الملك.

كانت هناك خصوصاً مراسلات كاملة مع *«صديق موثوق»* غامض، صديق مخلص لم تُكشَف هويته قط، لكنه بدا شريكاً في مشاريع دقيقة. كانت الرسائل تشير إلى تشريحات سرّية، وتجارب بصرية أُجريت سرّاً، وملاحظات فلكية قد تُعتبر هرطقة. كان يجب انتزاع هذه المراسلات الخطرة من الجرد.

— أتدرك، قال فرانشيسكو لسالاي، أن هذه الرسائل قد تسبّب مشاكل حتى بعد موت المعلّم؟ أنها قد تشوّه سمعته، وتُتّهمه بالهرطقة بعد وفاته؟

— سبب إضافي لإخراجها. يستحقّ المعلّم أن يرقد بسلام، من دون أن يأتي محقّقو التفتيش الديني يبحثون عن آثار كفر.

التحقت الوثائق الحسّاسة بالصناديق. ترك فرانشيسكو ما يكفي في الصندوق البلوطي كي يذكر الجرد مراسلات وافرة، لكنه حرص على ألا يُبقي سوى الرسائل الأكثر برئة، تلك التي لا تثير أي جدل.

تقدّم الفجر. كان ضياء رمادي بارد يغزو الفضاء من نوافذ الورشة، مطرداً ظلال الليل. راجع فرانشيسكو التقويم ذهنياً: كان الثالث من مايو 1519، اليوم التالي لموت المعلّم. عمّا قريب، سيستيقظ أهل الدار. سيكتشف الخدم الجثمان. سيتعيّن إرسال رسل إلى القصر، وإخطار السلطات المختصّة، وتنظيم الجنازة.

— يجب أن ننقل الصناديق الآن، أعلن. هذه فرصتنا الأخيرة. بعد ساعة، سيفوت الأوان.

رفعا الصندوق الأول. كان ثقيلاً، ثقيلاً بشكل مرعب. تمكّنا معاً من حمله حتى باب الورشة، ثم نزلا به الدرج، حريصَين على عدم إحداث ضجيج.

كان القصر صامتاً، غارقاً في ذلك النوم العميق الذي يسبق الفجر. لم يكن يُخلّ بالصمت سوى صرير عارضة أو أنين درجة تحت وزنهما. كان فرانشيسكو يحبس أنفاسه عند كل خطوة، خشية أن ينفتح باب، أو يفاجئهما خادم فضولي.

خرجا من القصر عبر الباب الصغير المطلّ على الحدائق. كان هواء الصباح منعشاً، بارداً تقريباً، مشبعاً برطوبة الندى. كان ضباب خفيف يطفو فوق الأرض، يمنح المشهد جوّاً غير واقعي. كأنّ العالم يحبس أنفاسه، مدركاً أهمية اللحظة.

كان مسكن سالاي يبعد نحو مئتي خطوة عن القصر الرئيسي، على الجانب الآخر من حديقة الخضار. كان بيتاً صغيراً من الحجر والخشب، من طابق واحد، وضعه الملك تحت تصرّف *«الشيطان الصغير»* ليمتلك مساحته الخاصة. كان سالاي قد هيّأ فيه ورشة ثانوية يُنجز فيها لوحاته الخاصة ونسخه من إبداعات المعلّم.

نقلا الصندوق الأول إلى المسكن، أدخلاه عبر الباب الخلفي، وأصعداه إلى الطابق العلوي حيث كان سالاي قد أعدّ مخبأ. كان قد فكّ عدة حجارة من الجدار الشمالي، محدثاً تجويفاً واسعاً بما يكفي. وحين وُضعت الحجارة في مكانها من جديد وأُعيد الملاط الطازج، لن يستطيع أحد أن يخمّن أن كنزاً يختبئ هناك.

— ممتاز، همس فرانشيسكو وهو يتفحّص المخبأ. حتى لو جاء عملاء لتفتيش مسكنك — وهو أمر مستبعد —، فلن يجدوا شيئاً. سيتعيّن عليهم هدم الجدار كله لاكتشاف الصناديق.

عادا إلى القصر لإحضار الصندوق الثاني. استمرّت السماء تصفو. شعر فرانشيسكو بالقلق يتصاعد فيه. كانت كل دقيقة تزيد خطر

اكتشافهما. تخيّل بالفعل خادماً يستيقظ أبكر من المعتاد، يفاجئهما بحمولتهما الحرجة، ويُطلق الإنذار...

لكن الحظّ كان معهما تلك الليلة. نجحا في نقل الصناديق الستة الأولى من دون مقابلة أي روح. لم يراقبهما سوى قطّ من المطبخ، خرج لصيده الليلي، بعينيه المتوهّجتين قبل أن يختفي في الأدغال.

كان الصندوق السابع والأخير الأكثر إرباكاً. كان يحوي اللوحات المنزوعة من إطاراتها، إضافة إلى القديس يوحنا المعمدان الذي بقي مركَّباً على دعامته الأصلية. اضطر فرانشيسكو وسالاي إلى مضاعفة حذرهما كي لا يُتلفا اللوحات أثناء النقل.

وبينما كانا يعبران الحديقة بهذه الحمولة الأخيرة، بزغ النهار. اخترقت الشمس ضباب الصباح، قاذفة أشعة مائلة أضاءت الندى على العشب. صاح ديك في فناء الدواجن، سرعان ما قلّده ديوك أخرى. كان القصر على وشك أن يستيقظ.

— بسرعة! ألحّ فرانشيسكو. لم يعد أمامنا وقت كافٍ!

كادا يركضان حتى مسكن سالاي، عاثرَين عدة مرات على الممرّ. كان الصندوق يتأرجح بخطر بينهما، وتخيّل فرانشيسكو برعب اللوحات وهي تصطدم في الداخل، والأقمشة وهي تتمزّق، وسنوات العمل وهي تتحوّل إلى عدم بسبب استعجالهما.

رُفع الصندوق الأخير إلى الطابق العلوي وانزلق داخل المخبأ الجداري. أعاد سالاي وضع الحجارة بسرعة مذهلة. في دقائق، استعاد الجدار مظهره المعتاد. أعدّ فرانشيسكو ملاطاً من الجير والرمل، وسدّ الفواصل، وصقل السطح.

— الآن، يجب أن يجفّ هذا الملاط قبل أن يأتي أحد للتفتيش، أعلن.

— سيجفّ بسرعة في حرارة النهار. وعلى أي حال، لماذا سيأتي عملاء لتفتيش مسكني المتواضع؟ في القصر يوجد الكنز، وهناك سيركّزون جهودهم.

أومأ فرانشيسكو موافقاً، راغباً في تصديق رفيقه. لكن القلق لم يفارقه. كانا قد ارتكبا للتوّ عملاً خطيراً، سرقة ضد التاج، عقوبتها الأشدّ قسوة. لو اكتُشفت الحقيقة يوماً...

— لا تفكّر في الأسوأ، شجّعه سالاي مستشفّاً أفكاره. فعلنا ما كان يجب فعله. الآن، لنعد إلى القصر. يجب أن نكون هناك حين يكتشف الخدم الجثمان. يجب أن يبدو كل شيء طبيعياً.

عادا أدراجهما، يمشيان بخطى سريعة، لكن غير مستعجلة. كانت الحديقة تستيقظ. كانت الطيور تحلّق من غصن إلى غصن، وبدأت الفراشات باليها الصباحي، وكان الندى يلمع على كل عشبة. كان

صباحاً جميلاً من صباحات مايو، رقيقاً ومضيئاً، في تباين تامّ مع الدراما التي كانت تجري في القصر.

حين عادا إلى الورشة، ألقى فرانشيسكو نظرة أخيرة شاملة على المكان. كان عليه أن يتأكّد من أن كل شيء يبدو منظّماً، ومن أن لا شيء يفضح نشاطهما الليلي. كانت الخزائن مليئة بالدفاتر — وإن كانت مبتورة من أهمّ صفحاتها، لكنها لا تزال مبهرة بحجمها. كانت الجدران مغطّاة بالرسوم — وإن لم تكن الأهمّ علمياً، لكنها الأكثر إبهاراً بصرياً. كانت الطاولات مزدحمة بالأدوات، والألواح، والفراشي.

وفي المركز، على حاملها، كانت الجوكندا تراقبهما بابتسامتها الغامضة. اقترب فرانشيسكو للمرة الأخيرة من اللوحة، متأمّلاً هذا الوجه الذي رافق سنوات عديدة من حياتهما.

— سامحينا على التخلّي عنك، همس مخاطباً السيدة المرسومة. لكنك ستذهبين إلى أيدٍ أمينة. سيعتزّ بك الملك فرانسوا، سيحميكِ. ربما تصبحين أشهر عمل للمعلّم، رمز عبقريته للقرون القادمة. إنه مصير جميل.

تراجع بضع خطوات، يراقب كيف يلعب الضياء الصباحي على سطح اللوحة، كاشفاً تعقيد التشكيل، والانتقالات غير المرئية بين الظلال والمناطق المضيئة.

أخرجه سالاي من تأمّله.

— فرانشيسكو، يجب أن نذهب. سيستيقظ الخدم في أي لحظة. يجب أن نكون في غرفتينا حين يُكتشَف الجثمان.

— أنت محقّ. لكن أولاً...

اقترب فرانشيسكو من جثمان ليوناردو، لا يزال جالساً في مقعده حيث ثبّته الموت. رتّب ملابس الفقيد، صقل طيّات ثوبه المخملي الأسود، وضم يديه فوق صدره. مسح الوجه بقماشة، مزيلاً آثار العرق والحمى. أراد أن يبدو المعلّم موقّراً، هادئاً، شبه نائم.

— ها أنت ذا يا معلّم. أنت جاهز لاستقبال زوّارك. ارقد بسلام. أنجزنا وصيّتك الأخيرة.

اقترب سالاي أيضاً من الجثمان. وضع يده على كتف الفقيد، بقي صامتاً لحظة، ثم همس ببضع كلمات باللهجة الميلانية لم يفهمها فرانشيسكو تماماً. كانت على الأرجح صلاة من طفولته، شيئاً علّمته إياه أمه قبل أن يصبح ذلك *«الشيطان الصغير»* الذي كان يسرق في شوارع ميلانو.

ثم غادرا الورشة، كلٌّ يعود إلى غرفته. رمى فرانشيسكو نفسه على فراشه بملابسه، محاولاً الإيحاء بأنه استيقظ للتوّ. كان قلبه يخفق بشدة، وكان أدرينالين تلك الليلة المكثّفة لا يزال ينبض في عروقه. أغمض عينيه، تنفّس بعمق، حاول أن يهدأ.

كم من الوقت مرّ هكذا؟ نصف ساعة؟ ساعة؟ فقد فرانشيسكو مفهوم الزمن، عائماً في تلك الحالة الغريبة بين اليقظة والنوم، بين الإعياء والتوتّر العصبي.

كانت صرخة هي ما أعادته إلى الواقع. صرخة امرأة، حادّة وممزِّقة، دوّت في أرجاء القصر كله. كانت الطاهية قد صعدت للتوّ إلى الورشة بفطور المعلّم — كما كانت تفعل كل صباح — واكتشفت الجثمان.

قفز فرانشيسكو من فراشه، وهرع إلى الممرّ. خرج سالاي من غرفته، وجهه ناعس لكن عيناه يقظتان. ركضا نحو الورشة، ولحق بهما بقية الخدم الذين نبّهتهم الصرخة.

كانت الطاهية، امرأة قوية البنية تُدعى مارغريت، راكعة أمام المقعد، تنتحب بصوت عالٍ. وقفت الخادمات على العتبة، لا تجرؤان على الدخول، تُصلّبان بحركات عصبية. وصل البستاني وسائس الخيل، خالعَين قبّعتيهما احتراماً للموت.

اقترب ميلزي من الجثمان، وضع يده على رقبة ليوناردو، باحثاً عن نبض يعلم أنه لن يجده. ثم التفت نحو الخدم المجتمعين، ووجهه جادّ، وصوته مخنوق بعاطفة لم تكن متصنّعة إطلاقاً.

— المعلّم توفّي. تركنا خلال الليل. رحمة الله على روحه.

سرى همس من الذهول بين الحاضرين. بكى بعضهم علانية، وبقي آخرون جامدين في صمت مهيب. كان ليوناردو معلّماً طيباً، سخياً مع خدمه، لم يكن قط عنيفاً أو محتقراً. كان الخدم يحبّونه حقاً.

— يجب إخطار القصر، أعلن فرانشيسكو مستعيداً السيطرة على الموقف. ريمي، اركض إلى القصر الملكي وأخبر السلطات بوفاة السيد ليوناردو. قل لهم إننا ننتظر تعليماتهم بشأن الجنازة و... وبشأن الإجراءات الأخرى.

أومأ البستاني برأسه واندفع، مرتاحاً لحصوله على مهمة ملموسة تُبعده عن مشهد الموت هذا. التفت فرانشيسكو نحو الخادمتين.

— أنتما الاثنتان، جهّزا الجثمان. اغسلاه، ألبساه أجمل ثيابه. يجب أن يكون لائق المظهر حين تأتي السلطات. وأنتِ يا مارغريت، توقّفي عن البكاء واذهبي لتهيّئي القاعة الكبرى. سيتعيّن وضع الجثمان فيها للسهر الجنائزي.

شرع الخدم في العمل، مرتاحين لحصولهم على أوامر يتّبعونها، ومهام يُنجزونها تُبعدهم عن حزنهم. بقي فرانشيسكو وسالاي وحيدَين لحظة في الورشة.

— أحسنت، همس سالاي. الآن، لن يفكّر أحد في طرح أسئلة محرجة علينا.

— لا تفرح بسرعة كبيرة. الأصعب لا يزال آتياً. حين يصل عملاء الملك، حين يبدأون جردهم، عندها ستُختبَر قصتنا.

— لدينا رواية متماسكة، مقنعة. سنتمسّك بها.

كانت الساعات التالية دوّامة من النشاط. غُسل جثمان ليوناردو، وأُلبس ثوباً مخملياً أرجوانياً لم يرتده إلا في المناسبات الكبرى. صفّفت الخادمتان شعره، وقصّتا لحيته، ومنحتاه مظهراً من الوقار الهادئ. ثم نُقل الجثمان إلى القاعة الكبرى في الطابق الأرضي، مسجّى على طاولة مغطّاة بملاءة من الكتّان الأبيض، محاطاً بشموع تلقي ضياءً مرتعشاً على الجدران.

بدأ الزوّار يتوافدون بمجرد انتشار الخبر في أمبواز. حرفيون عملوا لدى ليوناردو، وتجار باعوه لوازم، وأدباء تحدّثوا معه، ورجال دين من كنيسة القديس فلورنتان جاؤوا للصلاة على راحة روحه. جاؤوا جميعاً ليقدّموا احترامهم، راكعين أمام الجثمان، يهمسون بالصلوات.

استقبل فرانشيسكو وسالاي الزوّار، وتقبّلا التعازي، ورويا الساعات الأخيرة للمعلّم. كان حزنهما صادقاً، ودموعهما حقيقية. لكن تحت هذا الألم الصادق، كانت هناك يقظة دائمة، وانتباه لأدقّ التفاصيل.

نحو الظهيرة، وصل موكب مهيب إلى القصر. جاء فرانسوا الأول شخصياً ليؤبّن الفقيد. كان الملك الشاب، مرتدياً السواد علامة على الحداد، برفقة أخته وعدة مستشارين وحرس مرافق.

جثا فرانشيسكو وسالاي حين دخل الملك القاعة الكبرى. اقترب فرانسوا ببطء من الجثمان، تأمّل طويلاً وجه ليوناردو الهادئ، ثم جثا بدوره، ضمّ يديه وصلّى بصمت لعدة دقائق.

حين نهض، رأى فرانشيسكو أن عيني الملك محمرّتان. كانت العاطفة صادقة. أحبّ فرانسوا المعلّم الشيخ، وأثّر فيه موته عميقاً.

— يا سيد فرانشيسكو، سأل الملك بصوت متأثّر، متى تحديداً توفّي؟

— الليلة الماضية، يا مولاي، في مساء الثاني من مايو. فارق الحياة بهدوء، من دون ألم ظاهر. توقّف قلبه ببساطة عن النبض.

— هل كان واعياً حتى النهاية؟

تردّد فرانشيسكو للحظة. هل عليه أن يذكر حديثهما الأخير، وتعليمات المعلّم بشأن إبداعاته؟ لا، الأفضل أن يبقى غامضاً.

— كان له لحظات وعي تتناوب مع فترات ارتباك، يا مولاي. لكن في ساعاته الأخيرة، بدا في سلام، وكأنه يتقبّل ما ينتظره.

أومأ فرانسوا موافقاً، ماسحاً دمعة.

— كان رجلاً استثنائياً. تشرّفت فرنسا باستضافته في سنواته الأخيرة، ونحن ممتنّون لذلك.

التفت نحو مستشاريه.

— أريد جنازة تليق بعظمته. سيُدفن في كنيسة القديس فلورنتان، في المقبرة المجاورة للقصر. لتُحضَّر مراسم مهيبة. سيُدعى إليها كل فناني وأدباء المملكة.

— حسناً يا مولاي، أومأ أحد المستشارين مدوّناً ملاحظاته.

التفت فرانسوا نحو فرانشيسكو.

— وأنتما الاثنان، رفيقاه المخلصان، ماذا ستفعلان الآن بعد رحيل معلّمكما؟

— نحن... لا نعرف بعد، يا مولاي. ربما نعود إلى إيطاليا، إلى ميلانو حيث لا يزال لدينا عائلة. لكن الآن، علينا أن نُدير شؤون المعلّم، ونرتّب أوراقه...

— بالطبع. خذا كل الوقت اللازم. لن تُطردا من القصر. يمكنكما البقاء فيه طالما يلزم لتسوية شؤون السيد ليوناردو.

— نشكرك على كرمك، يا مولاي.

خطا فرانسوا بضع خطوات في القاعة، وكأنه يفكّر. ثم التفت نحو رجل يرتدي ثوباً أسود يقف بعض الشيء في الخلف. كان السيد غيوم دو مونكورنيه، كاتب غرفة الخزانة الذي حدّثهما ليوناردو عنه قبل أيام قليلة.

— يا سيد دو مونكورنيه، أمر الملك، ستحرص على أن تُجرَد أملاك السيد ليوناردو الراحل وفق الأصول القانونية. أريد كشفاً كاملاً بكل

ما كان يملكه. لوحاته، ومخطوطاته، وأدواته، يجب أن يُسجَّل كل شيء.

— حسناً، يا مولاي. سنشرع في الجرد في أقرب وقت ممكن. لنقل... بعد ثلاثة أيام؟

— يبدو لي هذا معقولاً. أعطِ هذين الشابين المسكينين وقتاً لبكاء معلّمهما.

انحنى مونكورنيه بتذلّل مدروس، لكن فرانشيسكو لمح في نظرته بريقاً من الارتياح، شبه شراهة. كان هذا الرجل يعلم أنه سيضع يده على كنز فني وعلمي هائل، وكانت هذه التوقّعات تُسعده.

بعد مغادرة الملك وحاشيته، وجد فرانشيسكو وسالاي نفسيهما وحيدَين في القاعة الكبرى، لا يزالان يرتجفان.

— ثلاثة أيام، همس سالاي. يمنحوننا ثلاثة أيام قبل أن يأتوا للجرد. هذا أكثر مما توقّعت.

— ثلاثة أيام لتنقيح قصتنا، للتأكّد من ألا شيء يشوب روايتنا للأحداث. لكن أيضاً ثلاثة أيام نعيشها في قلق، نترقّب أدنى علامة على أن أحداً يشكّ في شيء.

— لا أحد يشكّ في شيء. انظر كيف عاملنا الملك بلطف واحترام. نحن في نظره رفيقان حزينان، لا أكثر.

— لنأمل أن يكون لدى مونكورنيه الرؤية نفسها للأمور.

كانت الأيام الثلاثة التالية عصيبة. بقي جثمان ليوناردو معروضاً في القاعة الكبرى للقصر، محاطاً بشموع تلقي ضياءً مرتعشاً على الجدران.

تناوب فرانشيسكو وسالاي على السهر عند الجثمان، مستقبلَين الزوّار، متقبّلَين التعازي، رويَين الساعات الأخيرة للمعلّم.

في مساء اليوم الثاني من السهر، وجدا نفسيهما وحيدَين في القاعة الكبرى، منهكَين من موكب الزوّار المستمرّ.

— غداً، سيأتي مونكورنيه لإجراء جرده، همس فرانشيسكو. ثم ستكون الجنازة. يجب أن نكون جاهزَين.

— نحن جاهزان. كل شيء في مكانه. تبدو الورشة سليمة، وقصتنا متماسكة.

أمضيا هذه الليلة الأخيرة في صمت خاشع، غارقاً كلٌّ منهما في ذكرياته، مُعدّاً ذهنياً لامتحان الغد.

لم يستطع فرانشيسكو منع نفسه من التفكير في ليوناردو. كان قد فقد للتوّ الرجل الذي كان معلّمه، ومرشده، شبه والده طوال ثلاثة عشر عاماً. ماذا سيفعل الآن؟ إلى أين سيذهب؟ طاردته هذه الأسئلة، لكنه كان يدفعها بعيداً. في الوقت الراهن، عليه أن يركّز على الجوهر: حماية إرث المعلّم، وأداء دور الرفيق الحزين حتى ينتهي عملاء الملك من جردهم.

غادر الخدم المكان — كان الملك قد وجد لهم وظائف جديدة في القصر. وجد فرانشيسكو وسالاي نفسيهما وحيدَين في هذا الفضاء الذي كان حيوياً جداً، إبداعياً جداً، وبات الآن يبدو فارغاً وكئيباً.

غادرا حجرة الجثمان ليجلسا في الورشة، أمام الجوكندا. لم يتحدّث أيّ منهما. ماذا يقولان؟ بدت الكلمات عبثية أمام هول خسارتهما.

كسر سالاي الصمت.

— أتتذكّر أول مرة رأيت فيها المعلّم؟ أين كان ذلك؟

ابتسم فرانشيسكو رغم حزنه. كانت هذه الذكرى محفورة في ذاكرته بوضوح.

— في ميلانو، في الورشة التي كان يشغلها قرب سانتا ماريا ديلي غراتسيه. كان ذلك عام 1506، وكنت في السادسة عشرة. أخذني والدي لرؤية ليوناردو دافنشي العظيم الذي كان الجميع يتحدّثون عنه. كنت مرعوباً.

— وماذا شعرت حين رأيته؟

— رأيت رجلاً لم يعد شاباً جداً — كان قد بلغ الرابعة والخمسين بالفعل — لكن عينيه كانتا تلمعان بحدّة استثنائية. حدّق فيّ، وكأنه يحاول أن يقرأ روحي. ثم سألني: *«أيها الشاب، لماذا تريد أن تتعلّم الرسم؟»*. تلعثمت بشيء عن الجمال، عن الفن. هزّ رأسه. *«إجابة خاطئة. نتعلّم الرسم لنتعلّم كيف نرى. لنفهم كيف تنحت لعبة الظلال الأشكال، وكيف تولد الألوان من العتمة، وكيف تترجم العين العالم إلى أحاسيس. الجمال ليس سوى نتيجة، لا غاية»*. هزّتني هذه

الإجابة. عرفت في تلك اللحظة أنني أريد أن أبقى إلى جانبه، أن أتعلّم منه، أن أرى العالم بعينيه.

أومأ سالاي موافقاً. كانت قصته الخاصة مختلفة، أقلّ مجداً، لكن لا تقلّ حدّة.

— أما أنا، فلم أختر. أو بالأحرى، هو من اختارني. كنت في العاشرة، أسرق في شوارع ميلانو. في يوم من الأيام، حاولت أن أسرق محفظته بينما كان يرسم في ساحة. أمسكني من ياقتي، لكن بدلاً من أن يسلّمني إلى الحرّاس، نظر إليّ بفضول. *«أيها الشيطان الصغير، قال لي، لديك يدان ماهرتان وعينان يقظتان. سأصنع منك شيئاً أفضل من لصّ»*. وأخذني معه. لسنوات، كنت لا يُطاق. كنت أكسر كل شيء، وأسرق مجدداً، وأكذب. كان يجب أن يطردني مئة مرة. لكنه لم يفعل قط. كان يوبّخني، ثم يسامحني. دائماً.

— كان يحبّك كابن. حتى لو لم يقلها قط.

— أعلم. ولهذا أنا مستعدّ لكل شيء لحماية ما تركه. حتى للكذب على عملاء الملك. حتى لمخاطرة السجن أو أسوأ.

وضع فرانشيسكو يده على كتف سالاي.

— سنفعل ذلك معاً. لسنا وحدنا.

أمضيا ساعة أخرى في الورشة، يستحضران ذكريات، يبكيان أحياناً، ويضحكان أيضاً وهما يتذكّران بعض النوادر. كانت لليوناردو عاداته،

وهواجسه، وغضباته المفاجئة التي تعقبها فترات طويلة من الكآبة. لكنه كان أيضاً سخياً، صبوراً، فضولياً بلا حدود تجاه كل شيء. كان هذا الرجل هو من يبكيانه، لا العبقري المعترف به فحسب، بل أيضاً الرفيق اليومي الذي نقل إليهما أكثر بكثير من تقنيات فنية.

حين حلّ الليل، أشعلا بعض الشموع. رقصت الظلال على جدران الورشة، مُحيية الرسوم المثبَّتة، موحية بأن المعلّم لا يزال هناك، يعمل في الظلام الخافت.

— يجب أن ننام. غداً سيكون يوماً طويلاً. علينا أن نبدأ ترتيب الورشة، وإعداد الوثائق التي سيطلبها مونكورنيه. وقبل كل شيء، يجب أن نكون مرتاحين، واضحي الذهن. لا يمكننا أن نسمح لأنفسنا بارتكاب خطأ بسبب الإعياء.

— أنت محقّ. لكنني أخشى أحلامي. أخشى أن أرى المعلّم يلومني على ما فعلناه.

— لن يلومنا على شيء. بل على العكس، سيشكرنا لو استطاع. اتّبعنا تعليماته، حتى لو كانت ضمنية فقط. أنقذنا ما كان يمكن إنقاذه.

افترقا، كلٌّ يعود إلى غرفته. خلع فرانشيسكو ثيابه، انزلق تحت الملاءات الباردة. ظلّ ذهنه يدور، مراجعاً كل تفاصيل خطتهما، باحثاً عن الثغرات، متوقّعاً أسئلة مونكورنيه.

ماذا لو كان كاتب الخزانة أكثر ذكاءً مما ظنّا؟ ماذا لو لاحظ تناقضات في ترتيب الورشة، آثار تلاعبهما الليلي؟ ماذا لو سمع خادم ضجيجاً تلك الليلة وذكر هذا التفصيل للمحقّقين؟

تقلّب فرانشيسكو في فراشه، باحثاً عن وضعية مريحة. من نافذة غرفته، لمح النجوم تلمع في سماء مايو. كان ليوناردو يحبّ دراستها. حتى إنه بنى ذلك المنظار الفلكي اليدوي — المخفيّ الآن مع القطع الأخرى — لرصدها عن قرب. *«النجوم شموس بعيدة»* كان يؤكّد. *«وحول هذه الشموس تدور ربما عوالم كعالمنا، يسكنها كائنات تطرح الأسئلة نفسها التي نطرحها»*.

أراحت هذه الفكرة فرانشيسكو. أصبح المعلّم الآن جزءاً من هذا الكون اللانهائي الذي أحبّ دراسته كثيراً.

استغرق فرانشيسكو في النوم أخيراً، مطمأناً بيقينه أنه أنجز شيئاً مهماً، رغم المخاطر، ورغم الأكاذيب، ورغم الخيانة الظاهرية للملك الذي استضافهما.

في صباح اليوم التالي، استيقظ باكراً، بينما كان النهار بالكاد يلوح. نزل إلى الورشة وشرع في العمل. أراد أن يحرّر جرداً شخصياً بالقطع الموجودة، وثيقة يستطيع تقديمها لمونكورنيه وتثبت حسن نيّته، ورغبته في التعاون مع السلطات.

أمضى الصباح يُعدّ القائمة.

لم يكن يجهل أن عدد المجلدات كان أكبر قبل أن ينتزعا أهمّ الصفحات. لكن بقيت اثنتان وأربعون دفتراً. لن يستطيع مونكورنيه أن يشكّ في نقصانها.

كان فرانشيسكو يواصل قائمته حين دخل سالاي الورشة، حاملاً صينية بها خبز وجبن ونبيذ.

— أتعمل بالفعل؟ يجب أن تأكل يا فرانشيسكو. لن تصمد إن لم تعتنِ بنفسك.

— أنت محقّ. تعال، لنجلس.

تقاسما هذا الفطور المتواضع، جالسَين قرب النافذة، يراقبان حدائق كلو–لوسيه التي بدأت تخضرّ مع الربيع.

— متى تظنّ أن مونكورنيه سيأتي؟

— بحسب ما أعلن الملك، بعد ثلاثة أيام من الجنازة. مما يمنحنا يوماً إضافياً. يوماً لنستعدّ، لنُتقن قصتنا.

— لنكرّر مرة أخيرة. إن سأل مونكورنيه لماذا هذا المخطوط المذكور في رسالة غير موجود، بماذا نجيب؟

— إن المعلّم أعاره لعالم زائر. أو أنه أهداه لصديق. أو أنه أخذه إلى القصر أثناء زيارة ولم يُعده قط. لدينا عدة روايات معقولة، يجب فقط أن نحرص على ألا نتناقض.

— وبالنسبة للوحات الناقصة؟

— ليدا، سنؤكّد أن المعلّم دمّرها في نوبة من الكمالية. القديس يوحنا المعمدان... سنقول إن المعلّم أعاره للملك نفسه، وإن فرانسوا أراد أن يريه لبلاطه وإنه لا يزال في القصر. نعم، هذا مقنع. لن ينفي الملك ذلك — بل ربما يُسرّه أن يعلم أن لوحة إضافية تعود إليه.

أومأ سالاي برأسه، معجَباً.

— لديك موهبة المتآمر. لو اخترت السياسة بدلاً من الفن، لأصبحت مستشاراً مهاباً للأمير.

— لست فخوراً بالكذب. لكن أحياناً، تفرض الظروف ذلك. علّمنا المعلّم نفسه هذا: حين نكون أضعف من خصومنا، حين لا نستطيع مواجهة القوة بالقوة، يجب أن نلجأ إلى الحيلة.

أنهيا وجبتهما بصمت، ثم استأنف فرانشيسكو جرده بينما شرع سالاي في تنظيف الورشة وترتيبها. كان يجب أن يكون كل شيء مثالياً حين يأتي عملاء الملك. لا فوضى مريبة، لا آثار كاشفة.

في المساء الأخير، بقيا مستيقظَين طويلاً في الورشة، يراقبان للمرة الأخيرة الفضاء بكامل سلامته الظاهرية قبل أن يُشرّحه موظفو الخزانة.

— مهما حدث غداً، ومهما كان علينا مواجهته، سنبقى متّحدَين. لن نخون بعضنا. سنحمي إرث المعلّم حتى النهاية.

— أقسم بذلك. على ذكرى المعلّم، وعلى كل ما هو مقدّس عندي.

تصافحا، مختومين عهدهما السرّي. ثم ذهبا للنوم، عالمَين أن الغد سيُشكّل بداية امتحانهما: خداع ممثّلي الملك، وأداء مسرحية الحداد والتعاون، بينما يخفيان أجرأ سرقة في تاريخ الفن.

غرق فرانشيسكو في النوم، مطمئناً بصفاء غريب. فعلا ما كان يجب فعله. كان ليوناردو ليوافق. وهذا، في الجوهر، كان كل ما يهمّ.

في ظلمة الورشة الخالية، ظلّت الجوكندا تبتسم، غامضة وهادئة، حارسة صامتة لكل أسرار كلو–لوسيه.

الفصل 2: عملاء الملك

قصر كلو–لوسيه، 5 مايو 1519، عند الفجر

كان الليل يشرف على نهايته. ستُقام الجنازة في اليوم التالي، بعد إنجاز مهمّة مونكورنيه. في العتمة الرمادية التي تسبق الفجر، كان فرانشيسكو ميلزي يتأمّل للمرة الأخيرة الورشة المُعاد تنظيمها.

ظهر سالاي، وملامحه منهكة من التعب والقلق. لم ينم هو الآخر جيداً.

— كل شيء في مكانه؟ سأل فرانشيسكو بصوت خفيض.

— نعم. الصناديق مُطمَّرة داخل الجدار. أعدت الفواصل. حتى لو بحثنا، لن نجد شيئاً.

— والآثار؟ الملاط الطازج؟

— أعطيت السطوح مظهراً عتيقاً بالسخام والخلّ، كما علّمنا المعلّم لجدارياته. سيُعتقد أن هذه الجدران لم تُلمَس منذ سنوات.

— سأُعدّ البيت لاستقبال العملاء. يجب أن يبدو كل شيء طبيعياً. بيت في حداد، لا أكثر.

— يجب أن نتحدّث عن قصتنا مرة أخيرة. يجب أن نكون متماسكين. أدنى تناقض سيُدمّرنا.

— مرة أخرى؟ فرانشيسكو، تمرّنّا طوال الليل!

— هذا غير كافٍ. مونكورنيه مخيف. سمعت أنه أدان ثلاثة تجار بندقيين العام الماضي بتهمة الاحتيال على حق الغريب. انتهى بهم الأمر مشنوقين في ساحة السوق.

شحب وجه سالاي.

— مشنوقين؟ لأنهم أخفوا ممتلكات؟

— لأنهم حاولوا انتزاع ما يعود بالحقّ إلى التاج. هكذا يرى مونكورنيه الأمور. بالنسبة إليه، نحن لصوص محتملون.

خلال الساعة التالية، كرّرا روايتهما. كان فرانشيسكو يطرح أسئلة فخّية، ويجيب سالاي، ثم يتبادلان الأدوار. مُحِّص كل تفصيل: التواريخ، وظروف الهبات المزعومة، وأسماء الشهود الوهميين الذين سيستشهدان بهم.

— إن سأل مونكورنيه لماذا ليس القديس يوحنا المعمدان هنا؟ سأل فرانشيسكو.

— أعاره المعلّم للملك نفسه، الذي أراد أن يريه لبلاطه. لا يزال العمل في القصر، أجاب سالاي من دون تردّد.

— جيد. لكن أضِف تفصيلاً. قل إنه كان بمناسبة عيد ميلاد الملكة كلود. أراد الملك أن يفاجئها. هذا يجعل القصة أكثر إقناعاً.

— حسناً. وليدا؟

— دمّرها المعلّم في نوبة من الكمالية، قبل أسابيع من موته. لم يكن راضياً عنها.

— لا، مهلاً. لنقل بالأحرى إنه دمّرها بعد أن رآها الكاردينال دو تورنون وانزعج منها. تعلم كم أن الكاردينال متزمّت. سيشرح ذلك بشكل أفضل لماذا كان ليوناردو ليدمّر عملاً بهذه القيمة.

أومأ فرانشيسكو موافقاً.

— ممتاز. أنت محقّ. والدراسات التشريحية المفقودة؟

— أُهديت للدكتور فيرنيل شكراً على رعايته، وكذلك لعدة أطبّاء من أورليان حاولوا معالجة المعلّم.

— أضِف اسم الدكتور ليون دو بافيا. جاء مرتين. هذا سيمثّل شاهداً إضافياً.

واصلا هكذا، مُتقنَين كل كذبة، مضيفَين تفاصيل ستجعل قصتهما أكثر إقناعاً.

— وإن أصرّ مونكورنيه؟ إن شعر أن شيئاً ما لا يستقيم؟ سأل سالاي.

— عندها نبقى هادئَين. نُظهر استياءً صادقاً. أفضل دفاع ضد الاتهامات هو الهجوم. تذكّر ما كان يقوله المعلّم: *«من لا يُعاقب الشرّ يُجيز ارتكابه»*. سنقلب هذه المقولة عليهم. سنتهمهم بتدنيس ذكرى رجل عظيم.

— أنت محقّ. نحن بريئان. ليس لدينا ما نُخفيه.

— بالضبط. وتذكّر: لا نتناقض أبداً، ولا نتردّد أبداً، وننظر دوماً في عيني المحدّث.

قاطعهما صوت:

— سيّداي، إنهم قادمون!

كانت ماتورين، مدبّرة القصر، امرأة في الخمسين من عمرها، ذات وجه صارم لكن رحيم.

— رأيت موكبهم من البرج. أربعة رجال على صهوة خيولهم وعربتان. سيصلون خلال دقائق.

— شكراً يا ماتورين. أتعلمين ماذا يجب أن تقولي إن استُجوبتِ؟

— إنني لم أدخل ورشة المعلّم قط، وأنكما وحدكما من كان يدخلها. وإنه منذ موته، صلّيتما باستمرار ولم تمسّا أي شيء.

— ممتاز. وإن سألوك إن كان أحد قد أتى؟

— فقط الأطباء والقساوسة. لا أحد آخر.

هرع فرانشيسكو إلى النافذة. في ضوء الفجر الرمادي، ميّز الموكب الصغير الصاعد نحو القصر: أربعة رجال على صهوة خيولهم، تتبعهم عربتان تجرّهما ثيران.

— إنهم قادمون، همس. هذه هي اللحظة.

لحق به سالاي إلى النافذة. راقبا معاً عملاء الملك الذين يقتربون. عقد الخوف أحشاءهما، لكن أيضاً إثارة غريبة. كانا على وشك خوض أهمّ مباراة في حياتهما.

— جاهز؟ سأل فرانشيسكو.

— لا. لكن ليس لديّ خيار.

— لا أحد منّا لديه خيار. تذكّر: نفعل هذا من أجل المعلّم، من أجل إرثه، من أجل الإنسانية نفسها. لنذهب.

نزل فرانشيسكو الدرج الحجري بخطوة أراد لها أن تكون رزينة. تبعه سالاي، متبنّياً موقف خادم مخلص بدلاً من شريك في المؤامرة.

في الدهليز، أخذ فرانشيسكو بضع لحظات ليُهيّئ تعبيراً مناسباً. لا منهاراً جداً، فهذا سيبدو مريباً، ولا هادئاً جداً، فهذا سيفتقر إلى الاحترام تجاه الفقيد. اختار وقاراً حزيناً.

كانت ماتورين قد وضعت شموعاً في المدخل وعلّقت قماشاً أسود على الباب. خلقت هذه التفاصيل جوّ بيت في حداد، معزّزة صدقية مسرحيتهما.

دوّى طرق الباب بسلطة لا تحتمل أي تأخير. انتظر فرانشيسكو بضع ثوانٍ — ليس طويلاً جداً كي لا يبدو مستهتراً، ولا بسرعة جداً كي لا يبدو قلقاً — ثم فتح.

كان السيد إتيان دولوين واقفاً على العتبة، مهيباً في ثوبه الأسود كموثّق ملكي. كان رجلاً في الستينات من عمره، ووجهه محفور بأربعة عقود من الممارسة القانونية. كانت لعينيه الرماديتين، خلف نظارة بإطار حديدي، تلك النظرة الحيادية للناس المعتادين على تصنيف المآسي البشرية من دون أن يتورّطوا فيها. كان يحمل حقيبة جلدية بالية، منتفخة بالوثائق.

خلفه، تعرّف فرانشيسكو على غيوم دو مونكورنيه. كان كاتب غرفة الخزانة قد أتى شخصياً، وهذا لم يبشّر بخير. كان رجلاً في عزّ عمره، ربما خمسة وأربعين عاماً، مرتدياً السواد هو أيضاً، لكن سواداً أكثر تقشّفاً، شبه رهباني. كان وجهه المزوّى يحمل نظرة يقظة المعتادين على كشف الاحتيالات في مهنتهم.

إلى جانبهما وقف بارتلمي روسو، كاتب المحكمة، مكلَّفاً بالنسخ الرسمي للجرد. أصغر سناً من زميليه، ربما في الثلاثينات من عمره، كان ظهره منحنياً بالفعل كظهور النسّاخ الذين يقضون حياتهم منحنين على مخطوطات. كانت أصابعه الملطّخة بالحبر تُمسك بحقيبة تحوي أدوات الكتابة.

أكمل المجموعة جنديان مسلّحان، رجلان قويّا البنية بأيدٍ عريضة، معتادان على حمل الأملاك المصادرة. كان أحدهما، عملاقاً أشقر ذا لحية كثيفة، يحمل هراوة في حزامه. أما الآخر، أنحف قليلاً، فكانت له نظرة باردة كجندي سابق. وقفا بعض الشيء في الخلف، منتظرَين الأوامر.

— يا سيد ميلزي، أعلن كاتب العدل خالعاً قبّعته بجلال، أتينا، وفقاً لأوامر الملك وأعراف هذه المملكة الضاربة في القِدم، لإجراء جرد لأملاك السيد ليوناردو دافنشي المرحوم، رسام الملك، المتوفّى في هذا القصر في اليوم الثاني من مايو من عام النعمة ألف وخمسمئة

وتسعة عشر. رحم الله القدير روحه ومنحه السلام الأبدي الموعود للصالحين.

خرجت الصيغة الطقسية بنبرة كاملة خاصّة برجال القانون المتمرّسين على المراسم الرسمية. أحنى فرانشيسكو رأسه، آخذاً وقته في الرد، مُهيّئاً صوته ليضع فيه بالضبط ما يلزم من حزن مكتوم.

— أهلاً بكم في هذا المسكن الذي عاش فيه معلّمنا العزيز بسلام كبير. تفضّلوا بالدخول، أرجوكم. لتُنجَز مهمّتكم وفق الإرادة الإلهية وقوانين مملكة فرنسا. بقي كل شيء على حاله منذ أن لفظ معلّمنا الحبيب أنفاسه الأخيرة.

دخل العملاء الدهليز. رغم أن ديلوين كان قد أجرى عشرات الجرود المماثلة، اتّسم هذا بأهمية خاصة. لم يكن ليوناردو دافنشي أجنبياً عادياً — كان أشهر رسام في أوروبا.

لكنّ مونكورنيه، من جانبه، لم يُظهر أي عاطفة. كانت عيناه تتفحّصان الدهليز بالفعل، تلاحظان كل تفصيل، كل قطعة ثمينة. توقّف نظره على لوحة معلّقة على الجدار — نسخة عن العشاء الأخير كان ليوناردو قد طلب من أحد تلاميذه الميلانيين تنفيذها.

— هل هذا العمل جزء من الجرد؟ سأل بجفاء.

— إنها نسخة، يا سيدي، أنجزها جيوفاني بيترو ريتزولي. تعود للقصر، لا للمعلّم.

اقترب مونكورنيه، وفحص التوقيع في الزاوية.

— سنتحقّق. كل ما لمسته يد معلّمكم يهمّنا.

— يا سيد ميلزي، تدخّل الكاتب حتى قبل أن يعبروا عتبة الورشة، سؤال أوّلي لا بدّ منه. منذ وفاة معلّمكم، هل دخل أحد ورشته؟ هل تحرّك أي شيء، حتى بأفضل النوايا؟

كان السؤال مباشراً، بل خبيثاً. توقّعه فرانشيسكو، لكن سماعه يُنطق بهذه الحدّة أثّر فيه. تبنّى تعبيراً يتنازع فيه الاستياء والحزن.

— يا سيد دو مونكورنيه، كيف تجرؤ على الإيحاء بأننا دنّسنا ذكرى معلّمنا بلمس ممتلكاته؟

ترك صوته يعلو، متّخذاً نبرة استياء:

— منذ موته، اكتفينا سالاي وأنا بالصلاة على راحة روحه والسهر على جثمانه وفق أعراف الكنيسة الكاثوليكية المقدّسة. يستطيع الأب أنطوان أن يشهد على ذلك، هو الذي لم يغادر الحجرة الجنائزية. لم نلمس شيئاً، بل لم نسمح لأنفسنا حتى بدخول الورشة إلا لنُصلّي أمام المكان الذي كان يبدع فيه عجائبه.

ترك فرانشيسكو صمتاً مستاءً يخيّم قبل أن يضيف:

— علّمنا معلّمنا كل شيء. عاملنا لأكثر من عقد كأبنائه. كيف كان يمكننا أن نُهين ذكراه بأن نتصرّف في اللحظة نفسها من موته كسارقي

قبور مبتذلين؟ مجرّد هذه الإشارة إهانة جسيمة لإخلاصنا، ولحبّنا البنوي، ولاحترامنا للعبقرية التي كوّنتنا.

أضاف سالاي، الذي التقط النبرة المطلوبة، بصوت مكسور بالعاطفة، ودموع تطفو في عينيه — دموع حقيقية تماماً، إذ كان التعب والتوتّر العصبي يستدرّانها:

— لا تستطيعون أن تفهموا ماذا كان يمثّل المعلّم بالنسبة إلينا. لم يكن مجرّد أستاذنا، بل مرشدنا، وسبب وجودنا. كل قطعة في هذه الورشة تذكّرنا بحضوره، وهذا الغياب خنجر مغروس في قلوبنا. كيف يمكننا أن نُدنّس هذه الآثار المقدّسة لعبقريته؟

انكسر صوته على الكلمات الأخيرة. كانت العاطفة صادقة جداً حتى إن مونكورنيه بدا مرتبكاً للحظة.

غمّض الكاتب عينيه، غير مقتنع بهذه التبرّؤات التي سمعها بألف صيغة خلال مسيرته. أخرج دفتراً صغيراً وشرع في تدوين الملاحظات.

— يا سيد ميلزي، اسمحوا لي أن أُلحّ. تفهمون، آمل، أن سؤالي ليس اتهاماً، بل إجراء ضرورياً. رأيت حالات كثيرة أراد فيها ورثة حسنو النية أن «*يصونوا*» بعض الذكريات قبل الجرد الرسمي. هذا يُعقّد عملنا كثيراً.

— أفهم واجبكم، يا سيدي، أجاب فرانشيسكو، متلطّفاً قليلاً. لكنني أؤكّد لكم بشرفي وخلاص روحي أن لا شيء لُمس. علاوة على ذلك، استجوبوا الخدم. تستطيع ماتورين، مدبّرتنا، أن تشهد أننا لم نفعل سوى الدخول والخروج للصلاة.

التفت مونكورنيه نحو ماتورين التي كانت تقف باحترام في زاوية.

— اقتربي أيتها المرأة.

تقدّمت ماتورين، خافضة عينيها كما يليق بخادمة أمام ضابط ملكي.

— من أنتِ؟

— ماتورين غاليراني، مدبّرة هذا البيت منذ ست سنوات، يا مولاي.

— هل رأيتِ هذين الرجلين يدخلان الورشة منذ موت المعلّم؟

— نعم يا مولاي. للصلاة فقط. كانا يجثوان أمام الحامل حيث ترقد لوحة السيدة ذات الابتسامة، يتلوان صلاة الربّ والسلام الملائكي، ثم يخرجان باكيَين. لم أرهما قط يلمسان أي شيء.

— أواثقة أنتِ من ذلك؟

— بالعذراء مريم وكل القديسين، يا مولاي. حرصت بنفسي على ألا يُدنّس أحد هذا المكان المقدّس. كان المعلّم رجلاً قديساً، حتى وإن كان أجنبياً. استحقّ الاحترام.

تدخّل كاتب العدل بالسلطة التي تمنحها له رتبته الأعلى:

— هيا يا سيد دو مونكورنيه، لنُخفّف من غيرتنا. لا نُعقّد مهمّتنا الدقيقة أصلاً. هذان الشابان منهاران بوضوح لفقدان معلّمهما. سيكون من غير اللائق، بل ومن القسوة، أن نُلحق بهما شكوكاً لا أساس لها. لنشرع في الجرد الذي أمرت به جلالته. ستتحدّث الحقائق عن نفسها إن ظهرت أي مخالفة.

أعاد مونكورنيه دفتره متذمّراً.

— حسناً. لكن اعلما، أيها السيدان، أننا إن اكتشفنا أدنى محاولة إخفاء، فستكون العواقب رهيبة. سرقة أملاك تعود للتاج بموجب حق الغريب يُعاقَب عليها بالإعدام. المشنقة تنتظر المحتالين.

— ليس لدينا ما نخشاه من الحقيقة، أجاب فرانشيسكو، محافظاً على نظرة الكاتب.

التفت كاتب العدل نحو ميلزي بتعبير أكثر تعاطفاً:

— قودانا، أرجوكما، إلى ورشة معلّمكما الراحل. النهار يتقدّم ومهمّتنا ستكون طويلة. سمعت أن السيد ليوناردو كان يملك مئات الأعمال والمخطوطات.

— بالفعل، يا سيدي. لم يكن معلّمي يتوقّف قط عن الإبداع، والاختراع، والإتقان. اتبعوني.

توجّه فرانشيسكو نحو الدرج الفخم المؤدّي إلى الطابق الأول. رنّت درجات الحجر، المُستهلَكة بمرور ثلاث سنوات، تحت خطواتهم. تبعه العملاء في موكب مهيب.

خلفه، كان فرانشيسكو يسمع صرير قلم الكاتب الذي كان يدوّن بالفعل ملاحظات أوّلية، على الأرجح وصف الدهليز والغرف التي عبروها. كان يسمع أيضاً أنفاس ديلوين الربوية، رجل ضخم البنية كان صعود الأدراج بالنسبة إليه جهداً ملحوظاً. وقبل كل شيء، كان يشعر بحضور مونكورنيه، الذي لم تتوقّف نظرته الحادّة عن تفحّص كل زاوية، وكل لوحة، وكل قطعة أثاث.

في منتصف الدرج تقريباً، توقّف الكاتب أمام حنية معروض فيها منحوتة برونزية صغيرة تُصوّر حصاناً يقفز.

— هل هذه أيضاً من الجرد؟

— لا، يا سيدي. هذه المنحوتة تعود للقصر. كانت موجودة قبل أن يُهدي الملك هذا المسكن لمعلّمي.

فحص مونكورنيه القطعة من كل الزوايا، باحثاً عن توقيع، عن علامة مميّزة.

— سنتحقّق. دوّن يا روسو.

خطّ الكاتب بسرعة على ألواحه.

شعر فرانشيسكو بالتوتّر يتصاعد. إن كان مونكورنيه يتفحّص كل قطعة هكذا، فسيستغرق الجرد أياماً. كان يجب تحويل انتباهه، إبهاره كي يركّز على القطع الكبرى.

— أيها السادة، اسمحوا لي أن أقول لكم بضع كلمات قبل أن ندخل المعبد حيث أبدع معلّمي أعماله الخالدة.

توقّف على الدرجة العلوية، مُجبراً الموكب على التوقّف.

— لم يكن ليوناردو دافنشي رجلاً عادياً. تجاوزت عبقريته كل ما يمكن للعقل البشري أن يتصوّره. في هذه الورشة التي سندخلها، لم يرسم فحسب لوحات ذات جمال خارق، بل أجرى أيضاً أبحاثاً علمية ستُغيّر يوماً فهمنا للعالم.

ترك فرانشيسكو كلماته تتردّد صداها في بئر الدرج، ثم تابع:

— صمّم آلات طائرة قادرة على حمل إنسان في الهواء. سبر أسرار جريان المياه وتكوّن الجبال. اخترع آلات حرب مرعبة، وجسوراً متحرّكة، وعربات هجوم، ومدافع مطوَّرة.

كان ديلوين يستمع باهتمام. حتى مونكورنيه بدا مهتماً رغماً عنه.

— لكن قبل كل شيء، تابع فرانشيسكو، أحدث ثورة في فنّ الرسم. اخترع تقنيات لم يجرؤ أحد قبله على تخيّلها. السفوماتو، الذي يمنح بورتريهاته تلك الحياة العجيبة. المنظور الجوي، الذي يخلق ذلك

العمق اللانهائي في مناظره الطبيعية. التشريح المثالي لشخصياته، ثمرة سنوات من دراسة الجثث.

التفت نحو مونكورنيه:

— كل هذا لأقول لكم إن ما ستَرَونه ليس مجرّد مجموعة رسّام موهوب. إنه كنز رجل كرّس حياته كلها لفهم أسرار الطبيعة والفن. أتوسّل إليكم أن تعاملوا هذه الأعمال بالاحترام الذي تستحقّه. إنها آخر شهادات أعظم عبقري عرفته الإنسانية منذ العصور القديمة.

استهدف هذا المرافعة، التي أُعدّت أثناء الليل، هدفاً مزدوجاً. من جهة، تذكير العملاء بالأهمية الثقافية لما سيصادرونه. ومن جهة أخرى، تثبيت فرانشيسكو نفسه كحارس شرعي لهذا الإرث، من يفهم قيمة هذه الأعمال.

أومأ كاتب العدل برأسه بجدّية.

— كن واثقاً أننا مدركون للأهمية التاريخية والفنية لما سنجرده. أمرت جلالته نفسها بأن تُتّخذ أقصى الاحتياطات. علاوة على ذلك، طلب مني الملك شخصياً أن أحرص على ألا يتضرّر شيء.

لكنّ مونكورنيه لم يستطع منع نفسه من إضافة بصوت جافّ:

— مع احترامنا لقيمتها الفنية، علينا مع ذلك أن ننجز واجبنا القانوني بدقّة وصرامة. تُطبَّق قوانين المملكة على الأعمال الفنية كما على أي ملكية أخرى. حق الغريب لا يعرف أي استثناء، حتى لعبقري.

— حق الغريب، كرّر فرانشيسكو بمرارة. هذا الحق الذي يسمح بنزع ممتلكات الأجانب عند وفاتهم. خدم معلّمي فرنسا ثلاث سنوات، أثرى هذه المملكة بعبقريته، وهذه هي مكافأته.

— هذا هو القانون، ردّ مونكورنيه. قانون عادل يحمي مصالح المملكة. كان بإمكان معلّمكم أن يطلب رسائل التجنّس. لم يفعل. كان هذا خياره.

— أو جهله بقوانينكم المعقدة. كان معلّمي فناناً، لا فقيهاً.

— جهل القانون ليس عذراً، كما يعلم الجميع.

أخذ سالاي الكلمة:

— كان معلّمي يرى أن العبقرية لا جنسية لها، وأن الفن يعود للإنسانية كلها! كان يحسب نفسه مواطناً للعالم!

— فلسفة جميلة، تهكّم مونكورنيه، لكننا نعيش في العالم الحقيقي، لا في أحلام فنان. في العالم الحقيقي، توجد قوانين، وحدود، وجنسيات.

رفع كاتب العدل يده ليُهدّئ الخواطر:

— أيها السادة، هذا النقاش عقيم. لسنا هنا لنناقش الفلسفة أو العدالة، بل لننجز واجبنا. يا سيد ميلزي، قودانا إلى الورشة، أرجوك.

أومأ فرانشيسكو موافقاً واستأنف صعوده. بعد بضع درجات أخرى، وصلوا إلى باب الورشة. كان قلب فرانشيسكو يخفق بشكل متزايد. كانت هذه هي اللحظة. لحظة الحقيقة.

وضع يده على مقبض الحديد المطروق، مستمتعاً بهذه اللحظات الأخيرة قبل الفوضى.

— هذه عتبة معبد الفنّ. هنا أمضى معلّمنا سنواته الأخيرة، يبدع بلا كلل، يبحث دوماً عن سبر أسرار الطبيعة. أن ندخل هذه الورشة من دون حضوره... إنه تدنيس لمعبد.

انكسر صوته قليلاً على الكلمات الأخيرة. لم تكن العاطفة متصنّعة — كان يشعر بهذا التدنيس بعمق.

— نتفهّم ألمك، قال ديلوين برأفة صادقة. لكنّ الواجب يدعونا.

أخذ فرانشيسكو نفساً عميقاً، ثم دفع الباب ببطء الذي انفتح بصرير المفصلات التي تركها عمداً من دون تزييت لتعزيز الأثر الدرامي. غمر الضوء الصباحي، لا يزال ضعيفاً لكن يتزايد، الغرفة الواسعة، كاشفاً المشهد الذي أعدّه فرانشيسكو وسالاي.

توقّف كاتب العدل فجأة على العتبة. انفتح فمه، واتّسعت عيناه، وظلّ لوقت طويل بلا حراك، مأخوذاً بجمال ما اكتشفه.

— أمّ الله القدّيسة، همس.

لأنه كان بالفعل معبداً، ذلك الذي أنشأه فرانشيسكو وسالاي خلال تلك الليلة الرهيبة. تسلّلت أشعة الشمس المائلة عبر النوافذ الكبيرة وأتت تُداعب الأعمال بلطف يكاد يكون سحرياً. كان توزيع اللوحات، وزاوية الضوء، كل ذلك محسوباً لتعظيم الأثر البصري.

في مركز هذه المسرحية المضيئة تربّعت الجوكندا، موضوعة على حاملها قرب النافذة الرئيسية، تماماً حيث كان ليوناردو يحبّ تأمّلها خلال الأشهر الأخيرة من حياته. أُزيل الحجاب الحريري القرمزي المطرَّز بالذهب الذي كان يحميها عادة — تفصيل لتعظيم الأثر العاطفي لهذه الرؤية الأولى.

وكان الأثر تاماً. بدت لوحة الموناليزا، منارة بضوء الفجر المائل، حيّة. بدت ابتسامتها الغامضة على وشك الاتساع. بدت عيناها تتبعان حركات الزوّار. بدت يداها، الموضوعتان إحداهما فوق الأخرى بتلك النعومة اللانهائية التي لم يكن يُتقنها سوى ليوناردو، على وشك الحركة.

بقي ديلوين مسمّراً وقتاً طويلاً أمام اللوحة، كادت حقيبته تنزلق عن كتفه من شدّة انبهاره. كانت شفتاه ترتجفان.

— إذن هذه هي السيدة الغامضة التي يتحدّث عنها البلاط كله منذ سنوات! هذا الجمال المقلِق الذي ألهم قصائد وأغانٍ كثيرة! لم أرَ قط إتقاناً كهذا لفنّ الرسم!

حتى مونكورنيه، رغم سخريته، لم يستطع إخفاء انبهاره تماماً. اقترب ببطء، وكأن قوة مغناطيسية تجذبه.

— استثنائية، اعترف على مضض. نفهم لماذا كانت جلالته متمسّكة جداً بهذا العمل.

أسقط الكاتب روسو، فاغراً فاه، قلمه. انحنى مسرعاً ليلتقطه، محمرّاً من حرجه.

— سامحوني، أنا... أنا لم أرَ قط شيئاً كهذا.

اقترب ديلوين أكثر، غير جريء على لمس اللوحة، لكن منحنياً ليتفحّص تفاصيلها. شكّل نفسه بخاراً على السطح المطلي، فتراجع مسرعاً.

— سامحوني. لا يجدر بي الاقتراب هكذا. لكنه أقوى مني. كيف يُعقل ذلك؟ كيف يستطيع رجل أن يأسر الحياة نفسها بأصبغة بسيطة وزيت؟

لم يستطع فرانشيسكو، رغم توتّره العصبي، أن يمنع نفسه من الابتسام أمام العاطفة الصادقة لكاتب العدل العجوز. اقترب، متبنّياً نبرة مرشد متحمّس:

— كان معلّمي يقول إن الفنّ الحقيقي لا يكمن في نسخ الطبيعة بعبودية، بل في إعادة خلقها بصدق وعمق أكبر من الطبيعة نفسها. تأمّلوا هذه النظرة، أيها السادة. انظروا كيف أن العينين ليستا

مرسومتين فحسب، بل حيّتان. استعمل المعلّم تقنية ثورية: طبقات عديدة من طلاء شفاف متراكب، تضيف كل واحدة ظلاً، عمقاً، حتى تخلق هذا الوهم بالحياة.

أشار برقّة إلى الوجه:

— انظروا إلى هذه الانتقالات بين الظل والضوء. لا توجد خطوط حادّة، ولا حدود واضحة. كل شيء يذوب في ضباب رقيق. تطلّبت هذه التقنية أشهراً من العمل. كان المعلّم يضع أحياناً طبقة رقيقة جداً تكاد تكون غير مرئية، ينتظر جفافها، ثم يضع أخرى. تحوي بعض المناطق أكثر من ثلاثين طبقة متراكبة.

اقترب سالاي بدوره، جرفته العاطفة:

— وهذه الابتسامة! تأمّلوها بانتباه. هل هي سعيدة؟ حزينة؟ ساخرة؟ يستحيل معرفة ذلك. أسر المعلّم غموض الروح البشرية نفسه. كان يقول: *«قد تحمل ابتسامة كل فرح العالم وكل حزنه»*.

— وهاتان اليدان، أضاف فرانشيسكو مشيراً إليهما. انظروا إلى هذه البساطة الظاهرية التي هي ثمرة مئات الدراسات التحضيرية. رسم معلّمي أكثر من ستين يداً مختلفة قبل أن يجد هذه. ستون يداً! لتفصيل كان معظم الرسامين ليُنجزوه في ساعة واحدة!

استعاد مونكورنيه رباطة جأشه المهنية، وأخرج دفتره:

— من هي هذه السيدة؟ هل ترك المعلّم إشارات بشأن هويتها؟

تبادل فرانشيسكو وسالاي نظرة. كان هذا أحد الأسئلة التي تدرّبا عليها.

— كان المعلّم يدعوها ببساطة *«مادونا ليزا»*، أجاب فرانشيسكو. أبقى هويتها سرّاً. يقول البعض إنها كانت زوجة تاجر فلورنسي، فرانشيسكو ديل جوكوندو. ويظنّ آخرون أنها بورتريه مثالي، توليف لكل مفاتن الجمال الأنثوي التي لاحظها المعلّم.

— كان معلّمي يقول إن هويتها لا أهمية لها، أضاف سالاي. ما كان يهمّ، هو ما تمثّله: الأنثوي الأزلي، غموض الجمال، لغز الوجود البشري.

أومأ كاتب العدل برأسه. التفت نحو الأعمال الأخرى المرتَّبة في الورشة.

— وكل هذه العجائب... كم سنة من العمل تمثّلها؟

— عمراً بأكمله، يا سيدي، أجاب فرانشيسكو. بدأ معلّمي الرسم في الرابعة عشرة من عمره في ورشة فيروكيو في فلورنسا. كان قد بلغ السابعة والستين عند وفاته. أكثر من نصف قرن كرّسه للفن والعلم.

ابتعد مونكورنيه عن الجوكندا ليفحص بقية الورشة. لاحظت عينه المدرَّبة كل تفصيل: توزيع الأعمال، تنظيم الفضاء، الأدوات المتروكة على الطاولات. توقّف أمام سلسلة رسوم معلّقة على الجدار — تلك التي تركها فرانشيسكو عمداً ظاهرة، الأقل ثورية.

— هذه الرسوم... تبدو دراسات تشريح.

— بالفعل، أكّد فرانشيسكو. حصل معلّمي على إذن بتشريح جثث في مستشفى سانتا ماريا نووفا في فلورنسا، ثم هنا بموافقة الملك. أراد أن يفهم آلية عمل الجسم البشري ليُصوّره بشكل أفضل في أعماله.

— رائع ومقزّز في آنٍ واحد، علّق الكاتب. ألم يخشَ معلّمكم محاكم التفتيش؟ تشريح أجساد بشرية...

— أذن البابا سيكستوس الرابع بالتشريح لأغراض علمية منذ عام 1482، ذكّر فرانشيسكو. لم يفعل معلّمي شيئاً غير قانوني. كان يسعى ببساطة إلى كشف عمل الله.

أضاف سالاي بشغف:

— كان يقول إن الجسد البشري أجمل آلة خلقها القدير. لكل عضلة، ولكل عظمة، ولكل عضو وظيفته وجماله الخاص. كان يقضي ليالٍ كاملة يرسم ما لاحظه نهاراً.

أعلن الكاتب روسو، الذي كان يُعدّ أدواته على طاولة، بتردّد:

— سمعت أن المعلّم ليوناردو صمّم أيضاً آلات حرب لدوق ميلانو. أصحيح ذلك؟

— هذا صحيح، أجاب فرانشيسكو. خدم معلّمي لودوفيكو سفورزا سبعة عشر عاماً. صمّم تحصينات، ومدافع، وعربات هجوم. لكنه

كان يكره الحرب. لم يبتكر هذه الآلات إلا بالضرورة، ليكسب رزقه. كان قلبه في الفن والعلم الصرف.

— آلات حرب، كرّر مونكورنيه باهتمام. هل توجد مخططات لهذه الاختراعات في هذه الورشة؟

شعر فرانشيسكو بالخطر. كان يجب تحويل انتباه الكاتب.

— بعض المسودات عديمة الأهمية، يا سيدي. بقيت معظم مخططاته العسكرية في ميلانو. ما لدينا هنا، هي بالأخص أبحاثه السلمية: دراسات عن طيران الطيور، وآليات الساعات، وأنظمة هيدروليكية للري.

أشار إلى كومة دفاتر على رفّ — تلك التي تركاها ظاهرة:

— تحوي هذه الكرّاسات ملاحظاته عن الطبيعة. كان معلّمي مقتنعاً بأن الإنسان قد يطير يوماً ما. صمّم عشرات الآلات الطائرة، جميعها مبنية على مراقبة دقيقة لأجنحة الطيور والخفافيش.

— أن يطير كطائر... يا له من جنون رائع! هل كان معلّمكم جادّاً؟

— جادّاً جداً، يا سيدي. حتى إنه بنى عدة نماذج أولية. أحدها في السقيفة، إن أردتم رؤيته لاحقاً. آلة كبيرة بأجنحة من القماش والخشب، تُحرَّك بدواسات. لم ينجح قط في جعلها تطير، لكنه كان مقتنعاً بأن الإنسان سيغزو الفضاء الجوي يوماً ما.

— تجديف! صاح فجأة أحد الجنديين المسلَّحين، العملاق الأشقر. الملائكة وحدهم من يحقّ لهم الطيران! أن نرغب في تقليد الملائكة، هذا تحدٍّ لله!

التفت فرانشيسكو نحوه بهدوء:

— لم يرد معلّمي أن يتحدّى الله، بل أن يفهم خليقته. كان يقول: *«من يفهم قوانين الطبيعة يفهم فكر الله»*. كان يرى العلم شكلاً من الصلاة، طريقة لتكريم الخالق بدراسة عمله.

تذمّر الجندي، لكنه لم يُلحّ. أما مونكورنيه، فواصل تفتيشه. فتح صندوقاً، وفحص محتواه — فراشي، وأصبغة، وقوارير زيت.

— كل هذه المواد من الجرد، أعلن. حتى الفراشي والألوان. كل ما كان يملكه الغريب يعود للتاج.

— حتى ملابسه؟ سأل سالاي بمرارة. حتى أحذيته؟

— كل شيء، أكّد الكاتب. القانون واضح.

التفت نحو كاتب العدل:

— يا سيد ديلوين، أقترح أن نبدأ الجرد المنهجي. سنحتاج لساعات عدة لتصنيف كل شيء.

أومأ كاتب العدل موافقاً وأخرج من حقيبته الضخمة مسطرة خشبية مدرَّجة وحبلاً بعقد لقياس الأبعاد بدقة. اقترب من جديد من الجوكندا.

— لنبدأ بهذه التحفة. يا روسو، هل أنت جاهز؟

بسط الكاتب على الطاولة أقلامه من ريش الإوز المبراة صباح ذلك اليوم، وأحباره متعددة الألوان — الأسود للنصّ العادي، والأحمر للعناوين، والأزرق للملاحظات الهامشية — ومخطوطاته الجيدة النوعية.

— تحت أمرك. أعددت أدواتي. يمكننا البدء.

— لحظة. قبل أن تبدأوا، هل لي أن أطلب منكم خدمة؟

قطّب مونكورنيه حاجبيه:

— أيّ خدمة؟

— اسمحوا لي أن أُصلّي صلاة أخيرة أمام كل عمل قبل أن يُجرَد ويُؤخَذ. إنها... إنها طريقتي في توديعه.

تأثّر كاتب العدل بهذا الطلب:

— بالطبع يا بنيّ. خذ وقتك.

جثا فرانشيسكو أمام الجوكندا وضمّ يديه. لكن بدلاً من الصلاة، حفر في ذاكرته كل تفصيل من اللوحة، عالماً أنه على الأرجح لن يراها مرة أخرى. سالت الدموع على خدّيه — دموع صادقة هذه المرة.

بعد لحظة طويلة، نهض:

— شكراً. يمكنكم المتابعة.

تنحنح كاتب العدل وبدأ إملاءه بصوت قوي ورسمي...

— جرد أملاك السيد ليوناردو دافنشي المرحوم، المواطن الفلورنسي، الرسام والمهندس ومعماري جلالة ملك فرنسا، المتوفّى في قصر كلو–لوسيه هذا في اليوم الثاني من مايو من عام النعمة ألف وخمسمئة وتسعة عشر. جرد أُعدّ في اليوم الخامس من الشهر نفسه، بحضور السيد إتيان ديلوين، كاتب العدل الملكي، بمعاونة السيد غيوم دو مونكورنيه، كبير كتّاب غرفة الخزانة، والسيد بارتلمي روسو، كاتب محكمة أمبواز.

دوّن الكاتب بجدّية، وقلمه يخدش المخطوطة في صمت خانق. كان يرسم حروفاً واضحة بخطّ ديواني متقن، ثمرة عشرين عاماً من الممارسة.

— حضر أيضاً، تابع كاتب العدل، السيد فرانشيسكو ميلزي، تلميذ الفقيد، والسيد جان جياكومو كابروتّي، الملقّب سالاي، خادم وتلميذ الفقيد المذكور. حضر العملية الجنديان الملكيان بيار مورتان وجاك دوبوا.

نفد صبر مونكورنيه:

— أهذه الإجراءات ضرورية؟ نعرف جميعاً من نحن.

— يتطلّب القانون تدوين كل شيء، ردّ ديلوين. يمكن الطعن في جرد ناقص. لنتابع. البند الأول. لوحة ثمينة تُمثّل سيدة جالسة في مقعد...

أخرج مسطرته وشرع في القياس بدقة:

— ...متوسطة الحجم — تقيس بالضبط قدمين وستة إنشات وثلاثة خطوط ارتفاعاً في قدم واحدة وتسعة إنشات وخطّين عرضاً —، مرسومة على لوح من خشب الحور الأسود الإيطالي بسماكة ثلاثة أصابع جيدة، أي نحو إنش ونصف، مؤطّرة في إطار مذهَّب بورق الذهب عرضه شبر، مزيّن الإطار بزخارف منحوتة تُمثّل أشكالاً نباتية من أوراق الأكانتس وزهور الزنبق المتشابكة.

كان الكاتب يعاني لمواكبة إيقاع الإملاء:

— يا سيدي، هل يمكنكم تكرار القياسات؟

— قدمان وستة إنشات وثلاثة خطوط ارتفاعاً. قدم واحدة وتسعة إنشات وخطّان عرضاً. دوّن أيضاً أن اللوح يظهر انحناءً طفيفاً، ربما بسبب قِدَم الخشب.

تفحّص اللوحة بانتباه، مقرّباً وجهه لفحص التفاصيل:

— ترتدي السيدة المصوَّرة ثوباً من الحرير الأسود المزركش بغنى كبير، بأكمام مخملية خضراء داكنة. يحيط بوجهها حجاب شفاف رقيق من الحرير الشاش وينزل على كتفيها. شعرها، بلون كستنائي بلمعات ذهبية، مصفَّف على الطراز الفلورنسي بفرق في الوسط. لا ترتدي أي مجوهرات ظاهرة.

اقترب مونكورنيه بدوره:

— دوّن أيضاً حالة الصون. هل توجد تشوّهات؟

فحص ديلوين السطح بانتباه:

— العمل في حالة رائعة. بعض التشقّقات السطحية في المناطق الداكنة، ظاهرة خصوصاً في الثوب. اصفرار خفيف للورنيش. لكن بشكل عام، صون استثنائي.

— هذا بفضل عناية المعلّم الدائمة. كان يتحقّق كل يوم من حالة أعماله. طوّر ورنيشاً خاصاً، من راتنج المستكة وزيت الجوز، يحمي اللوحة مع السماح لها بالتنفّس.

— يا روسو، دوّن هذه المعلومة عن الورنيش. قد تفيد للصون المستقبلي.

أومأ الكاتب موافقاً، مضيفاً ملاحظة هامشية بحبر أزرق.

فجأة، أبدى مونكورنيه ملاحظة أفزعت فرانشيسكو:

— مهلاً. هل كانت هذه اللوحة في هذا المكان دائماً؟ ألاحظ أن الغبار حول الحامل يشكّل نمطاً غير معتاد. يبدو أنه نُقل مؤخّراً.

شعر فرانشيسكو بقلبه يتسارع، لكنه حافظ على هدوئه:

— نقلت الحامل فعلاً قبل يومين، يا سيدي. بعد موت المعلّم، أدرته نحو الشرق كي يُنير ضوء الصباح وجه مادونا ليزا أثناء صلواتنا. كانت... كانت طريقتي في تكريمها. ضوء الفجر على وجهها... كان وكأنها تبكي معلّمنا معنا.

بدا التفسير مُرضياً للكاتب، الذي دوّن رغم ذلك المعلومة في دفتره.

استمرّ الجرد. انتقل كاتب العدل إلى اللوحة التالية:

— البند الثاني. لوحة كبيرة الأبعاد تُمثّل القديسة آنّا، والدة العذراء مريم، والعذراء مريم نفسها، والطفل يسوع يلعب مع حَمَل، كل ذلك في منظر طبيعي صخري مع جبال زرقاء في البعيد...

قاس بضمير حيّ:

— ...مرسومة على لوح من خشب الحور بأبعاد كبيرة — تقيس بالضبط أربعة أقدام وإنشين ارتفاعاً في ثلاثة أقدام وإنش واحد عرضاً —، لكنها بقيت غير مكتملة من يد المعلّم. بعض الأجزاء، خصوصاً وجه القديسة آنّا ووجه العذراء، ذات لمسة نهائية مثالية، بينما مناطق أخرى، وخصوصاً الحَمَل والمنظر الطبيعي على اليمين، لا تزال مجرّد رسم أوّلي.

لم يستطع فرانشيسكو منع نفسه من التدخّل:

— شغلت هذه اللوحة معلّمي نحو اثني عشر عاماً. لم يكن راضياً عنها تماماً قط. كان يقول إن تصوير ثلاثة أجيال من القداسة في تركيبة واحدة كان التحدّي الأقصى في مسيرته.

— لماذا لم يُتمّها قط؟ سأل روسو.

— لأن رؤيته كانت تتطوّر باستمرار. كلما ظنّ أنه وجد الحلّ المثالي، برزت فكرة جديدة. أعاد رسم وجه القديسة آنّا ست مرات

على الأقل. تأمّلوا جيداً، يمكن أن ترَوا آثار التراكيب السابقة تحت الطلاء الحالي.

انحنى ديلوين وبالفعل، تُميَّز خطوط غامضة تحت طبقات الطلاء:

— استثنائي! وكأن عدة لوحات متراكبة! يا روسو، دوّن: *«عمل يظهر تعديلات متعدّدة مرئية عبر الشفافية»*.

استمرّ الجرد لساعات. لوحة تلو لوحة، ورسم تلو رسم، قِيس كل عمل، ووُصف، وقُيّم. صعدت الشمس في السماء، وتحرّكت أشعتها ببطء على أرض الورشة.

نحو الساعة العاشرة صباحاً، بينما كانوا يجردون سلسلة من بورتريهات فتيات شابات، توقّف مونكورنيه فجأة أمام جدار تُميَّز فيه بوضوح آثار مستطيلة أفتح لوناً.

— ما هذا؟ سأل مشيراً إلى هذه العلامات. يبدو أن لوحات نُزعت مؤخّراً.

كان فرانشيسكو قد أعدّ إجابته:

— هذه أماكن أعمال أهداها معلّمي خلال مرضه، يا سيدي. حرص على شكر من اعتنوا به أو واسوه.

— وأيّ أعمال بالضبط؟

— دراسات في معظمها. بورتريه لشاب أُهدي للأب أنطوان الذي كان يقدّم له الأسرار المقدّسة. دراسة يدين أُهديت للدكتور فيرنيل.

رأس رجل عجوز للقسّيس بريسونيه الذي كان يأتي ليناقشه في اللاهوت.

اقترب مونكورنيه من الجدار:

— تبدو هذه الآثار حديثة جداً. الفرق في اللون طفيف. يبدو أن هذه اللوحات نُزعت قبل أيام قليلة فقط.

— قبل أسبوعين تقريباً، يا سيدي. كان ذلك أثناء زيارة الدكتور فيرنيل الأخيرة. أصرّ معلّمي، في لحظة صفاء، على إهدائه دراسة اليدين هذه شكراً على رعايته.

— وهل لديكم شهود على هذه الهبات؟

— المستفيدون أنفسهم، بالطبع. يمكنكم استجوابهم.

دوّن الكاتب الأسماء في دفتره:

— سنفعل ذلك، كن واثقاً. لنتابع.

انتقلوا إلى المخطوطات. تكدّست أكوام من الكرّاسات والدفاتر على عدة طاولات. رفع ديلوين واحدة، وفتحها بحذر:

— يا إله السماء! صاح. هذا الخطّ... إنه معكوس!

— كان معلّمي يكتب بخط مرآوي، شرح فرانشيسكو. من اليمين إلى اليسار. يحتاج المرء إلى مرآة لقراءة ملاحظاته، أو أن يتعلّم فكّ رموز هذه الكتابة المعكوسة. كان ذلك جزئياً لحماية أسراره، وجزئياً عادة الأعسر.

— أكان أعسر؟ اندهش روسو.

— أشهر أعسر في العالم، أكّد سالاي. كان يرسم، ويلوّن، ويكتب بيده اليسرى. كان يقول إنها هبة من الله، تسمح له برؤية العالم بشكل مختلف.

كان مونكورنيه يتصفّح كرّاسة، محاولاً فكّ رموز الكتابة المعكوسة:

— وماذا تحوي هذه المخطوطات بالضبط؟

اختار فرانشيسكو كلماته بعناية:

— ملاحظات عن الطبيعة، وتأمّلات فلسفية، ودراسات رياضية، وأبحاث عن المنظور. كان معلّمي يدوّن كل ما يهمّه. انظروا، هنا مثلاً...

أخذ كرّاسة غير مؤذية وفتحها على صفحة مغطّاة برسوم زهور:

— دراسات نباتية. كان المعلّم يقضي ساعات في الحدائق يرسم كل بتلة، كل ورقة. كان يقول إن فهم بنية زهرة هو فهم لهندسة الجمال.

— وهذه المخططات؟ سأل الكاتب مشيراً إلى صفحة مغطّاة بأشكال هندسية معقدة.

— دراسات عن النسب. كان معلّمي يبحث عن العلاقات الرياضية التي تحكم الانسجام البصري. النسبة الذهبية، والنسب المثالية للجسم البشري وفق فيتروفيوس...

بدأ ديلوين الإملاء:

— البند العاشر. مجموعة من المخطوطات المُجلَّدة وغير المُجلَّدة، مكتوبة بخطّ الفقيد بأسلوب مرآوي...

شرع في عدّ المجلدات:

— أُحصي... اثني عشر دفتراً كبيراً بحجم الرُبع مُجلَّدة بجلد قرطبة الأحمر... ثلاثة وعشرين دفتراً بحجم الثُّمن من الرقّ... وحوالي مئتي ورقة متفرّقة بأبعاد متنوعة.

— أهذا كل شيء؟ أعلن مونكورنيه فجأة. لرجل عمل خمسين عاماً، يبدو هذا قليلاً.

خمّن الكاتب مسرحيتهما.

— كان معلّمي انتقائياً جداً، أجاب مجاهداً في الحفاظ على هدوئه. كان يُتلف بانتظام الدراسات التي يحكم عليها بالنقصان. علاوة على ذلك، بقي كثير من ملاحظاته في إيطاليا، في البلاطات التي خدمها.

— وألم يُهدِ شيئاً من هذه المخطوطات أثناء مرضه؟ ألحّ مونكورنيه.

— بلى، بعض الكرّاسات. رسالة عن المنظور أُهديت لجان بيريال، رسام الملك الذي كان يُعجب به. دراسات هيدروليكية أُهديت للمهندس الملكي بيار دو نافار. أبحاث عن التحصينات أُرسلت للمارشال دو لا باليس.

دوّن الكاتب كل هذه الأسماء بتعبير متشكّك:

— يا له من سخاء مفاجئ! وزّع معلّمكم نصف أعماله في أسابيع قليلة!

استاء سالاي:

— أراد أن يُفيد علمه بشيء! هل هذا صعب الفهم إلى هذا الحدّ؟

— ما هو صعب الفهم، ردّ مونكورنيه، هو لماذا لم يُعدّ وصية بالأصول القانونية ليُوصي بهذه الممتلكات. لماذا هذه الهبات غير الرسمية؟

— كان ضعيفاً جداً على الكتابة، شرح فرانشيسكو. كان الشلل قد استولى على يده اليمنى. لم يكن يستطيع سوى إعطاء أوامر شفهية.

— عملي، عملي جداً، همس الكاتب.

كان التوتّر في الورشة ملموساً. تدخّل ديلوين، شاعراً بثقل الأجواء:

— أيها السادة، لنواصل مهمّتنا. الوقت يمرّ ولا يزال أمامنا الكثير لنجرده.

انتقلوا إلى الأدوات العلمية. كان فرانشيسكو قد اختار بعناية تلك التي يجب أن تبقى ظاهرة: فرجارات، وزوايا، وكرة فلكية، وبعض العدسات الزجاجية، ومرايا.

— البند العشرون. مجموعة أدوات رياضية وبصرية...

فحص مونكورنيه عدسة محدَّبة:

— ما فائدة هذه؟

— كان معلّمي يدرس خصائص الضوء. كان يستعمل هذه العدسات لفهم كيف تدرك العين البشرية الصور. كان هذا ضرورياً لتقنيته في المنظور.

— وهذا الجهاز الغريب؟ سأل الكاتب مشيراً إلى تركيب معقد من عجلات مسنّنة ونوابض.

ابتسم فرانشيسكو رغم توتّره:

— أحد اختراعاته. عدّاد مسافات، لقياس المسافات المقطوعة. تدور العجلات وفق نسبة دقيقة، ويشير هذا المؤشّر إلى المسافة. صمّمه للمهندسين العسكريين.

— بارع، اعترف ديلوين. كان معلّمكم عقلاً موسوعياً.

— موسوعياً جداً ربما، علّق مونكورنيه. رجل يهتمّ بكل شيء ينتهي به الأمر ألا يبرع في شيء.

— بل على العكس! احتجّ سالاي بحدّة. لأنه فهم كل شيء، برع في كل شيء! معرفته بالتشريح حسّنت رسمه. دراساته الهيدروليكية ساعدته على فهم حركة الأقمشة المتدلّية. كان كل شيء مترابطاً في عقله!

استمرّ الجرد. نحو الظهيرة، أحضرت ماتورين خبزاً وجبناً. توقّف العملاء استراحة، لكن فرانشيسكو لم يستطع أن يبلع تقريباً أي شيء، معقود المعدة من القلق...

بعد الظهر، أصبحت الأجواء أثقل. عاد مونكورنيه، الذي أمضى الاستراحة يتفحّص ملاحظاته، بعزم متجدّد. توجّه نحو صندوق من خشب ثمين لاحظه سابقاً، مخفياً خلف كومة من اللوحات.

— ماذا يوجد في هذا الصندوق؟ سأل رافعاً إياه.

تجمّد فرانشيسكو. كان قد نسي هذا الصندوق.

— أوراق شخصية للمعلّم، أظنّ. مراسلات، وثائق إدارية.

— افتحه.

كانت يدا فرانشيسكو ترتجفان قليلاً وهو يُدير المفتاح. كان في الداخل بالفعل رسائل، وعقود، وإيصالات. استولى عليها مونكورنيه بشراهة.

— لنرَ... رسائل من كاردينال أراغون... من دوق فيرارا... من ماركيز مانتوفا... آه، ها هو شيء مثير للاهتمام!

رفع رسالة بابتسامة منتصرة:

— رسالة مؤرَّخة في شهر مارس من هذا العام، أي قبل شهرين من وفاة المعلّم. صادرة عن شخص يُدعى أوتافيانو مالاتيستا، تاجر فنّ بندقي.

قرأ بصوت عالٍ:

— *«أيها المعلّم الجليل ليوناردو، علمت من صديقنا المشترك لويجي بومبي أنكم تحتفظون في ورشتكم بقديس يوحنا معمدان ذي جمال استثنائي، إضافة إلى ليدا مع البجعة التي تُفضح المتزمّتين بحسّيتها*

الوثنية. أنا مهتمّ جداً بشراء هاتين القطعتين لمجموعتي الخاصة، ومستعدّ لدفع ثمن سخي. ثلاثة آلاف دوكات ذهبي للقديس يوحنا، وألفان لليدا. هذا عرض كبير قلّما يرفضه فنان».

رفع الكاتب عينيه، محدّقاً في فرانشيسكو بحدّة:

— إذن؟ أين هذا القديس يوحنا المعمدان وليدا مع البجعة المذكوران في هذه الرسالة التي تعود إلى شهرين فقط؟ لماذا لم نجدهما في جردنا؟

أجبر فرانشيسكو نفسه على التنفّس بهدوء، ثم أجاب بثقة كان بعيداً عن الشعور بها:

— القديس يوحنا المعمدان أعاره معلّمي لجلالة الملك فرانسوا نفسه، قبل ثلاثة أسابيع، قبل قليل من تفاقم المرض نهائياً. أراد الملك أن يريه لسفير إنجلترا الذي كان يزور البلاط. أراد أن يُثبت أن فرنسا تملك أعظم فناني العالم. يوجد العمل إذن في القصر الملكي، في الأجنحة الخاصة للملك. يمكنكم التحقّق من ذلك لدى حجّاب الملك.

كان هذا تفسيراً جريئاً — جعل الملك نفسه حائز العمل المفقود. لن يستطيع مونكورنيه التحقّق من هذا الادّعاء بسهولة من دون التوجّه مباشرة إلى ضبّاط الملك.

— هل استعار الملك هذا العمل؟

— «استعار» ليست الكلمة الدقيقة، أجاب سالاي. أعربت جلالته عن رغبتها في تأمّل القديس يوحنا المعمدان، ولم يستطع معلّمي أن يرفض للملك شيئاً. كان ذلك بالضبط قبل ثلاثة وعشرين يوماً. أتذكّر اليوم تماماً: كان يوم أحد، بعد القدّاس. جاء حارسان ملكيّان لأخذ اللوحة بمحفة مبطّنة.

دوّن مونكورنيه هذه المعلومات، منزعجاً بوضوح لعدم قدرته على التحقّق منها فوراً.

— وليدا مع البجعة؟

اتّخذ فرانشيسكو تعبيراً مؤلماً:

— آه، ليدا... إنها قصة مأساوية، يا سيدي. دمّرها معلّمي بيديه في نوبة غضب فني، قبل شهر من وفاته.

— دُمّرت؟ عمل تبلغ قيمته ألفَي دوكات ذهبي؟

— لم يكن للمال أهمية عند معلّمي حين يتعلّق الأمر بفنّه. لم يكن راضياً عن تصوير الجلد، ووجد أن حسّية التركيبة تنحدر إلى الابتذال بدلاً من الجمال الصرف. في مساء ما، بعد زيارة الكاردينال دو تورنون الذي انزعج من عري ليدا، دخل معلّمي في غضب رهيب.

استكمل سالاي، مضيفاً تفاصيل تجعل القصة أكثر إقناعاً:

— أتذكّر تلك الليلة. كان الثالث من أبريل، متأخّراً في المساء. كان المعلّم في حالة اضطراب شديد. جرحته زيارة الكاردينال عميقاً. كان

يكرّر: *«هذه ليست ليدا الحقيقية. إنها مجرّد تقليد ساخر لما أردت خلقه. الكاردينال محقّ، إنها ابتذال، إنها فحش! أصبحت عجوزاً شبقاً أحمق!»*. حاولنا أن نوقفه، لكنه أمسك سكّيناً ومزّق اللوحة بعنف.

تابع فرانشيسكو:

— أُحرقت أشلاء اللوحة في هذه المدفأة نفسها. حاولت إنقاذ بعض الأجزاء، لكن المعلّم أمرني بتدمير كل شيء. *«لا أثر يا فرانشيسكو، لا أثر لهذا الرجس!»* كان يصرخ. كان... كان مخيفاً أن نرى عبقرياً كهذا يدمّر عمله الخاص.

— عملي بشكل لافت، علّق مونكورنيه بتشكّك. عمل ثمين مذكور في رسالة حديثة يُدمَّر قُبيل الجرد مباشرة. والآخر موجود في القصر، بعيداً عن متناولنا.

— الحقيقة غالباً ما تكون أقلّ عملية من الكذب، يا سيدي، ردّ فرانشيسكو بلمحة من السخرية. لو أردنا إخفاء هذه الأعمال، أكنّا لنترك رسالة مالاتيستا هذه في الصندوق؟

وقعت الحجة موقعها. قطّب مونكورنيه حاجبيه، معترفاً بمنطق هذه الملاحظة.

تدخّل كاتب العدل، شاعراً أن الموقف يتوتّر:

— سنُدوّن هذه التفسيرات. إن كانت جلالته تحوز القديس يوحنا المعمدان، فسيُدرج العمل طبيعياً في الجرد العام لأملاك الفقيد. أما

بشأن ليدا المدمَّرة، فلا يمكننا جرد ما لم يعد موجوداً. لنواصل عملنا، أيها السادة.

لكن مونكورنيه لم يكن مقتنعاً. واصل تفتيش الرسائل، قارئاً كل وثيقة بانتباه. فجأة، أضاء وجهه برضا خبيث:

— أوه، لكن هذا أكثر إثارة للاهتمام!

رفع وثيقة:

— جرد! جرد مخطوط بيد ليوناردو دافنشي نفسه!

شعر فرانشيسكو بالأرض تنهار تحت قدميه. كان قد نسي تماماً وجود هذه الوثيقة.

— انظروا إلى التاريخ: 1516، وقت مغادرته إيطاليا إلى فرنسا. قائمة مفصّلة بكل ما كان يأخذه معه. سنستطيع أن نقارن مع ما وجدناه اليوم ونحدّد بدقة ما هو مفقود!

شرع الكاتب في القراءة بحبور واضح:

— *«بورتريه لسيدة فلورنسية، تُدعى الجوكندا»* — موجودة. *«تركيبة القديسة آنّا مع العذراء والطفل»* — موجودة. *«قديس يوحنا معمدان»* — غائب، تدّعون أنه في القصر. *«ليدا مع البجعة»* — غائبة، تدّعون أنها دُمّرت.

تابع، وصوته يصبح أكثر اتهاماً:

— *«اثنا عشر دفتراً كبيراً مُجلَّداً يحوي دراسات تشريحية كاملة»* — لا أعدّ سوى ثلاثة في جردنا الحالي. أين التسعة الأخرى؟ *«رسالة عن طيران الطيور في ثمانية كرّاسات»* — غائبة تماماً. *«أبحاث عن الهيدروليك في ستة كرّاسات»* — غائبة. *«دراسات عن النسب البشرية وفق فيتروفيوس، أربعة كرّاسات»* — غائبة. *«رسالة في الرسم من عشرة كرّاسات»* — لا أرى سوى اثنين هنا!

رفع الكاتب عينيه، محدّقاً في فرانشيسكو بنظرة ثاقبة:

— كيف تفسّرون أن أكثر من نصف المخطوطات المذكورة في جرد 1516 هذا لم تعد موجودة في الورشة عام 1519؟ إلى أين ذهبت؟ تبخّرت؟

شعر فرانشيسكو بالعرق ينساب على ظهره. أخذ نفساً عميقاً واندفع في التفسير الذي أعدّه:

— وُزّعت هذه المخطوطات من قِبل المعلّم قبل وفاته، كما شرحت لكم. لكن ليس فقط لأصدقاء في أمبواز. أُرسل بعضها إلى إيطاليا، لعلماء ومؤسسات كانت قادرة على استعمالها جيداً.

— إلى إيطاليا؟ صاح مونكورنيه. أرسل معلّمكم المحتضر مخطوطات إلى إيطاليا؟

— أراد أن يعود علمه إلى وطنه، شرح فرانشيسكو. أُهديت الدراسات التشريحية، مثلاً، لخليفة الدكتور ماركانتونيو ديلا تورّي في جامعة

بافيا. كان هذا وعداً قطعه منذ زمن طويل. توجد رسائل بهذا الشأن في هذه الرزمة، إن أردتم الاطلاع عليها.

بحث فرانشيسكو بسرعة في الأوراق وأخرج رسالة غامضة:

— انظروا، هذه رسالة من الأستاذ بيرينغاريو دا كاربي يطلب توضيحات عن بعض الملاحظات التشريحية. أرسل له معلّمي ثلاثة كرّاسات رداً على ذلك.

— أما بالنسبة لرسالة الطيران، قال سالاي، فقد قُسّمت بين عدة أشخاص. تلقّى السيد دو فيلروا جزءاً منها، فهو مهتمّ بالآلات العسكرية. حصل الكونت دو ليني على جزء آخر، إذ يحلم ببناء آلات طائرة. أخذ المهندس دومينيكو دا كورتونا، الذي كان في زيارة قبل شهرين، كرّاستين معه إلى إيطاليا.

تابع فرانشيسكو، مرتجلاً بيأس:

— أُرسلت الأبحاث الهيدروليكية إلى المهندس جيرولامو دا ميلانو الذي يبني قنوات للبابا. كانت هذه إرادة المعلّم: أن تُستعمل اكتشافاته في مشاريع ملموسة، لا أن تعفن في الصناديق.

كان مونكورنيه يستمع بشكّ واضح:

— يا له من سخاء استثنائي! وزّع معلّمكم عقوداً من الأبحاث في أسابيع قليلة! وبأي معجزة نظّم رجل مشلول كل هذه الإرساليات؟

— لم يكن مشلولاً دائماً، احتجّ سالاي. كانت له لحظات وعي، وأيام أفضل. ونحن من كنّا ننفّذ أوامره. أليس كذلك يا فرانشيسكو؟

— بالضبط. كان المعلّم يُملي تعليماته، وكنّا نكتب رسائل المرافقة، وننظّم الإرساليات. يستطيع خادمنا الأمين باتيستا أن يشهد على ذلك، حمل عدة طرود إلى محطة بريد أمبواز.

التفت مونكورنيه نحو الخادم الذي كان يقف قرب الباب:

— أصحيح ذلك؟

أومأ باتيستا، الذي فوجئ لكنه فهم رهانات الموقف:

— نعم، يا سيدي. حملت عدة طرود في الأشهر الأخيرة. لفائف مختومة، موجّهة لأشخاص متنوعين في فرنسا وإيطاليا.

— ألم تجد غريباً هذا الاندفاع المفاجئ في التوزيع؟

— كان المعلّم يعلم أنه سيموت، يا سيدي. أراد أن يُرتّب شؤونه.

دوّن الكاتب كل هذه الأسماء، مضيفاً باستمرار مدخلات جديدة إلى قائمته بالأشخاص الذين سيستجوبهم:

— سنتحقّق من كل هذا. كونوا واثقين. سيُتحقّق من كل اسم. سيُبحث عن كل مخطوط مفقود. وإن اكتشفنا أنكم كذبتم علينا...

ترك التهديد معلّقاً.

— ستكون العواقب رهيبة. سرقة أملاك تعود للتاج عقوبتها الإعدام. قلت لكم هذا بالفعل، لكنني أحرص على أن يكون الأمر واضحاً تماماً.

— ليس لديّ ما أخشاه من الحقيقة، أجاب فرانشيسكو.

استأنف الجرد في أجواء أكثر توتّراً. أصبح مونكورنيه يفحص الآن كل قطعة بشكّ منهجي. كان يبحث عن آثار تلاعب حديثة، يختبر الغبار على الأرفف، ويتحقّق من تآكل التجليدات.

نحو الساعة السابعة عشرة، بينما كان الضوء يخفت ووجب إشعال الشموع، أجرى الكاتب اكتشافاً مقلقاً جديداً. أثناء تحريك كومة من اللوحات، كشف قسماً من الجدار يبدو فيه الجصّ مختلفاً، أحدث.

— ما هذا؟ سأل طارقاً الجدار. يبدو أن هذا الجدار أُعيد بناؤه مؤخّراً.

كاد قلب فرانشيسكو يتوقّف. كان هذا أحد الأماكن التي طمرا فيها مخطوطات. مع ذلك، كان سالاي قد أقسم أنه أعطى الجصّ مظهراً عتيقاً تماماً.

— أُصلح هذا الجدار قبل ستة أشهر، شرح فرانشيسكو مجاهداً في الحفاظ على صوت طبيعي. كانت هناك تسرّبات مياه تهدّد بإتلاف الأعمال. استدعى المعلّم بنّاءً من تور، السيد غيوم بيشون. يمكنكم التحقّق منه لديه.

فحص مونكورنيه الجدار عن قرب أكثر، خادشاً الجصّ قليلاً بظفره:

— ستة أشهر، تقولون؟ يبدو هذا الجصّ أطرى من ذلك.

— رطوبة نهر اللوار، يا سيدي. تمنع الجصّ من الجفاف الكامل. سيؤكّد لكم كل بنّائي المنطقة ذلك.

لم يقتنع الكاتب، لكن من دون دليل ملموس، لم يستطع فعل شيء. دوّن رغم ذلك هذه الملاحظة في دفتره.

بلغ الجرد نهايته أخيراً وقد حلّ الليل. كانت الشموع تلقي ظلالاً راقصة على الجدران، خالقة جوّاً شبحياً. جفّف الكاتب روسو، منهكاً، كتاباته الأخيرة برشّها برمل ناعم.

— ها هو، أعلن ديلوين وهو يُعيد ترتيب أدواته. انتهى الجرد. أحصينا ثلاثاً وعشرين لوحة ولوحاً مرسوماً، ومئة وسبعة وثلاثين رسماً، وستة وعشرين مخطوطاً مُجلَّداً، وحوالي مئتي ورقة متفرّقة، وثلاثة وأربعين أداة علمية، وأشياء شخصية متنوعة.

التفت نحو فرانشيسكو وسالاي:

— أيها السيدان، وفقاً لحق الغريب، تصبح كل هذه الأملاك ملكاً لجلالة الملك. سيشرع الجنديان في نقل القطع الأثمن لحملها إلى القصر الملكي حيث ستُخزَّن وتُصان...

أحنى فرانشيسكو رأسه صامتاً، عاجزاً عن نطق كلمة. كان حلقه مشدوداً بالعاطفة — مزيج من الحزن على الأعمال المفقودة وارتياح سرّي على تلك التي نجحا في إنقاذها.

دخل الجنديان المسلَّحان الورشة عندئذٍ، حاملَين صناديق من خشب متين ولفائف من قماش واقٍ. اقتربا بإجلال غير معتاد لرجلين معتادَين على المصادرات الخشنة.

— اتّخذا أقصى الاحتياطات، أمر ديلوين. هذه الأعمال ذات قيمة لا تُقدَّر بثمن وهشاشة قصوى. أدنى إهمال قد يُسبّب أضراراً لا تُعوَّض. لن تغفر لنا جلالته ذلك أبداً.

كانت الجوكندا أول عمل يغادر الورشة. اقترب منها الجنديان بإجلال شبه ديني. كان العملاق الأشقر، مورتان، الذي اعتاد العنف، يتعامل مع اللوحة بحركات رقيقة مفاجئة.

— برفق يا جاك، همس لرفيقه. إنها هي، السيدة التي يتحدّث عنها الجميع. انظر كيف تتبعنا بنظرها.

— هذا يُقشعرّ جسدي، أجاب الآخر مرتجفاً. وكأنها حيّة.

أشرف ديلوين شخصياً على التغليف. أولاً، لفّ اللوحة بعدة طبقات من قماش الكتّان الرقيق:

— انتبها للزوايا. هناك حيث الخشب أكثر هشاشة. ها هو، الآن غطاء الصوف. لا، ليس هكذا! يجب أن يكون مشدوداً بشكل مثالي لتجنّب الاحتكاك.

كان كاتب العدل يتصبّب عرقاً رغم برودة المساء. كان الرهان كبيراً — إتلاف الجوكندا سيكون كارثة سياسية بقدر ما هي فنية.

اقترب فرانشيسكو:

— اسمحوا لي أن أساعدكم، يا سيدي. أعرف هشاشة هذا العمل. للوح ميل طفيف للانحناء مع الرطوبة. يجب الحفاظ على ضغط متجانس.

معاً، وضعا اللوحة في صندوق مبطَّن بالمخمل الأحمر. كان ديلوين قد استقدم نشارة خشب ناعمة لملء الفراغات:

— ستمتصّ هذه النشارة الصدمات أثناء النقل. هذه تقنية تعلّمتها أثناء نقل أعمال المونسينيور دو أمبواز الراحل.

كان سالاي يراقب المشهد، والدموع في عينيه:

— تغادر هذه الورشة إلى الأبد. كان المعلّم يقول إنها مرآته، أنه كان يرى نفسه فيها.

— ماذا تقصد؟ سأل روسو، مفتوناً.

— كان المعلّم يقول إن كل فنان يضع روحه في عمله. هذه السيدة، هي ليوناردو نفسه. غموضه، وكآبته، وحكمته... كل ذلك موجود، في هذه الابتسامة.

علّق مونكورنيه، الذي كان يُشرف على تغليف لوحة أخرى، بسخرية:

— شعر جميل، لكنها ليست سوى لوحة. سلعة ذات قيمة كبيرة، صحيح، لكن سلعة على أي حال.

التفت فرانشيسكو نحوه بغضب مكتوم:

— سلعة؟ هكذا ترى العبقرية؟ كملكية تُجرد، وتُقيَّم، وتُصادَر؟

— هكذا يراها القانون، ردّ الكاتب. وأنا خادم القانون.

— يستطيع القانون أن يمتلك الدعامة المادية، تدخّل فرانشيسكو، لكنه لن يمتلك أبداً الروح التي تحرّكها. ستستمرّ هذه اللوحة في إقلاق من ينظر إليها طويلاً بعد أن تُنسى قوانينكم.

— سنرى ذلك. أما الآن، فهي ملك فرنسا.

استمرّ نقل الأعمال منهجياً. غُلّفت القديسة آنّا بالعناية نفسها. ثم جاء دور اللوحات الأخرى، واحدة تلو الأخرى. كان كل رحيل تمزيقاً بالنسبة إلى فرانشيسكو وسالاي.

حين جاء دور المخطوطات، حاول فرانشيسكو مناورة أخيرة:

— أيها السادة، تحوي هذه الكرّاسات ملاحظات تقنية جداً، غالباً غير مفهومة من دون شرح. اسمحوا لي أن أُعدّ نسخاً موضّحة لجلالته. أستطيع أن أترجم الكتابة المرآوية، وأشرح المصطلحات التقنية...

— مستحيل، قاطعه مونكورنيه. يجب أن يُنقل كل شيء فوراً. إن رغب الملك في تفسيرات، سيستدعيكم.

وُضعت المخطوطات في صناديق مبطّنة باللباد. كان فرانشيسكو يراقب كل كرّاسة تختفي، مرتاحاً ذهنياً لأن الأهمّ منها في أمان في مخبآتها.

نحو الساعة العشرين، بينما كان الجنديان يحملان الصناديق الأخيرة، كاد حادث يُفشل كل شيء. أثناء تحريك طاولة ثقيلة، اصطدم أحد الجنديين بالجدار حيث كانت المخطوطات مخبّأة. انفصلت قطعة من الجصّ، كاشفة تجويفاً.

— يا سيدي! صاح الجندي. يوجد شيء خلف هذا الجدار!

شعر فرانشيسكو بالدم يفرّ من وجهه. هرع مونكورنيه، حاملاً شعلة:

— ماذا ترى؟

خدش الجندي الجصّ، موسّعاً الفتحة:

— يبدو... فضاء مجوَّفاً. ربما حنية قديمة.

كان قلب فرانشيسكو يخفق بشدّة حتى إنه كان متأكّداً أن الجميع يستطيع سماعه. لكن بمعجزة، لم تكشف الفتحة التي أحدثها الجندي سوى جزء فارغ من المخبأ — كانت المخطوطات مكدَّسة أبعد، غير مرئية من هذه الزاوية.

— هذه القنوات القديمة للصرف، أعلن بسرعة باتيستا الذي كان يراقب المشهد. عمر هذا القصر أكثر من مئة عام. توجد ممرات مطمَّرة في كل مكان، ومداخن قديمة، وقنوات. لا بدّ أن البنّاء الذي أصلح هذا الجدار وقع على أحدها.

فحص مونكورنيه الفتحة بشكّ:

— وسّعوا هذا الثقب. أريد أن أرى ما يوجد خلفه.

— يا سيدي، تدخّل ديلوين، الوقت متأخّر. لدينا جوهر الجرد. إن أردتم إجراء أبحاث أعمق، عودوا غداً بعمّال. أما الآن، فلننهِ ما بدأناه.

تردّد الكاتب، ثم أومأ موافقاً على مضض:

— حسناً. لكنني سأعود. وسأجعلهم يفحصون كل جدران هذه الورشة إن اقتضى الأمر.

تبادل فرانشيسكو نظرة مع سالاي. كسبا مهلة، لكن إلى متى؟

انتهى الجرد المادّي الآن. جمع روسو مخطوطاته، متحقّقاً من أن كل صفحة مرقَّمة وموقَّعة بشكل صحيح. ختم ديلوين بشمعه الأحمر أسفل الوثيقة النهائية.

— يبلغ الجرد الرسمي لأملاك ليوناردو دافنشي ثلاثاً وستين صفحة، أعلن بجلال. سيُودَع في غرفة الحسابات وستُسلَّم نسخة لجلالته.

أضاف مونكورنيه:

— أيها السيدان ميلزي وسالاي، أنتما الآن حارسا هذه الورشة الخاوية إلى أن تُقرّر جلالته مصيرها. يُمنع عليكما منعاً باتّاً نزع أي شيء أو تعديله. سيمرّ حرّاس بانتظام للتحقّق من بقاء كل شيء على حاله.

— كم من الوقت؟ سأل سالاي.

— حتى إشعار آخر. ربما أسابيع قليلة، ربما أشهر قليلة. سيتوقّف ذلك على مشيئة الملك.

أضاف ديلوين، الأكثر تعاطفاً:

— يمكنكما مواصلة الإقامة في القصر في الوقت الراهن. تُقدّر جلالته الخدمات التي قدّمتماها للفقيد. لكن كونا جاهزَين للرحيل حين يأتي الأمر.

بدأ العملاء بجمع أغراضهم. كانت العربات في الفناء محمّلة الآن بصناديق تحوي الكنز الفني لليوناردو. كانت الثيران تتنفّس في هواء الليل البارد.

قبل الرحيل، اقترب ديلوين من فرانشيسكو:

— أتفهّم ألمك أيها الشاب. أن ترى عمل معلّمك يرحل هكذا... لكن اعلم أنه سيُصان. يُكنّ الملك احتراماً عميقاً لليوناردو دافنشي. ستُعامَل هذه الأعمال بكل التكريم.

— التكريم الذي يستحقّه غنيمة حرب، همس فرانشيسكو بمرارة.

تنهّد كاتب العدل:

— القانون قاسٍ، لكنه القانون. كان على معلّمك أن يفكّر في ذلك.

— كان معلّمي يظنّ أن العبقرية تتجاوز القوانين البشرية.

— ربما. لكننا نعيش في عالم البشر، لا في عالم العباقرة.

اقترب مونكورنيه، الذي سمع الحوار:

— تحذير أخير يا ميلزي. سأحقّق في كل تصريح من تصريحاتك. سأستجوب كل شخص ذكرته. إن اكتشفت أدنى كذبة، أدنى إخفاء...

— لن تجد سوى الحقيقة، يا سيدي.

— سنرى. في هذه الأثناء، أنصحك بألا تغادر أمبواز. صبري له حدود.

على وقع هذه الكلمات المهدِّدة، غادر العملاء القصر. راقبهما فرانشيسكو وسالاي وهما يرحلان من نافذة الورشة المدمَّرة. ابتعدت مشاعل الموكب في الليل، حاملة معها جزءاً من روح ليوناردو.

حين خفت ضجيج العربات، انهار سالاي على مقعد بلا مسند:

— يا إلهي، فرانشيسكو، ظننت أننا هُلكنا حين انهار الجدار!

— كان الحظّ معنا. لكن مونكورنيه سيعود. يجب أن نُنقل المخطوطات المخبّأة هذه الليلة نفسها.

— هذه الليلة؟ لكننا منهكان!

— بالضبط. لن يتوقّعوا أن نتصرّف بهذه السرعة. سيساعدنا باتيستا. سنُخرج المخطوطات ونُفرّقها. بعضها عند أصدقاء موثوقين، وبعضها في سرداب كنيسة سان–دوني.

دخلت ماتورين الورشة، حاملة شموعاً جديدة:

— أيها السيدان، يجب أن تأكلا شيئاً. لم تبتلعا شيئاً طوال اليوم.

— لاحقاً يا ماتورين. لدينا عمل.

نظرت إليهما المدبّرة بقلق:

— انتبها أيها السيدان. للجدران آذان. ومونكورنيه معروف بأن له جواسيس في كل مكان.

— سنكون حذرَين.

حين غادرت، التفت فرانشيسكو نحو سالاي:

— يجب أن نكتب أيضاً هذه الرسائل المزوَّرة التاريخ. لخلق وهم أن الهبات حدثت فعلاً. احتفظت بورق عتيق وحبر باهت.

— تفكّر في كل شيء.

— أحاول. علّمني المعلّم أن أتوقّع. «*راقب، حلّل، توقّع*»، كان يقول دوماً.

أمضيا الساعات التالية ينتزعان بحذر المخطوطات من مخابئها. لُفَّت كل كرّاسة بقماش مشمَّع، ثم وُضعت في أكياس من الخيش.

نحو منتصف الليل، بينما كانا يستعدّان لنقل الدفعة الأولى، عاد باتيستا من المدينة بأخبار مقلقة:

— أيها السيدان، لديّ أخبار سيئة. بدأ مونكورنيه تحقيقه بالفعل. أرسل رجالاً إلى الدكتور فيرنيل وإلى قسّيس سان–فلورنتان. يريد التحقّق من تصريحاتكما في صباح غد.

شتم فرانشيسكو بين أسنانه:

— لا يُضيّع وقتاً. باتيستا، يجب أن ترحل فوراً إلى تور. احمل هذه الرزمة إلى الدكتور فيرنيل مع هذه الرسالة. قل له إنها مسألة حياة أو موت.

مدّ للخادم لوحة صغيرة — دراسة يدين عديمة القيمة الكبيرة — ورسالة مُعَدّة بعناية.

— وللقسّيس؟

— يتكفّل سالاي بذلك. سيرحل قبل الفجر بدراسة نباتات. القسّيس رجل طيب، سيفهم.

كانت الليلة طويلة ومنهكة. نقلا المخطوطات، وأنشآ وثائق مزيّفة، وأعدّا شهودهما. حين أشرق الفجر على أمبواز، كان كل شيء جاهزاً لبقية مسرحيتهما الكبرى.

تأمّل فرانشيسكو للمرة الأخيرة الورشة الخاوية. بدت الجوكندا وكأنها تسخر منه. لكن في المخابئ السرّية، في الصناديق المُخفاة، في العليّات المغبَّرة، نجا جوهر عبقرية ليوناردو.

— سامحنا يا معلّم، همس. نفعل ما يجب فعله.

6 مايو 1519، الجنازة

في صباح اليوم التالي، السادس من مايو 1519، بزغ الفجر على أمبواز في ضباب كثيف صاعد من نهر اللوار.

كان يجب أن تكون الجنازة الرسمية مهيبة جداً، بحضور الملك فرانسوا الأول والبلاط كاملاً، ما استلزم تنسيق حضور عدد كبير من المشاركين في المراسم. لذلك، أُجري دفن مؤقّت أوّلي بسرعة، من دون طقوس. اقترب فرانشيسكو ببطء من التابوت. كان الغطاء لا يزال مفتوحاً. استطاع أن يرى وجه معلّمه للمرة الأخيرة.

كان ليوناردو راقداً ويداه متصالبتان على صدره، مرتدياً أجمل ثوب مخملي قرمزي مطرَّز بفرو السمّور — ذلك الذي كان يرتديه في اللقاءات الملكية. كان شعره الأبيض الطويل، المصفّف بعناية، ينسدل على كتفيه. قُصّت لحيته، البيضاء أيضاً، وعُطّرت بزيت المرّ. وضع أحدهم — على الأرجح باتيستا — صليباً صغيراً من العاج على صدره.

لكنّ وجهه هو ما شدّ الانتباه. في الموت، وجد ليوناردو صفاءً لم يعرفه قط في الحياة. تلاشت تجاعيد القلق التي كانت تحفر جبينه. اختفت طيّات المرارة حول فمه. بدا نائماً، ببساطة نائماً، وكأنه سيفتح عينيه في أي لحظة ويقول بصوته العميق: «*فرانشيسكو، يا ولدي، رأيت أغرب حلم...*»

لكنه لن يفتح عينيه أبداً بعد الآن.

دُفن الجثمان في قطعة أرض شاغرة من مقبرة أمبواز، بحضور التلميذين فقط، وبعض المقرّبين، وضابط ملكي وقسّيس.

أُقيمت الجنازة الرسمية بعد ثلاثة أشهر، في الثاني عشر من أغسطس 1519.

في ذلك اليوم، أُخرج التابوت ونُقل إلى القصر بواسطة ستة حرّاس ملكيّين.

لم ينم فرانشيسكو. واقفاً عند نافذة غرفته، راقب المدينة تستيقظ ببطء، مدركاً أن هذا اليوم سيُشكّل النهاية النهائية لعصر بأكمله.

بدأت أجراس كنيسة القديس فلورنتان تقرع ناقوس الموت — صوت جهير، متكرّر، عنيد، يتردّد صداه في الوادي كتوبيخ موجَّه للسماء نفسها.

دُنغ. دُنغ. دُنغ.

كانت كل قرعة جرس نبضة قلب تتوقّف، نفَساً لن يعود أبداً. أغمض فرانشيسكو عينيه، تاركاً الصوت يغزوه، يخترقه. لم يبكِ منذ موت المعلّم.

دخل سالاي الغرفة من دون أن يطرق. لم ينم هو الآخر. كانت عيناه محمرّتين، منتفختين من الدموع والتعب. كان يرتدي ثياب حداده — سترة مخملية سوداء، وسراويل سوداء، ومعطف قاتم. كان يحمل بيده صندوقاً من خشب ثمين.

— حان الوقت، قال ببساطة. أتوا لأخذ التابوت.

أومأ فرانشيسكو موافقاً بصمت. ارتدى ثياب حداده الخاصة، مرتّباً بشكل آلي طيّات معطفه. كانت يداه ترتجفان قليلاً. كان في التاسعة والعشرين من عمره وعلى وشك دفن الرجل الذي كان أكثر من معلّم، أكثر من والد — من علّمه أن يرى العالم بعيني الذكاء والجمال.

نزلا الدرج معاً. في الدهليز، كان باتيستا وماتورين ينتظرانهما، مرتديَين السواد أيضاً. كانت المدبّرة تحمل مسبحة بين أصابعها المعقودة وتتمتم بصلوات لا تنقطع. كان باتيستا، وجهه مطبق، يحمل شمعة بيضاء.

استقرّ التابوت في الصالون الكبير، على حوامل مغطّاة بمخمل أسود مطرَّز بالذهب. كان تابوتاً بسيطاً، لكن رزيناً، من خشب البلوط الصلب. لا زخارف مفرطة، لا نحت متبجّح — فقط الخشب النبيل ولوحة نحاسية صغيرة محفورة: ليوناردو دافنشي، رسام الملك، 1452–1519.

كانت عشرات الشموع تحترق، خالقة ضوءاً ذهبياً مرتعشاً منح انطباعاً بأن الظلال ترقص على الجدران. كان الهواء مشبعاً برائحة شمع النحل الممزوجة

بالأعشاب العطرية — إكليل الجبل، والخزامى، والزعتر — التي غُطّي بها التابوت لإخفاء رائحة تحلّل الجسد.

وضع فرانشيسكو يداً على حافة التابوت كي لا يترنّح. اخترق ألم حادّ صدره، بشدّة جعلته يظنّ للحظة أنه سيموت هو الآخر. كيف يستطيع العالم أن يستمرّ في الدوران من دون ليوناردو؟ كيف تجرؤ الشمس على الشروق، والطيور على الغناء، والناس على متابعة أشغالهم، بينما ذلك الذي فهم أسرار الطبيعة يرقد بلا حراك في صندوق من خشب؟

جثا سالاي وفتح الصندوق الذي كان يحمله. كانت في الداخل عدة أشياء: كرّاسة رسوم — سكتشات رسمها ليوناردو لسالاي حين كان شاباً، جميلاً، طائشاً؛ فرشاة مستهلَكة، تلك التي كان المعلّم يفضّلها للتفاصيل الأدقّ؛ قارورة صغيرة تحوي تراباً من فلورنسا، احتفظ بها ليوناردو بعناية طوال سنوات منفاه.

— طلب مني المعلّم أن أضع هذه الأشياء قربه، شرح سالاي بصوت مكسور. أراد أن يأخذ معه شيئاً من فنّه، شيئاً من وطنه.

— سامحني يا معلّم، همس. سامحني على أنني لم أكن دوماً في المستوى المطلوب. سامحني على نزواتي، وغضباتي، وغيرتي. كنت صبوراً معي حين لم أستحقّ سوى التوبيخ. أحببتني رغم كل عيوبي.

انهار على التابوت، تهزّه نوبات نحيب عنيفة تنتزع منه أنّات شبه حيوانية. جثا فرانشيسكو إلى جانبه، واضعاً ذراعاً حول كتفيه. كان هو الآخر يبكي الآن، والدموع تنساب بحرية على خدّيه.

— كان يعرف يا سالاي. كان يعرف أنك تحبّه. قال لي ذلك في الليلة السابقة لموته. «*سالاي الجميل*»، همس، «*شيطاني ذو العينين الملائكيتين. أفسد حياتي وأنار أيامي. لا أندم على شيء*».

رفع سالاي رأسه، باحثاً في عيني فرانشيسكو عن تأكيد أن هذه الكلمات كانت حقيقية.

— قال ذلك؟

— أقسم بروحي.

مرّت لحظة صمت. ثم أضاف فرانشيسكو:

— حان دوري الآن.

أخرج من جيبه شيئاً صغيراً ملفوفاً بقطعة من الحرير الأحمر — القماش نفسه الذي غطّى الجوكندا لسنوات.

— يا معلّم، أعطيتني هذا قبل عشر سنوات، اليوم الذي أصبحت فيه رسمياً تلميذك. قلت لي: *«فرانشيسكو، كان هذا الفرجار ملكاً لمعلّمي الخاص، أندريا ديل فيروكيو. أعطاني إياه وقال لي إن الفن ليس مجرّد إلهام، بل أيضاً دقّة. اليوم، أنقله إليك. أحسن استعماله»*.

فتح الحرير، كاشفاً عن فرجار نحاسي قديم، صقلته عقود من الاستعمال. كانت الفروع محفورة بنقوش لاتينية دقيقة.

— حاولت أن أُحسن استعماله، يا معلّم. حاولت أن أكون جديراً بتعليمك. لكن الآن... الآن وقد رحلت لترشدني، أخشى. أخشى ألا أكون قوياً بما يكفي، ذكياً بما يكفي، شجاعاً بما يكفي لحماية إرثك. خذ هذا الفرجار معك. فليذكّرك، أينما كنت الآن، بأن تعليمك يستمرّ حيّاً من خلالنا.

وضع الفرجار برفق على التابوت.

اقترب باتيستا بدوره. كان الخادم المخلص، الذي أمضى ثلاث سنوات يعتني براحة المعلّم، يحمل شمعة بيضاء بسيطة.

— يا معلّم، قال ببساطة، عاملتني بلطف حين كان آخرون سيطردونني. تحدّثت معي كندّ حين كان آخرون يعاملونني ككلب. هذه الشمعة، سأشعلها كل عام في ذكرى موتك. طالما أنا حيّ، ستحترق ذكراك.

وضع الشمعة على التابوت، ثم صلّب على نفسه ببطء.

كانت ماتورين الأخيرة. تقدّمت المدبّرة العجوز مرتجفة، ضامّة مسبحتها إلى صدرها. لم تقل شيئاً — لم تكن قط مرتاحة مع الكلمات — لكنها وضعت كيساً صغيراً من القماش يحوي زهوراً مجفَّفة من الحديقة التي كان ليوناردو يحبّها كثيراً.

قطع طرق على الباب هذه اللحظة الحميمة. دخل أربعة رجال — حمّالون محترفون من أخوية التائبين السود، مرتدين أثواباً طويلة قاتمة بغطاء رأس. خلفهم كان يقف الأب أنطوان، القسّيس الذي أدّى الأسرار الأخيرة لليوناردو.

— أيها السيدان، قال الكاهن بجلال، حان الوقت. يجب أن ينطلق الموكب إن أردنا الوصول إلى القديس فلورنتان قبل القدّاس.

أومأ فرانشيسكو موافقاً، عاجزاً عن الكلام.

رفع الحمّالون التابوت ووضعوه على أكتافهم. أنشد الأب أنطوان بصوت جهير: *«إن باراديزوم ديدوكانت تي أنجيلي...»* — *«فلترافقك الملائكة إلى الفردوس...»*

تشكّل الموكب. في المقدّمة سار اثنا عشر صبياً من جوقة الكنيسة بثوب أبيض، حاملين مباخر تنبعث منها أعمدة دخان معطَّر. خلفهم، الأب أنطوان، حاملاً صليباً كبيراً مذهَّباً للمواكب. ثم أتى الحمّالون بالتابوت. وأخيراً، في المؤخّرة، فرانشيسكو، وسالاي، وباتيستا، وماتورين، تبعهم حشد صغير من الخدم، والحرفيين، والجيران الذين عرفوا ليوناردو.

خرجوا من القصر في ضوء الصباح الرمادي. كان الضباب يرتفع ببطء، كاشفاً بشكل متقطّع المشهد المحيط. الحدائق التي أمضى فيها ليوناردو ساعات طويلة يراقب النباتات، والطيور، والحشرات. زقاق السرو الذي زرعه عند وصوله، قائلاً إنه يذكّره بتوسكانا. الجناح الصغير حيث كان يذهب أحياناً ليتأمّل عند غروب الشمس.

سلك الموكب الطريق النازل نحو المدينة. استمرّ ناقوس الموت يقرع، منظّماً مسيرتهم الجنائزية. كان سكّان أمبواز يخرجون من بيوتهم، منجذبين بصوت الأجراس.

وقفوا على عتبات أبوابهم، صامتين، ورؤوسهم مكشوفة علامة على الاحترام. صلّب بعضهم على أنفسهم. جثا آخرون. كانت امرأة عجوز تبكي علانية، ضامّة إلى صدرها نسخة رديئة عن عذراء لليوناردو اشترتها من بائع متجوّل وكانت تُبجّلها كأيقونة مقدّسة.

كان فرانشيسكو يراقب هؤلاء الناس البسطاء الذين كانوا يكرّمون رجلاً لم يعرفوه حقاً قط، لم يروه إلا من بعيد، لكنهم سمعوا عنه كأنه كائن في منتصف الطريق بين الإنسان والملاك. بالنسبة إليهم، لم يكن ليوناردو مجرّد رسام — كان ساحراً، وحكيماً، ونبياً ربما. كانوا يروون أنه كان يستطيع قراءة المستقبل في النجوم، وأنه سبر أسرار الحياة والموت.

عبر الموكب الجسر فوق نهر اللوار. كان النهر يجري ببطء، ومياهه الرمادية تعكس السماء الملبَّدة. أحبّ ليوناردو هذا النهر. *«الماء وسيلة الطبيعة»*، كان يقول. *«إنه في حركة دائمة، كالحياة نفسها»*.

على الضفة الأخرى، كان الحشد أكثر كثافة. تجمّع عشرات الأشخاص — حرفيون، وتجار، ونبلاء، ورجال دين. تعرّف فرانشيسكو على عدة وجوه مألوفة:

جان بيريال، رسام الملك، الذي انحنى بعمق أثناء مرور التابوت؛ بيار دو نافار، المهندس الملكي، الذي بكى من دون تحفّظ؛

ثم فجأة، حركة في الحشد. تنحّى الناس، وسقطوا على ركبهم. سرى همس: *«الملك! الملك!»*.

ظهر فرانسوا الأول، على صهوة حصان أبيض، محاطاً بحاشية مصغَّرة. كان يرتدي الحداد الكامل — مخملاً أسود، وعباءة سوداء، وحتى قبّعته المزيّنة بالريش كانت سوداء. كان وجهه، المرح والواثق عادة، منهاراً بالحزن. كانت عيناه محمرّتين. اتّضح أنه بكى.

نزل عن الحصان وتقدّم نحو الموكب. توقّف الحمّالون، وضعوا التابوت على الأرض بحذر. جثا الملك في تراب الطريق — ملك فرنسا، أقوى رجل في أوروبا، جاثياً في الوحل أمام تابوت رسام أجنبي.

— ليوناردو، همس بصوت مكسور. يا والدي. يا معلّمي. يا صديقي.

وضع يديه الاثنتين على التابوت، رأسه منحنياً، وبقي هكذا وقتاً طويلاً. رأى فرانشيسكو كتفيه ترتجفان. كان الملك يبكي.

أخيراً، نهض فرانسوا الأول. التفت نحو فرانشيسكو وسالاي:

— أيها السيدان، قال بصوت أجشّ، أريدكما أن تعلما أن فرنسا لن تنسى أبداً ما جلبه معلّمكما لها. أضاءت عبقريته بلاطي. أرشدت حكمته قراراتي. حضوره... كان حضوره يُدفئ قلبي كما تُدفئ الشمس الأرض.

توقّف، محارباً الدموع.

— أردت أن أعطيه كل شيء. قصراً. رواتب. تكريماً. لكن ما هذا، مقارنةً بما نقله إليّ؟ علّمني أن أرى. قبل أن أعرفه، كنت أنظر إلى لوحة ولا أرى سوى

صورة. الآن، أرى الضوء، والظلّ، والتركيب، والروح. فتح عينيّ على جمال العالم.

أحنى فرانشيسكو رأسه بعمق:

— تُكرّم جلالتكم ذكرى معلّمي بهذه الكلمات. كان يتحدّث عنكم غالباً بمودّة عميقة. كنتم بالنسبة إليه الابن الذي لم يُرزق به قط.

مسح الملك عينيه من دون خجل:

— وكان بالنسبة إليّ الوالد الذي تمنّيت أن أحظى به. مات والدي الحقيقي حين كنت في العشرين من عمري. ملأ ليوناردو ذلك الفراغ. حين كانت لديّ مشكلة صعبة، كنت أتوجّه إليه. حين كنت أشكّ، كنت أبحث عن حكمته.

التفت نحو التابوت للمرة الأخيرة:

— وداعاً يا أبي. ليتقبّل الله روحك بين القديسين والحكماء. عشت إنساناً، وستموت أسطورة.

امتطى الملك حصانه من جديد وأشار للموكب بمواصلة السير. لكنه لم يرحل. بقي هناك، على حصانه الأبيض، مراقباً الموكب الجنائزي وهو يستأنف مسيرته. وحين مرّ التابوت أمامه، خلع فرانسوا الأول قبّعته وانحنى بعمق — الملك ينحني أمام رعيّته.

استأنف الموكب طريقه نحو كنيسة القديس فلورنتان التي لحق بها الملك بعد قليل. كان الحشد يتبعه الآن، يتضخّم عند كل زاوية شارع. سار مئات الأشخاص خلف التابوت، مشكّلين موكباً أسود طويلاً يتلوّى في شوارع أمبواز.

شمخت كنيسة القديس فلورنتان على تلّة صغيرة، مطلّة على المدينة. كان صرحاً متواضعاً، لكن أنيقاً، بُني قبل قرنين بالطراز القوطي المتألّق. كانت أبراجها ترتفع

نحو السماء كصلوات من حجر. لمعت نوافذها الزجاجية الملوّنة، المضاءة من الداخل بمئات الشموع، كجواهر متعدّدة الألوان في رمادية النهار.

كانت أبواب الكنيسة مفتوحة على مصراعيها. في الداخل، كانت كل بوصة من الفضاء مشغولة. نبلاء بأزياء البلاط، وبورجوازيون بأفخر حللهم، وحرفيون بملابس عمل نظيفة، وفلاحون بأحذية خشبية — تجمّع الجميع ليقدّموا آخر تكريم لمن شرّف مدينتهم بحضوره. اتّخذ الملك مكانه في الصفّ الأول.

حمل الحمّالون التابوت حتى الكورس ووضعوه على منصة تذكارية مغطّاة بمخمل أرجواني. كان الهواء ثقيلاً بالبخور — عطر من المرّ واللبان الجاوي يرتفع في أعمدة نحو القِباب.

صعد الأب أنطوان إلى المنبر. كان رجلاً عجوزاً بوجه صارم لكنّه طيّب، أمضى أربعين عاماً يخدم هذه الأبرشية. رنّ صوته، لا يزال قوياً رغم عمره، في الكنيسة الصامتة:

— يا إخوتي، يا أخواتي، اجتمعنا اليوم لنقدّم آخر تكريم لرجل استثنائي. لم يكن ليوناردو دافنشي مجرّد فنان، ولا مجرّد عالم. كان باحثاً عن الحقيقة في عالم من الظلال. كان خالقاً للجمال في عالم من القبح. كان رجل إيمان في عالم من الشكّ.

توقّف، تاركاً كلماته تتردّد صداها.

— يقول البعض إنه كان هرطوقياً. إنه شرّح الموتى، مدنّساً بذلك معابد الله. إنه سعى إلى الطيران كالملائكة، متحدّياً بذلك إرادة الخالق. إنه طرح أسئلة كثيرة، وشكّ كثيراً، وبحث كثيراً.

جال الكاهن بنظره في الحشد:

— لهؤلاء، أجيب: ما هو الإيمان، إن لم يكن سعياً وراء الحقيقة؟ ما هي محبة الله، إن لم تكن تأمّل خليقته؟ أمضى ليوناردو دافنشي حياته يدرس عمل الله. كل عظمة رسمها، وكل عضلة حلّلها، وكل قانون طبيعي اكتشفه — لم يكن كل ذلك سوى صلاة نشوة طويلة أمام إبداع الله.

سرت همسات موافقة في أرجاء الكنيسة.

— كان يقول لي غالباً، تابع الأب أنطوان، *«يا أبتِ، حين أشرّح جسداً بشرياً وأرى التعقيد المثالي لآلياته، لا أملك إلا أن أُبهَر أمام الخالق الذي صمّم آلة كهذه. كل وتر موضوع بالضبط حيث يجب أن يكون. كل عظمة متشكّلة بالضبط كما يجب. هذا أوضح دليل على وجود الله»*.

توقّف الكاهن، متأثّراً بذكراه الخاصة.

— كان ليوناردو دافنشي رجل إيمان. ليس إيماناً أعمى، ليس إيماناً يقبل من دون فهم، بل إيماناً مستنيراً، إيماناً يسعى إلى معرفة الله من خلال أعماله. أوليس هذا أرقى أشكال التبتّل؟

رفع عينيه نحو الصليب الذي يسيطر على المذبح:

— قال لنا ربّنا يسوع المسيح: *«اطلبوا تجدوا»*. طلب ليوناردو طوال حياته. وماذا وجد؟ وجد الجمال. وجد الانسجام. وجد القوانين التي تحكم الكون. وفي كل ذلك، وجد الله.

جرى القدّاس بالجلال المطلوب. احتفل الأب أنطوان بالإفخارستيا بانتباه خاصّ لكل حركة، ولكل كلمة. علت الترانيم الغريغورية نحو القِباب، محمولة بأصوات نقية لصبيان الجوقة. *«دنّيس إيراي، دنّيس إلّا...»* — *«يوم الغضب، ذلك اليوم...»*

كان فرانشيسكو، جاثياً في الصفّ الأول، بالكاد يستمع. كان ذهنه شارداً، يعيد بلا انقطاع اللحظات الأخيرة مع معلّمه. اليد التي كانت تشدّ يده. الصوت الضعيف الذي كان يهمس بالتعليمات. العينان اللتان كانتا تنطفئان ببطء، كشمعة تصل إلى نهاية شمعها.

«*فرانشيسكو*»، قال ليوناردو في إحدى لحظات صفائه الأخيرة، «*ستجد نفسك وحيداً. هذا مصير كل التلاميذ — أن يصبحوا يتامى معلّميهم. لكن لا تحزن. لا أرحل حقاً. طالما تذكّرت تعاليمي، طالما نظرت إلى العالم بالعينين اللتين علّمتك أن تفتحهما، سأكون معك*».

بلغ القدّاس نهايته. حان وقت الدفن. رفع الحمّالون التابوت من جديد وحملوه نحو سرداب الكنيسة، قاعة مقنطرة تحت الكورس ترقد فيها بالفعل عشرات من وجهاء المنطقة.

كان النزول إلى السرداب صعباً. كان الدرج الحجري ضيقاً. كان على الحمّالين التقدّم بحذر كي لا يصطدم التابوت بالجدران. تبعهم فرانشيسكو وسالاي، حاملَين مشاعل تلقي ظلالاً راقصة على القِباب الحجرية.

كانت رائحة التراب الرطب والملح البارودي تعبق في السرداب. كان مكاناً بارداً، صامتاً، حيث بدا الزمن معلَّقاً.

حُفرت حفرة في أرضية الحجر. إلى جانبها كانت توجد لوحة كبيرة من الرخام الأبيض، محفورة بالفعل: «*هيك جاسيت ليوناردوس فينتشيوس، فلورنتينوس، بيكتور ريغيوس، كي أوبيت دي 2 ماي 1519*» — «*هنا يرقد ليوناردو دافنشي، الفلورنسي، رسام الملك، المتوفّى في 2 مايو 1519*».

وضع الحمّالون التابوت عند حافة الحفرة. أنشد الأب أنطوان صلاة الأعماق: «*دي بروفوندیس کلامافي أد تي، دومینیه...*» — «*من الأعماق أصرخ إليك، يا ربّ...*»

كانت هذه اللحظة التي كان فرانشيسكو يخشاها أكثر من كل شيء. اللحظة التي سينزل فيها التابوت في التراب. اللحظة التي سيصبح فيها كل شيء نهائياً، لا رجعة فيه، مطلقاً.

أمسك الحمّالون بالحبال وبدأوا ينزلون التابوت ببطء في الحفرة. كان الخشب يحتكّ بالحجر. رنّ الصوت في صمت السرداب كصرخة احتضار.

لم يستطع فرانشيسكو التمالك أكثر. انهار، ساقطاً على ركبتيه عند حافة الحفرة:

— لا! ليس بعد! أرجوكم، ليس بعد!

أمسك سالاي بكتفيه، محاولاً إمساكه، لكن فرانشيسكو تخبّط:

— لست جاهزاً! لم يكن لديّ وقت لأقول له كل ما أردت قوله! لم يكن لديّ وقت لأشكره على كل ما أعطاني إياه!

انكسر صوته بنحيب لا يُسيطَر عليه. انفجر كل الحزن الذي كتمه الآن بعنف تركه لاهثاً، فارغاً، مكسوراً.

جثا سالاي إلى جانبه، ضامّاً إياه بين ذراعيه. كان هو الآخر يبكي، لكن دموعه كانت صامتة، داخلية، مقبولة تقريباً.

— لم يكن بحاجة إلى كلمات، كان يحبّك ببساطة، قال سالاي

— كيف يمكنك أن تكون واثقاً؟

— لأنه قال لي ذلك. قبل أيام قليلة من وفاته قال لي: «*فرانشيسكو الخاص بي هو الأفضل بيننا جميعاً. أذكى مني، وأكثر انضباطاً، وأكثر استقامة. سيذهب أبعد مما ذهبت إليه أنا يوماً. وحين يصل إلى قمّة الجبل الذي بدأت تسلّقه، سيفكّر فيّ وسيبتسم*».

رفع فرانشيسكو رأسه، عيناه غارقتان بالدموع:

— قال ذلك؟

— نعم.

مرّ صمت طويل. كان التابوت قد بلغ الآن قاع الحفرة. كان الحمّالون يسحبون الحبال. بعد لحظات، سيبدأون بإلقاء التراب.

انحنى فرانشيسكو عند حافة الحفرة. نظر للمرة الأخيرة إلى تابوت البلوط الذي يحوي كل ما تبقّى مادياً من ليوناردو دافنشي.

— وداعاً يا معلّم، همس. شكراً على كل شيء. سأبذل قصارى جهدي كي أكون جديراً بك. سأحمي إرثك. سأنقل تعليمك. وحين تحين ساعتي، حين ألحق بك في العالم الآخر، آمل أن تكون فخوراً بما سأكون قد أنجزته.

أخذ حفنة تراب وألقاها في الحفرة. هبطت على غطاء التابوت بصوت مكتوم. ثم فعل سالاي المثل. ثم باتيستا. ثم كل من نزل إلى السرداب.

تقدّم حفّارو القبور وبدأوا عملهم. جرفة تلو جرفة، غطّى التراب التابوت. كان صوت التراب المتساقط على الخشب لا يُحتَمل — كل ارتطام كان وداعاً، وكل جرفة كانت تخلّياً.

لم يستطع فرانشيسكو تحويل نظره. كان يراقب التراب يرتفع، ماحياً تدريجياً التابوت من رؤيته. اختفى الغطاء أولاً. ثم الجوانب. ثم غُطّي كل شيء. لم يبقَ سوى كومة من تراب طازج، داكن، رطب.

دمّك حفّارو القبور التراب، وسوّوه، ثم وضعوا اللوحة الرخامية الثقيلة فوقه. رنّ صوت الحجر وهو يستقرّ كصوت رعد نهائي. انتهى الأمر. وجد ليوناردو دافنشي راحته الأبدية.

تلا الأب أنطوان الصلوات الأخيرة، وصلّب علامة الصليب الأخيرة، ثم دعا الحضور إلى الصعود. واحداً تلو الآخر، غادر الناس السرداب، صاعدين نحو ضوء النهار.

كان فرانشيسكو آخر من غادر. بقي هناك، واقفاً أمام القبر الطازج، عاجزاً عن اتّخاذ الخطوة الأولى التي ستعني القبول النهائي. خلفه، كان سالاي ينتظر بصبر.

— فرانشيسكو، قال برفق، يجب أن نرحل الآن. دعه يرقد بسلام.

— كيف أفعل ذلك؟ كيف أعيش من دونه؟

— كما علّمنا. بالمراقبة. بالإبداع. بالبحث عن الحقيقة. هذه طريقتنا في إبقائه حيّاً.

أغمض فرانشيسكو عينيه، أخذ نفساً عميقاً، ثم التفت نحو الدرج. كل درجة كان يصعدها كانت تُقرّبه من عالم الأحياء وتُبعده عن عالم الموتى. حين خرج إلى الكنيسة، بدا له ضوء النوافذ الزجاجية ساطعاً بشكل مؤلم بعد عتمة السرداب.

خلت الكنيسة. لم يبقَ سوى بعض المقرّبين — كان الملك قد انسحب، لكن عدة رجال بلاط كانوا حاضرين، إضافة إلى فنانين وعلماء عرفوا ليوناردو.

في اللحظة التي كان فرانشيسكو يستعدّ فيها للرحيل، اقترب منه رجل. كان إيطالياً عجوزاً ذا شعر أبيض، مرتدياً بأناقة. تعرّف عليه فرانشيسكو فوراً: دومينيكو ديلا بالّا، تاجر فنّ فلورنسي كان صديق شباب لليوناردو.

— يا سيد ميلزي، قال العجوز بلكنة توسكانية واضحة، اسمح لي أن أقدّم لك تعازيّ. كان ليوناردو... كان فريداً. لن يوجد آخر مثله أبداً.

— شكراً، يا سيدي. حضورك يُكرّم ذكراه.

— قمت بالرحلة من فلورنسا. كان عليّ أن أكون هنا. تقاسمت أنا وليوناردو شبابنا في ورشة فيروكيو. كنّا كإخوة.

أخرج الرجل من جيبه ميدالية ذهبية صغيرة:

— كانت هذه ملكاً لليوناردو حين كان شاباً. كانت هدية من والده، السيد بيارو. أعطانيها ليوناردو قبل أربعين عاماً، في ليلة شربنا فيها كثيراً وتحدّثنا كثيراً عن المستقبل. *«احتفظ بها يا دومينيكو»*، قال لي، *«وحين أموت، ادفنها معي»*. لم أنسَ هذا الوعد قط.

مدّ الميدالية لفرانشيسكو:

— أيمكنك أن تضعها قرب قبره؟ أنا كبير جداً في السنّ على النزول إلى السرداب.

أخذ فرانشيسكو الميدالية. كانت قطعة بسيطة، لكنها جميلة، تُمثّل ملاكاً منشور الجناحين.

— سأفعل. شكراً على احترام وعدك بعد كل هذه السنوات.

— أربعون عاماً. جرت أشياء كثيرة في أربعين عاماً. كنّا شبّاناً، أقوياء، مقتنعين أننا سنغزو العالم. نجح ليوناردو. أما أنا، فبقيت تاجراً. لكنني لم أتوقّف قط عن الإعجاب به.

نزل فرانشيسكو إلى السرداب من جديد، وحيداً هذه المرة. جثا قرب القبر الطازج وحفر بيديه ثقباً صغيراً في التراب الرخو. وضع فيه الميدالية، ثم غطّاها بعناية.

— هدية من شبابك، يا معلّم. لتحملك الملائكة نحو السماء.

حين صعد، كانت الكنيسة خالية. كانت الشمس قد اخترقت الغيوم وأشعتها المائلة تتسلّل عبر النوافذ الملوّنة، قاذفة بقعاً من الألوان على أرضية الحجر. أحمر، أزرق، أخضر، ذهبي — الألوان التي أحبّها ليوناردو كثيراً، الألوان التي أمضى حياته يفهمها ويُعيد إنتاجها.

في الخارج، على الساحة، تجمّع حشد صغير. أناس عاديون في معظمهم، جاؤوا ببساطة ليُقدّموا تكريمهم. وضع بعضهم زهوراً عند سفح الدرجات. أشعل آخرون

شموعاً. كانت امرأة تُغنّي مرثية بالإيطالية، أغنية توسكانية قديمة كان ليوناردو ينشدها أحياناً في الورشة.

توقّف فرانشيسكو على الساحة، مراقباً هذا المشهد. لم يعرف هؤلاء الناس ليوناردو قط. لم يفهموا نظرياته العلمية، ولم يستطيعوا أن يُقدّروا تماماً تعقيد لوحاته. لكنهم عرفوا، بمعرفة فطرية، أن رجلاً عظيماً رحل. وأرادوا أن يُخلّدوا هذا الرحيل، ولو بتواضع.

اقترب طفل من فرانشيسكو. كان صبياً صغيراً في العاشرة تقريباً، متّسخاً ورث الثياب، على الأرجح ابن فلاح. كان يحمل زهرة برّية — أقحوانة حقول بسيطة.

— يا سيدي، قال بخجل، أصحيح أن المعلّم ليوناردو كان يستطيع أن يرسم ملائكة جميلة جداً حتى إنها كانت تُبكي الناس؟

جثا فرانشيسكو ليكون في مستوى الطفل:

— هذا صحيح. كانت ملائكته جميلة جداً حتى إن المرء يشعر بأنها ستطير من اللوحة.

— وهل صحيح أنه كان يستطيع أن يصنع آلات تطير؟

— كان يحاول. لم ينجح قط، لكنه كان يحاول.

فكّر الطفل لحظة، ثم مدّ زهرته لفرانشيسكو:

— أيمكنك أن تضع هذه على قبره؟ هذا كل ما لديّ، لكنني أريده أن يعرف أنني أنا أيضاً أفكّر فيه.

أخذ فرانشيسكو الزهرة، متأثّراً بعمق:

— سيعرف. شكراً لك أيها الصغير.

عاد للمرة الأخيرة إلى الكنيسة، نزل إلى السرداب، ووضع الأقحوانة على القبر. بدت له هذه الزهرة البسيطة، التي أهداها طفل فقير، أثمن من كل التكريمات الرسمية، من كل المراثي، من كل النصب التذكارية التي يمكن أن تُقام.

لأن هذا كان، في النهاية، عبقرية ليوناردو الحقيقية: أن يكون قد لمس ليس فقط عظماء هذا العالم، بل أيضاً البسطاء. أن يكون قد خلق جمالاً عالمياً بحيث يستطيع طفل من الحقول أن يشعر به، حتى من دون أن يفهمه.

صعد فرانشيسكو. عند عتبة الكنيسة، التفت ونظر إلى الداخل. كانت الشموع لا تزال تحترق. كانت النوافذ الزجاجية تلمع. لكن شيئاً ما تغيّر. أصبح العالم مختلفاً الآن. أصغر. أقلّ إضاءة. أقلّ ثراءً بالإمكانيات.

خرج في بعد الظهر الآفل. تفرّق الحشد. لم يبقَ سوى سالاي وباتيستا ينتظرانه.

— انتهى الأمر، قال سالاي ببساطة.

— لا، أجاب فرانشيسكو. لم ينتهِ. لا يزال في بدايته.

نظر نحو الأفق، نحو قصر كلو–لوسيه الذي كان يُرى من بعيد على تلّته. هناك، في المخابئ السرّية، في العليّات، عند شركاء متكتّمين، كانت تنام الكنوز الحقيقية لليوناردو.

صادر مونكورنيه الأعمال الظاهرة. يمتلك الملك الآن الجوكندا واللوحات الأخرى. لكنّ فرانشيسكو نجح. كذب، وأخفى، وخدع، وزوّر. خالف القانون، وتحدّى الملك، وخاطر بالمشنقة. لكنه أنقذ الإرث.

والآن تبدأ المهمّة الحقيقية: صون هذه المخطوطات، ونسخها، ودراستها، ونقلها. جعل عبقرية ليوناردو تستمرّ حيّة عبر القرون.

— لنعد، قال أخيراً. لدينا عمل.

سلكا طريق العودة نحو كلو–لوسيه. كانت الشمس تغرب، قاذفة ظلالاً طويلة على الطريق. خلفهما، دقّت أجراس القديس فلورنتان مرة أخيرة، وتردّد صداها الحزين في الوادي.

نُنغ. نُنغ. نُنغ.

وداعاً يا ليوناردو. وداعاً يا معلّم. وداعاً يا أب.

لكن ليس وداعاً إلى الأبد. فالعبقرية لا تموت أبداً. تتحوّل، تُنقَل، تُبعث بأشكال أخرى. تشيخ اللوحات، وتتشقّق، وتُمحى. تصفرّ المخطوطات، وتتمزّق، وتضيع. لكنّ الأفكار، هي، خالدة.

وكانت أفكار ليوناردو دافنشي قد بدأت للتوّ رحلتها عبر الأبدية.

الفصل 3: سنوات التضليل

ميلانو، خريف 1519

مرّت ستة أشهر منذ موت ليوناردو دافنشي.

كان فرانشيسكو ميلزي يتأمّل أسطح ميلانو من نافذة الغرفة المتواضعة التي استأجرها قرب بورتا تيتشينيزيه. بدت له مدينة طفولته مألوفة وغريبة في آنٍ واحد. غيّر غياب ثلاثة عشر عاماً المدينة الدوقية: ارتفعت قصور جديدة، محلّة البيوت القروسطية القديمة؛ فرض الإسبان، السادة الجدد بعد الهزيمة الفرنسية عام 1515، بصمتهم المعمارية.

لم يعد بدافع الحنين، بل بدافع الضرورة. بعد جنازة ليوناردو، وبعد تفرّق خدم كلو–لوسيه، وبعد المواجهات مع عملاء الخزانة الملكية، أصبح البقاء في فرنسا خطيراً. كان كل يوم يقضيه في أمبواز يزيد خطر اكتشاف تفصيل من خديعتهما، أو تراجع شاهد، أو استئناف مونكورنيه لتحقيقه.

كانت رحلة العودة شاقّة. اضطرّ إلى نقل الأعمال المنتزَعة بتكتّم: القديس يوحنا المعمدان منزوعاً من إطاره وملفوفاً في أقمشة واقية، وليدا مع البجعة مغلَّفة بالمثل، وقبل كل شيء عشرات المخطوطات موزَّعة في عدة صناديق سفر. في ليون، أراد جمركيون مرتابون تفتيش أمتعته. اضطرّ إلى دفع رشوة كبيرة لتجنّب فتح الصناديق.

رافقه سالاي حتى ليون، ثم قرّر البقاء بضعة أسابيع في فرنسا *«لتسوية شؤون شخصية»* — في الواقع، لبيع بعض الرسوم الثانوية بتكتّم وجني المال من دون مشاركته. تركه فرانشيسكو يفعل ذلك، منهكاً جداً على المشاجرة. تدهورت صداقتهما، إن كانت قد وُجدت حقاً يوماً، منذ موت المعلّم. كان كل منهما يرى في الآخر شريكاً مزعجاً بدلاً من رفيق نضال.

استقرّ الآن في ميلانو، وكان عليه أن يعيد بناء حياته. كان في التاسعة والعشرين من عمره، من دون أي حرفة سوى تلمذته لدى معلّم راحل، وثروة من أعمال فنية لم يستطع بيعها علناً من دون لفت انتباه السلطات الفرنسية أو الإيطالية.

توفّي والده، القبطان جيوفاني ميلزي، قبل عامين، تاركاً له راتباً تقاعدياً صغيراً وبعض الأملاك الزراعية قرب فابريو دادّا. كان هذا كافياً للعيش بتواضع، لكن غير كافٍ للحفاظ على المرتبة الاجتماعية التي يطمح إليها. كان إخوته، الذين يديرون معظم الإرث العائلي، ينظرون إليه بمزيج من الشفقة والاحتقار: ماذا يمكن أن يُتوقّع من رجل بدّد شبابه في اتّباع رسام أجنبي بدلاً من بناء مسيرة في الجيش أو الإدارة؟

كان عليه أن يجد بسرعة وسيلة لتحويل إرثه غير الشرعي إلى مال من دون إثارة الشبهات. لكن كيف يبيع هذه القطع من دون أن يستطيع تقديم وثائق تُثبت أصلها القانوني؟ كيف يشرح وجودها في حوزته بينما تعرف ميلانو كلها أن المعلّم مات في فرنسا وأن أملاكه جُردت من قِبل عملاء الملك؟

جاء الجواب من مصدر غير متوقّع.

التحالف مع بومبيو

في صباح من نوفمبر 1519، قدّم نفسه شابّ أنيق باسم بومبيو بونيني، نحّات وجامع هاوٍ. كان بومبيو في الرابعة والعشرين من عمره، ذو وجه أنيق بملامح

منتظمة، وتلك الثقة الطبيعية للناس المولودين في اليسر. كان والده، ليوني بونيني، نحّاتاً مشهوراً في خدمة الإمبراطور شارلكان، وورث عنه موهبته الفنية وعلاقاته في بلاطات أوروبا.

— يا سيد ميلزي، قال بعد التحيات المعتادة، تسبقك سمعتك. يُقال إنك كنت التلميذ المفضّل لدى العظيم ليوناردو، وأنك ورثت أعماله الأثمن، وأنك تحوز مخطوطات تحوي أسراراً لم يرها العالم قط.

أجاب فرانشيسكو بحذر، مترقّباً:

— تبالغ الشائعات دائماً، يا سيدي. تشرّفت بخدمة المعلّم لسنوات عديدة، هذا صحيح. أما بشأن إرث، فهو أكثر تواضعاً بكثير مما ترويه الألسنة.

— متواضع؟ كرّر بومبيو بابتسامة متشكّكة. سمعت عن دراسات مذهلة، ورسائل عن طيران الطيور، ورسوم آلات استثنائية. لا يبدو لي هذا متواضعاً.

فهم فرانشيسكو أن عليه تغيير تكتيكه. كان بومبيو هذا مطّلعاً جيداً. بدلاً من الإنكار، الأفضل أن يستطلعه.

— وماذا لو كانت هذه الشائعات صحيحة؟ ما مصلحتك؟

— مصلحتي مزدوجة. أولاً، إعجاب صادق بعبقرية ليوناردو. رأيت بعض أعماله في روما وفلورنسا، وأدهشني جمالها. ثانياً، مصلحة أكثر... عملية. أعرف جامعين في كل أنحاء أوروبا سيدفعون ثروات لاقتناء أعمال أصلية للمعلّم. لكن هؤلاء الجامعين متطلّبون. يريدون ضمانات، وأدلّة على المصدر.

— تقترح أن تساعدني في البيع؟

— أقترح أن أصبح وسيطك. لديك الأعمال، لكن ليس لديك العلاقات. لديّ العلاقات، لكن ليست لديّ الأعمال. معاً، نستطيع أن نبني شيئاً مربحاً جداً.

درس فرانشيسكو الشاب. هل يمكن الوثوق به؟ أم أنه فخّ؟ عميل سرّي أرسله الفرنسيون أو السلطات الميلانية لكشف أمره؟

قرّر أن يخاطر، كاشفاً بالضبط بما يكفي لاختبار ردّة فعل بومبيو.

— أنت محقّ. أحوز عدة أعمال مهمّة. لكنّ مصدرها... معقّد. مات المعلّم في فرنسا، والقوانين الفرنسية بشأن ميراث الأجانب قاسية جداً. استطعت إنقاذ بعض القطع، لكن ليس كلها. ولا أملك وثائق رسمية لكل ما أنقذته.

— ظننت ذلك. لهذا بالضبط تحتاج إليّ. أستطيع أن أُنشئ الوثائق اللازمة، وأُقيم سلسلة مصدر مقنعة، وأجد المشترين المناسبين الذين لن يطرحوا أسئلة محرجة كثيرة.

— تُنشئ الوثائق؟ تتحدّث عن أوراق مزوّرة؟

— كنت لأتجنّب هذا المصطلح القاسي جداً. لنقل بالأحرى إنني أستطيع أن... أعيد بناء تاريخ هذه الأعمال بطريقة تُرضي المتطلبات القانونية مع حماية مصالحك المشروعة. ففي النهاية، هذه الأعمال ملك لك أخلاقياً، أليس كذلك؟ خدمت المعلّم لسنوات. القانون الفرنسي هو من يمنعك من الاستمتاع بها.

أعجبت هذه المغالطة فرانشيسكو.

— كم ستكون عمولتك؟

— عشرون بالمئة من ثمن البيع. وإمكانية الوصول أحياناً إلى المخطوطات لدراساتي الفنية الخاصة. أنا نحّات. تهمّني دراسات ليوناردو التشريحية كثيراً.

كانت عشرون بالمئة نسبة كبيرة. لكنّ وجود شريك متّصل جيداً يستحقّ هذا الثمن. وبدا بومبيو يفهم بحدس دقائق الموقف.

— حسناً، وافق فرانشيسكو. لكن بشروط معيّنة. أولاً، تكتّم مطلق. ثانياً، لن تبيع شيئاً من دون موافقتي المسبقة. ثالثاً، بعض القطع ليست للبيع، مهما حدث.

— القديس يوحنا المعمدان؟

قفز فرانشيسكو.

— كيف تعرف أنني أحوزه؟

— استنتاج بسيط. كان المعلّم يعمل على هذه اللوحة في سنواته الأخيرة. كانت في ورشته في كلو–لوسيه. مع ذلك، وفق ما سمعت، لم تُدرَج في جرد العملاء الفرنسيين. أين كان يمكن أن تذهب، إن لم تكن في حوزتك؟

فهم فرانشيسكو أنه يتعامل مع عقل ثاقب بشكل لافت. لم يكن بومبيو مجرّد وسيط بسيط. كان محلّلاً موهوباً بذكاء استثنائي.

— حسناً. أحوز القديس يوحنا المعمدان. وأنت محقّ، إنه ليس للبيع. أبداً.

— أحترم ذلك. هناك أعمال لا تُباع، لا يمكن أن تُباع. إنها ثمينة جداً، مثقلة جداً بالمعنى الشخصي.

ختم هذا الفهم الحدسي تحالفهما. في الأيام التالية، أظهر فرانشيسكو لبومبيو حجم كنزه. بقي النحّات الشاب فاغراً فاه أمام المخطوطات، مسحوراً بدقّة الرسوم، مذهولاً بجرأة الملاحظات.

— أتدرك ماذا تحوز؟ صاح وهو يتصفّح كرّاسة تُظهر تشريحات القلب! هذه الرسوم متقدّمة على العلم الطبي الحالي بقرون عدة! لو نُشرت هذه الأعمال، لهزّت الطبّ!

— لهذا كان يجب إنقاذها، أجاب فرانشيسكو بشغف. كرّس المعلّم خمسة وعشرين عاماً لهذه الأبحاث. لم أستطع أن أدع هذه الكنوز تُصادَر من قِبل عملاء ملكيّين جهلة كانوا سيرمونها أو يبيعونها لتجّار ورق.

— لست انتهازياً سرق إرثاً. أنت حارس أنقذ كنزاً. هذا مختلف جداً.

عزّز موافقة بومبيو هذا التمييز الأخلاقي الذي كان فرانشيسكو يجاهد للحفاظ عليه في ذهنه. نعم، سرق. لكنه سرق من أجل قضية عادلة. كانت جريمة فاضلة، إن كان بإمكان شيء كهذا أن يوجد.

المبيعات الأولى

شرع بومبيو في العمل. بدأ بتحديد القطع التي يمكن بيعها من دون خطر: رسوم ثانوية أنشأها ليوناردو في شبابه، وبعض الدراسات التحضيرية لأعمال لم تُنجَز قط، ونسخ صنعها فرانشيسكو نفسه بتوجيه المعلّم ويمكن تقديمها كأصول.

لكل عملية بيع، كان يبتكر قصة مصدر معقولة. مثلاً، لرسم حصان يقفز، ادّعى أن ليوناردو أهداه لنبيل ميلاني عام 1505، وأن هذا النبيل أوصى به لابنه، وأن فرانشيسكو اشتراه من ذلك الابن. حتى إنه صنع رسائل مزيّفة تشهد على هذه المعاملة الوهمية.

جرت أول عملية بيع كبيرة في مارس 1520. كان المشتري الكاردينال بيرناردو دوفيتسي دا بيبيينا، هاوي فنّ كبير وجامع خبير. اقترح عليه بومبيو سلسلة من اثنتي عشرة رسمة نباتية — أعمالاً حقيقية لليوناردو، لكن ثانوية — مقابل ثلاثمئة دوكات ذهبي.

فحص الكاردينال الرسوم طويلاً، مقارناً إياها بأعمال أخرى لليوناردو يحوزها. اقتنع بأصالتها، فقبل الثمن. شعر فرانشيسكو، الذي كان حاضراً المعاملة، بارتياح هائل. جرت عملية البيع الأولى من دون عوائق. كان النظام يعمل.

في السنتين التاليتين، نظّما نحو عشر عمليات بيع مماثلة. كانت كل معاملة مُعدّة بعناية، وكان المشتري مختاراً بدقّة: جامعون معروفون بتكتّمهم، ونبلاء أكثر اهتماماً بهيبة امتلاك عمل لليوناردو من التفاصيل القانونية للمصدر، وتجار فنّ يفضّلون عدم التشكيك كثيراً في أصل القطع المعروضة عليهم بسعر جيد.

استعمل فرانشيسكو المال ليُعيد الاستقرار في ميلانو. استأجر أولاً شقّة أكبر في حي بريرا، ثم اشترى في عام 1522 قصراً صغيراً في حيّ بورتا فيرتشيلينا، قرب كنيسة سانتا ماريا ديلي غراتسيه حيث رسم ليوناردو عشاءه الأخير الشهير قبل عقود.

كان هذا القصر، رغم تواضعه مقارنة بمساكن العائلات الميلانية الكبرى، يناسب احتياجاته. ضمّ نحو عشر غرف موزَّعة على ثلاثة طوابق، وإسطبلات تتّسع لأربعة خيول، وحديقة داخلية مزيّنة بنافورة، وقبل كل شيء عليّة واسعة هيّأها ورشة سرّية. هناك كان يصون أثمن كنوزه: القديس يوحنا المعمدان، والمخطوطات التشريحية، والرسائل عن الطيران.

بالتوازي مع هذه المعاملات التجارية، عمل على تعزيز مكانته الاجتماعية. تعهّد علاقاته بشخصيات نافذة في ميلانو: الحاكم الإسباني، والأسقف، وقائد الحامية، ورؤساء العائلات النبيلة الكبرى في ميلانو. كان يُهدي بسخاء رسوماً ثانوية لليوناردو لهذه الشخصيات، خالقاً ممنونين له سيكونون شاكرين له في حال المصاعب. شارك في المناسبات الاجتماعية، والاستقبالات، والمراسم الدينية. جعل نفسه لا غنى عنه كخبير في الفن والآثار.

كانت استراتيجية بناء الشبكات هذه لا تقلّ أهمية عن تزوير الوثائق. في مجتمع كانت فيه العلاقات الشخصية غالباً أهمّ من القانون المكتوب، كان امتلاك أصدقاء أقوياء أفضل حماية.

في عام 1523، أقدم على خطوة حاسمة: طلب وحصل على منصب مستشار لدى الحاكم الإسباني لميلانو، ألفونسو دافالوس. كان هذا المنصب فخرياً — كان عليه أن يُبدي رأيه في اقتناءات الحاكم الفنية وينظّم أحياناً معارض في القصر الدوقي. لكنه منحه صفة رسمية حمته من اتهامات محتملة بالنصب أو الحيازة السرقة. من سيجرؤ على اتهام مستشار الحاكم ببيع أعمال مسروقة؟

عودة سالاي

في سبتمبر 1523، ظهر سالاي من جديد في ميلانو. فوجئ فرانشيسكو، الذي لم يره منذ افتراقهما في ليون قبل أربع سنوات، بتحوّله. في الثالثة والأربعين من عمره، فقد سالاي كل جماله المخنّث. كان وجهه متورّماً من الكحول، وعيناه محمرّتين من قلّة النوم، وثيابه مهملة. بدا وكأنه شاخ عشرين عاماً.

— فرانشيسكو! صاح وهو يدخل القصر من دون انتظار دعوة. يا لها من فرحة أن أراك من جديد! علمت أنك استقررت جيداً هنا. قصر جميل، ومكانة محترمة. نجحت!

انزعج فرانشيسكو من هذا التطفّل. أجلس سالاي في الصالون وقدّم له النبيذ.

— ماذا تفعل في ميلانو؟ أين كنت طوال هذه السنوات الأربع؟

— في كل مكان تقريباً، أجاب سالاي بغموض. في فرنسا أولاً، حاولت بيع بعض الأعمال. ثم في البندقية، وفلورنسا، وروما. حاولت أن أُثبّت نفسي رساماً مستقلاً، لكن من دون نجاح. تندر الطلبيات حين لا نملك سمعة المعلّم.

كان فرانشيسكو يراقب صديقه السابق بمزيج من الشفقة والحذر. خمّن أن سالاي جاء يستجدي المال.

— والآن، ما مشاريعك؟

— كنت أفكّر في الاستقرار في ميلانو. أستعيد التواصل مع علاقاتي القديمة. ربما نستطيع أنا وأنت أن نتعاون من جديد؟ كما في زمن المعلّم؟

— تتعاونان كيف؟

— حسناً، لديك الإرث. لديّ العلاقات. معاً، نستطيع بيع القطع المهمّة. القديس يوحنا المعمدان، مثلاً. أو ليدا. تساوي هذه الأعمال ثروة!

سرت قشعريرة في فرانشيسكو. كان سالاي يظنّ أنه لا يزال يحوز كل الأعمال المنتزَعة عام 1519. كان يجهل أنه باع بعضها بالفعل عبر بومبيو.

— ليدا لم تعد في حوزتي، كذب. أهديتها لجامع بندقي مقابل معروف.

— أهديتها؟ استاء سالاي. أهديت عملاً يساوي مئات الدوكات؟

— كان ذلك ضرورياً للحصول على حمايات معينة. ستفهم لو عرفت التفاصيل.

نظر إليه سالاي بشكّ.

— هناك شيء لا تخبرني به. نظّمت عملية من دوني، أليس كذلك؟ وجدت وسيلة لبيع الأعمال وأبقيتني خارجها!

— افترقنا قبل أربع سنوات، ردّ فرانشيسكو بإعياء. طوال هذا الوقت، لم تُظهر أي علامة حياة. لم ترسل لي أي رسالة، ولا أي كلمة. ماذا كنت تنتظر؟ أن أبقى مكتوف الأيدي أنتظر عودتك؟

— كنّا شريكين! صاح سالاي. سرقنا هذه الأعمال معاً! لم يكن لك الحقّ في بيعها من دوني!

أرعب هذا التصريح المتهوّر، المُدلى به بصوت عالٍ في صالون يستطيع أي شخص أن يسمعه فيه، فرانشيسكو. هرع نحو الباب ليتأكّد أن لا أحد يستمع، ثم عاد نحو سالاي بغضب:

— اصمت أيها الأحمق! أتريد أن يُقبَض علينا كلينا؟ لن تنطق هذه الكلمات مرة أخرى أبداً، أتسمعني؟ أبداً!

صمت سالاي، مرتبكاً من حدّة فرانشيسكو. لكن ظلّت نظرته مثقلة بالاستياء.

— أحتاج إلى المال. لديّ ديون. ديون كثيرة. إن لم أسدّد بسرعة، سأواجه مشاكل كبيرة.

تنهّد فرانشيسكو. أخرج كيساً يحوي خمسين دوكات ومدّه لسالاي.

— هذا ما يكفيك بضعة أشهر. لكن هذه آخر مرة أعطيك فيها مالاً من دون مقابل. إن أردت المزيد، سيتعيّن عليك العمل. أستطيع أن أجد لك بعض طلبيات النسخ، إن كنت مهتمّاً.

أمسك سالاي بالكيس بشره، يزنه ليُقدّر محتواه. مخيّباً بالمبلغ، وضعه في حزامه.

— خمسون دوكات؟ هذا كل شيء؟ تعيش في قصر، ولديك خدم، وتعطيني خمسين دوكات تعيسة؟

— هذا أكثر مما تستحقّ. وإن واصلت الشرب والقمار كما تفعل، لن تدوم هذه الخمسون دوكات حتى شهراً واحداً.

على هذه الكلمات اللاذعة، غادر سالاي القصر مغلقاً الباب بعنف. بقي فرانشيسكو شارداً. مثّلت عودة سالاي تهديداً. كان الرجل غير متوقّع، مدمناً على الكحول، مثقلاً بالديون. قد يكشف، في لحظة ضعف أو غضب، سرّهما. كان يجب مراقبته عن كثب.

تحدّث عن ذلك مع بومبيو أثناء عشائهما.

— شريكك السابق خطير. يجب إما شراؤه لضمان صمته، أو... التخلّص منه.

— التخلّص منه؟ كرّر فرانشيسكو، مصدوماً. تتحدّث عن قتله؟

— أتحدّث عن تحييد تهديد. لكن توجد وسائل أخرى غير القتل. يمكن مثلاً سجنه بسبب الديون. أو طرده من ميلانو من قِبل السلطات. أو إيجاد وظيفة له في مكان بعيد من هنا، حيث لن يستطيع أن يضرّنا بعد الآن.

تأمّل فرانشيسكو هذه الاقتراحات. لم تعجبه فكرة سجن سالاي، لكن بومبيو كان محقّاً: كان *«الشيطان الصغير»* يمثّل تهديداً يجب إدارته.

اختار حلّاً وسطاً. استعمل علاقاته مع الحاكم ليُعيّن سالاي رساماً رسمياً لمدينة صغيرة في المقاطعة، كريما، على بعد خمسين كيلومتراً من ميلانو. كان المنصب

مأجوراً بتواضع، لكنه منتظم، وكان يُبعد سالاي عن العاصمة اللومبارديّة حيث قد يُسبّب مشاكل.

قبل سالاي، الذي لم يكن أمامه خيار كبير، هذا التعيين. لكن فرانشيسكو كان يعلم أنها مجرّد مهلة. عاجلاً أم آجلاً، سيعود.

انحدار سالاي

بعد ثلاثة أشهر، في ديسمبر 1523، ظهر سالاي من جديد في القصر. كان تدهوره واضحاً. لم يعد وجهه متورّماً بالكحول فقط، بل كان أيضاً منهكاً بمرض كامن. كانت يداه ترتجفان باستمرار، وأصبح صوته أجشّاً، وكان يسعل بانتظام مقلق.

أدخله فرانشيسكو بتكتّم عبر باب الخدمة كي لا يراه الخدم. قاده إلى مكتبه.

— سالاي، لا يمكنك أن تستمرّ هكذا. تُدمّر نفسك.

— أُدمّر نفسي؟ كرّر بضحكة مريرة تحوّلت إلى نوبة سعال. سرّنا هو من يُدمّرني! أعيش كل يوم في الخوف. الخوف من اكتشاف ما فعلناه. الخوف من أن يُعذّبوني ليجعلوني أعترف. الخوف من أن ينتهي بي الأمر مشنوقاً في الساحة العامة!

— لن يعذّبك أحد. نحن في أمان.

— في أمان؟ صاح سالاي. أنت ربما! أنت وقصرك الجميل. أما أنا؟ ماذا كسبت من كل هذا؟ الفقر، والوحدة، والعار!

— أحتاج إلى المال. الكثير من المال. لديّ ديون... ديون كبيرة. إن لم أدفع، سيقتلونني.

— من سيقتلك؟

— أناس... أناس خطيرون. مرابون. اقترضت لأقامر، وخسرت. الآن يريدون سداداً بفوائد فاحشة.

أجرى فرانشيسكو حساباً سريعاً في ذهنه. كانت هذه المرة الثالثة التي يسدّد فيها ديون سالاي. في كل مرة، كان سالاي يعد بأنها الأخيرة، وأنه سيتغيّر، وأنه سيتوقّف عن الشرب والقمار. وفي كل مرة، بعد بضعة أشهر، كان يعود بديون جديدة.

— كم تدين هذه المرة؟

— مئة دوكات، همس سالاي من دون أن يجرؤ على النظر إليه.

— مئة دوكات! صاح فرانشيسكو. هذه ثروة! كيف استطعت أن تُراكم ديناً كهذا؟

— ظننت أنني أستطيع أن أربح... ظننت أن حظّي سيتغيّر...

نهض فرانشيسكو ومشى نحو النافذة، ظهره لسالاي. كان يفكّر بشدّة. مئة دوكات، مبلغ كبير. لكنه أيضاً ثمن الصمت. لو رفض، قد يفعل سالاي، يائساً، أي شيء. بما في ذلك كشف سرّهما للسلطات آملاً الحصول على رأفة مقابل اعترافه.

التفت فرانشيسكو.

— سأدفع ديونك. مرة أخيرة. لكن بشرط.

— أيّ شرط؟ سأل سالاي بأمل مفاجئ.

— أن تغادر ميلانو. نهائياً. وجدت لك عملاً، لكنك تركته بين عشية وضحاها. سأشتري لك الآن بيتاً صغيراً في قرية نائية، بعيداً من هنا. ستعيش فيه بهدوء براتب تقاعدي متواضع، لكن كافٍ لاحتياجاتك. لكنك لن تعود إلى ميلانو أبداً. لن تتواصل معي بعد الآن. انتهت قصتنا.

فتح سالاي فمه ليحتجّ، ثم أغلقه. فهم أن هذا أفضل عرض سيحصل عليه. وربما كان فرانشيسكو محقّاً. ربما الابتعاد عن ميلانو، عن إغراءاتها، عن ذكرياتها، سيسمح له بالبدء من جديد.

— حسناً. سأرحل. لكن... البيت، هل سيكون باسمي؟ سأكون مالكه؟

— سيكون باسمك. سأجعل موثّقاً يُعدّ سندات الملكية. ستستطيع العيش فيه حتى وفاتك، وبعدها ستستطيع أن توصي به لمن تشاء.

وفى فرانشيسكو بوعده. سدّد ديون سالاي عند المرابين الميلانيين. اشترى بيتاً صغيراً في قرية باجيو، على بعد عشرة كيلومترات من ميلانو. أنشأ راتباً سنوياً قدره أربعة وعشرون دوكات يُدفع لسالاي كل ثلاثة أشهر عبر موثّق.

ظنّ فرانشيسكو أنه لن يراه مرة أخرى أبداً.

موت سالاي

بعد ستة أشهر، في يونيو 1524، تلقّى فرانشيسكو رسالة غير متوقّعة. كان سالاي يطلب مقابلته بإلحاح. كانت الرسالة، المكتوبة بيد مرتجفة، تُوحي بأنها مسألة حياة أو موت.

تردّد فرانشيسكو. لم تكن لديه أي رغبة في رؤية سالاي من جديد، في الغرق مجدداً في ذلك الماضي الذي كان يجاهد لنسيانه. لكنّ الفضول تغلّب.

أرسل رسالة رداً، محدّداً موعداً في حانة متكتّمة خارج أسوار المدينة، بعيداً عن الأنظار الفضولية.

حين وصل سالاي، صُدم فرانشيسكو. كان الرجل الواقف أمامه لا يُعرَف. في هذا الوقت القصير، أصبح شبحاً حياً: منحني الظهر، هزيلاً، بشرته شمعية،

وعيناه غائرتان في محجريهما. كان يسعل باستمرار، سعالاً بلغمياً عميقاً كان مؤلماً سماعه، يبصق أحياناً دماً في منديل ملطَّخ بالفعل.

— سالاي... همس فرانشيسكو. يا إلهي، ماذا حدث لك؟

— حدثتني الحياة. الحياة التي اخترناها تلك الليلة من مايو 1519.

استقرّا في زاوية مظلمة من الحانة. طلب فرانشيسكو نبيذاً وطعاماً، لكن سالاي لم يلمس تقريباً أي شيء. شرب النبيذ بشره، لكنه رفض الأكل.

— أموت. يقول الأطباء إن لديّ مرضاً في الرئتين. بقي لي أشهر قليلة، ربما عام واحد على الأكثر.

لم يعرف فرانشيسكو ماذا يجيب. ماذا يُقال لرجل يُعلن موته الوشيك؟

— أنا آسف.

— لا تكن آسفاً. عشت الحياة التي اخترتها. شربت، وقامرت، وأحببت من أردت. لا أندم على شيء... أو بالأحرى، لديّ ندم واحد فقط.

— أيّ ندم؟

— ندم تلك الليلة. السرقة. الكذب. كل ذلك.

شرب سالاي جرعة طويلة من النبيذ قبل أن يتابع:

— لسنوات، أقنعت نفسي أننا فعلنا الصواب. أننا أنقذنا إرث المعلّم. أن جرمنا كان مبرَّراً بقضية أسمى. لكن الآن وقد اقترب الموت، الآن وعليّ أن أواجه الحكم الإلهي، أتساءل إن كنّا قد سرقنا ببساطة من أجل إثرائنا الشخصي.

— لم نسرق لنُثري أنفسنا. أنقذنا أعمالاً كانت ستضيع!

— إذن لماذا بعت قطعاً كثيرة؟ لماذا تعيش في قصر فاخر؟ لماذا لديك مكانة اجتماعية محسودة؟ كل هذا، حصلت عليه بفضل السرقة.

لم يستطع فرانشيسكو أن ينكر هذا الاتهام. كان صحيحاً. استفاد مادياً من السرقة. لكنه أيضاً صان كنوزاً لا تُقدَّر بثمن. تعايشت الحقيقتان معاً.

— ماذا تريد منّي يا سالاي؟ أن أعترف علناً؟ أن أُعيد كل شيء؟ فات الأوان على ذلك.

— لا أريد شيئاً منك. أردت فقط أن أراك مرة أخيرة. أن أنظر في عينيك.

سعل طويلاً.

— أردت أيضاً أن أحذّرك. حين أموت، سيأتي قسّيس على الأرجح ليراك. أنوي أن أعترف قبل أن أموت. سأروي كل شيء للقسّيس. السرقة، والوصية المزوَّرة، كل شيء.

— ستفضحني؟

— لا، سرّ الاعتراف مطلق. لن يستطيع القسّيس أن يكشف شيئاً. لكنني أردتك أن تعرف أن شخصاً آخر سيعرف الحقيقة. أن سرّنا لن يموت تماماً معي.

لم يعرف فرانشيسكو إن كان عليه أن يشعر بالارتياح أم بالقلق. كان سرّ الاعتراف مطلقاً نظرياً. لكن عملياً، كان القساوسة بشراً، لهم ضعفهم وإغراءاتهم. هل يمكن لسرّ متفجّر كهذا أن يبقى محبوساً في صمت الاعتراف؟

— سالاي، لا تفعل ذلك. احفظ السرّ حتى النهاية. من أجل المعلّم. من أجل إرثه.

— من أجل المعلّم؟ المعلّم ميت. لا يهتمّ بأكاذيبنا الآن. لا، إن اعترفت، فذلك من أجل روحي أنا، لا من أجل المعلّم.

أفرغ كأسه من النبيذ ونهض بمشقّة.

— وداعاً يا فرانشيسكو. لن نلتقي مرة أخرى في هذه الحياة. آمل أن نُغفَر في الأخرى لما فعلناه.

راقبه فرانشيسكو يرحل متعثّراً في ليل ميلانو. كان هذا لقاءهما الأخير.

بعد ثلاثة أسابيع، علم فرانشيسكو أن سالاي مات بطريقة مريبة. عُثر على جثته مخترقة بسهم قوس نبال. أشاعت الشائعة أنه كان ضحية شجار في أعقاب سهرة سُكر.

لم يحضر فرانشيسكو الجنازة. أرسل إكليل زهور وطلب قدّاساً على راحة روح الفقيد، لكنه رفض أن يُرى في حداد على سالاي. كانت أسئلة كثيرة جداً ستُطرَح. روابط كثيرة جداً ستُقام.

جاء بومبيو، الذي حضر الجنازة بتكتّم، ليُقدّم تقريره.

— كان هناك نحو عشرة أشخاص. فلاحون من القرية، وامرأة عجوز كانت تعتني به، والقسّيس. لا أحد مهمّ. لا أحد يعرفك.

— القسّيس... هل اعترفه؟

— على الأرجح. لكن سرّ الاعتراف مقدّس.

— أعلم. لكنني أتساءل ماذا قال له بالضبط. إن كان أعطاه اسمي. إن كان ذكر تفاصيل تسمح بالعثور عليّ.

وضع بومبيو يداً على كتف صديقه.

— حتى لو روى كل شيء، لا يستطيع القسّيس فعل شيء به. مقيّد بقسمه. القسّيس على الأرجح رجل ريفي بسيط لا يفهم شيئاً في دسائس ميلانو الفنية.

أراد فرانشيسكو أن يصدّق ذلك. لكنه عاش أسابيع في قلق أن يأتي رجل دين يطرق بابه ليستجوبه. لم يحدث ذلك قط.

مع موت سالاي، وجد فرانشيسكو نفسه الحارس الوحيد للسرّ الأصلي. كان بومبيو يعرفه، صحيح، لكنه لم يشارك في السرقة الأولى. كان شريكاً لاحقاً، لا فاعلاً.

أثقلت هذه الوحدة عليه. كان الآن في الرابعة والثلاثين من عمره. مضى نصف حياته. بنى صرحاً اجتماعياً مهيباً، لكنّ هذا الصرح كان مبنياً على أسس كاذبة.

تزوير الوصية

كان عامَا 1524 و1525 عامَي توطيد. أتقن فرانشيسكو حياته المزدوجة: فنان محترم نهاراً، ومزوّر حذر ليلاً. كان يبيع أعمالاً ثانوية لتمويل نمط حياته مع الحفاظ بغيرة على القطع الرئيسية.

خلال هذه الفترة، بدأ في تزوير الوصية المزيّفة التي ستصبح لاحقاً حجر الأساس في دفاعه ضد اتهامات السرقة. تطلّب هذا العمل صبراً ومهارة استثنائيَين.

احتفظ بعدة رسائل أصلية لليوناردو، مكتوبة خلال سنواتهما المشتركة. درس بدقّة خطّ المعلّم: شكل الحروف، وضغط القلم، والميل المميّز، والاختصارات المفضّلة. أمضى أسابيع يتمرّن، مغطّياً عشرات الأوراق بمحاولات فاشلة، حتى استنسخ خطّ ليوناردو بدقّة مذهلة.

حُررت الوصية على رقّ قديم اشتراه من تاجر متخصّص. أضفى على الحبر شيخوخة اصطناعية بإضافة مركّبات كيميائية تُسرّع أكسدته. كانت النتيجة وثيقة تبدو وكأنها كُتبت عام 1519 وصينت لستة أعوام في ظروف طبيعية.

كان المحتوى معايراً بعناية. تحرّى عن الصيغ القانونية المستعملة في الوصايا الفرنسية. استشار سرّاً موثّقاً صديقاً بحجّة رغبته في تحرير وصيته الخاصة. درس وصايا أخرى لفنانين إيطاليين ماتوا في فرنسا.

كانت النتيجة وثيقة تبدو صحيحة. كان ليوناردو يُوصي فيها لفرانشيسكو بجوهر مخطوطاته وبعض الأعمال المحدّدة. كان سالاي يرث خصوصاً نصف حديقة. لأشقّاء المعلّم غير الأشقّاء في توسكانا، كان يُوصي بمبلغ من المال وبعض الأثاث. للخدم، مكافآت متواضعة. كان كل شيء معقولاً، ومتماسكاً، ومقنعاً.

زوّر أيضاً الرسالة الشهيرة الموجَّهة لأشقّاء ليوناردو، المؤرَّخة في الأول من يونيو 1519، والتي ذكر فيها «*رسائل الملك المسيحي جداً*» التي تسمح للمعلّم بأن يُوصي. كانت هذه الرسالة حجر الزاوية لكل البنية: كانت تشرح كيف استطاع ليوناردو، رغم كونه أجنبياً، أن يُنقل أملاكه قانونياً.

كان الأدقّ خلق وهم أن هذه الوثائق كانت موجودة دائماً. لم يستطع أن يُقدّمها فجأة عام 1525 من دون أن يتساءل أحد لماذا لم يُظهرها من قبل. كان عليه أن يُثبت وجودها تدريجياً.

بدأ يذكر أحياناً، في محادثات مع تجّار فنّ أو جامعين، أن المعلّم حرّر وصية. كان يوحي بأنه يحوز نسخة، لكنه يفضّل عدم إعلانها لتجنّب نزاعات عائلية. خلق بذلك، شهراً بعد شهر، شائعة مفادها أن وصية موجودة، حتى لو كان قليلون قد رأوها.

أثبتت هذه الاستراتيجية أنها مربحة. عام 1525، حين سيبدأ في تبرير حيازته للأعمال أمام أسئلة متزايدة الإلحاح، سيكون وجود الوصية قد أصبح بالفعل مقبولاً لدى كثيرين كحقيقة ثابتة.

الرحلة إلى أمبواز

لكنّ فرانشيسكو كان يعلم أن شائعة لن تكفي. لكي تصمد خديعته أمام فحص جدّي، كان يحتاج إلى ضمان رسمي، إلى راسخ في الأرشيف الموثَّق الفرنسي. في ربيع 1525، شرع في رحلة خطيرة: العودة إلى أمبواز.

استغرقت الرحلة من ميلانو ثلاثة أسابيع. سافر فرانشيسكو خفيفاً، حاملاً فقط الضروري القصوى، وفي حقيبة جلدية مبطّنة بالحرير، مخفية بعناية، الوصية المزوَّرة التي أمضى أشهراً يُتقنها. كانت كل مرحلة من الرحلة تُحيي ذكرياته:

ليون حيث افترق عن سالاي قبل ست سنوات، وطرق فرنسا التي قطعها إلى جانب ليوناردو، وأخيراً أمبواز، تلك المدينة التي فرّ منها بسرعة بعد موت المعلّم.

لم تتغيّر المدينة كثيراً. كان القصر الملكي لا يزال يُسيطر على نهر اللوار بكتلته المهيبة. أما كلو–لوسيه، القصر حيث أمضى ليوناردو سنواته الأخيرة، فيشغله الآن رجل بلاط ما. تجنّب فرانشيسكو بعناية المرور أمامه، خشية أن تُحيي رؤية هذه الأماكن مشاعر خطيرة.

توجّه نحو مكتب الموثّق السيد غيوم بورو، في بيت ذي هيكل خشبي مميّز للمنطقة. كان الموثّق رجلاً في الخمسين من عمره، ذا وجه صارم. كان مكتبه، مظلماً ومزدحماً بالسجلات، يفوح برائحة الرقّ القديم والحبر.

أعدّ فرانشيسكو نهجه. قدّم نفسه كتلميذ سابق لليوناردو، جاء لتسوية الإجراءات الأخيرة المتعلّقة بإرث المعلّم. شرح أنه في وقت وفاة ليوناردو، في اضطراب الحداد، لم تُسجَّل بعض الوثائق بشكل صحيح. أراد اليوم أن يُصحّح هذا الإغفال.

استمع بورو باهتمام حذر. حين أخرج فرانشيسكو الوصية من حقيبته، أخذها الموثّق بحذر، وفحصها طويلاً. تجولت عيناه المتمرّستان في الرقّ، متوقّفتين عند الصياغات، والتوقيعات.

— هذه الوثيقة مؤرَّخة في 23 أبريل 1519، لاحظ بورو بصوت حيادي. نحن في مايو 1525. مرّت ستّ سنوات. لماذا تأتي لتسجيلها الآن؟

— ظروف عائلية معقّدة، يا سيدي، أجاب فرانشيسكو بالثقة التي كرّرها مئة مرة. يطعن ورثة المعلّم الإيطاليون في بعض الأحكام. أحتاج إلى أثر رسمي لهذه الوصية لإثبات حقوقي.

وضع بورو الوثيقة على مكتبه وضمّ يديه أمامه.

— يا سيد ميلزي، قبل أن نتابع، يجب أن أطرح عليك سؤالاً يبدو لي جوهرياً. هل كان معلّمكم ليوناردو دافنشي متجنّساً فرنسياً؟

— حصل المعلّم على رسائل تجنّس من الملك فرانسوا، يا سيدي. ذلك مذكور أيضاً في الرسالة التي أرسلتها لأشقّاء ليوناردو بُعيد وفاته.

هزّ بورو رأسه ببطء.

— هذا بالضبط مكمن المشكلة. أترى، في مايو 1519، فور وفاة السيد ليوناردو، اتّصل بي عملاء الخزانة الملكية. أجرى السيد إتيان ديلوين والسيد غيوم دو مونكورنيه جرداً كاملاً لأملاك الفقيد في كلو–لوسيه. أتعلم بأيّ صفة تصرّفا؟

لم يُجب فرانشيسكو، مخمّناً ما سيلي.

— بصفة حق الغريب، تابع بورو بصوت حازم. يُطبَّق حق الغريب على الأجانب المتوفّين في فرنسا من دون حصولهم على رسائل تجنّس. تعود جميع أملاكهم تلقائياً إلى التاج. لو كان السيد ليوناردو متجنّساً فرنسياً، لما طُبّق هذا الحق. لما كان لدى عملاء الملك أي مبرّر لإجراء هذا الجرد. لكنهم فعلوا. صادروا الأعمال الرئيسية — الجوكندا، والقديسة آنّا — التي تشكّل الآن جزءاً من خزانة الملك.

كان الصمت الذي تلا ذلك ثقيلاً. كان فرانشيسكو يبحث بيأس عن جواب، عن مخرج.

— ربما وقع خطأ إداري. ربما مُنحت رسائل التجنّس، لكن سُجّلت بشكل سيّئ. أو ربما لم يكن عملاء الخزانة يعرفون بها...

— عملاء الخزانة محترفون، قاطعه بورو. لا يتحرّكون لتطبيق حق الغريب من دون التحقّق مسبقاً من غياب التجنّس. وقد راجعت أنا نفسي سجلات ديوان

الملك بطلب منهم. لا توجد أي رسالة تجنّس باسم ليوناردو دافنشي فيها. احتفظت بأثر ذلك في أرشيفي الخاص.

أدرك فرانشيسكو أن إنكار الحقيقة الواضحة لا يجدي.

— يا سيد بورو، قال بصوت أخفض، سأكون صريحاً معك. أنت محقّ. لم تُوجد رسائل التجنّس على الأرجح قط. أو إن وُعد بها، لم تُمنح رسمياً أبداً. مات المعلّم بسرعة كبيرة. لكن هل يعني هذا أن وصيته يجب أن تكون باطلة؟ أن رغبته في أن يُوصي إليّ بأعماله، ثمرة ثلاثين عاماً من الأبحاث، يجب أن تُتجاهَل بسبب إجراء شكلي؟

— ليس مجرّد إجراء شكلي. إنه قانون المملكة.

— قانون ظالم! انفعل فرانشيسكو. خدم المعلّم الملك فرانسوا بإخلاص ثلاث سنوات. أهداه أجمل أعماله. استحقّ أن يُتجنّس. إن لم يكن كذلك، فبسبب إهمال، لا بذنبه.

راقبه بورو طويلاً، ووجهه يظلّ غير قابل للاختراق.

— أتفهّم شعورك. لكن لا يستطيع موثّق أن يتجاهل القانون. هذه الوصية التي تقدّمها لي معقّدة قانونياً. من دون رسائل تجنّس، لم يكن بإمكان السيد ليوناردو أن يُوصي قانونياً في فرنسا. كان يجب أن يعود كل ما يملكه إلى التاج بحق الغريب. هذه الوصية، حتى لو عكست نواياه الحقيقية، لا قيمة قانونية لها.

— إذن ماذا تقترح؟ أن أُعيد كل شيء لعملاء الملك؟ فات الأوان. مرّت ست سنوات. الأعمال التي أحوزها، أنقذتها من التبعثر والتدمير. لولاي، لكانت بيعت لتجّار أو ضاعت. صنت عبقرية المعلّم. أهذه جريمة؟

نهض بورو.

— تضعني في موقف صعب، يا سيد ميلزي. من جهة، أتفهّم دوافعك. ومن جهة أخرى، أنا موظف رسمي. لا أستطيع أن أُصادق على وثيقة أعلم أنها باطلة قانونياً.

— لا أطلب منك أن تُصادق عليها، أجاب فرانشيسكو بسرعة. أطلب منك ببساطة أن تحفظها في أرشيفك. كوديع، لا كمُصادِق.

التفت بورو.

— إيداع مختوم؟

— بالضبط. تحفظ الوثيقة كما هي، من دون أن تُبدي رأياً بشأن صحّتها. إن طعن أحدهم في إرثي، سأستطيع دائماً أن أقول إن وصية موجودة ومحفوظة عند موثّق أمبواز. سيمنح هذا حيازتي مظهراً من الشرعية.

— مظهر من الشرعية، كرّر بورو بلمحة سخرية. تطلب مني أن أشارك في خديعة.

— أطلب منك أن تصون ذكرى رجل عظيم. القوانين ناقصة، يا سيد بورو. أحياناً، تتطلّب العدالة الحقيقية أن نبتعد عنها.

عاد الموثّق ليجلس إلى مكتبه، ملامحه مطبوعة بالتفكير.

— وإن قبلت هذا... الإيداع المختوم، ماذا سأكسب؟ أو بالأحرى، ماذا سأخاطر به؟ إذ أخاطر بسمعتي، وربما بمنصبي، بأن أصبح وديع وثيقة أعرف عيوبها القانونية.

توقّع فرانشيسكو هذا الاعتراض.

— أعتقد أن كنيسة سان–دوني في أمبواز بحاجة إلى ترميمات عاجلة. يمكن لخمسين دوكات ذهبي أن تُسهم بشكل ملحوظ في هذه الأعمال. تبرّع تقيّ لذكرى معلّمي الراحل، بالطبع. سيظهر اسمك بين المتبرّعين.

لم يفصح وجه بورو عن أي عاطفة، لكن رأى فرانشيسكو أصابعه تنقبض قليلاً على مسند مقعده. مثّلت خمسون دوكات ثروة لكنيسة صغيرة في المقاطعة.

— خمسون دوكات، همس الموثّق. هذا سخي.

— ولك شخصياً، أضاف فرانشيسكو مُخرجاً كيساً ثانياً، عشرون دوكات إضافية. مقابل الوقت الذي ستُكرّسه لصون هذه الوثيقة، والاحتياطات الخاصة التي سيتعيّن عليك اتّخاذها.

نظر بورو إلى الكيسين الموضوعين على مكتبه. بدا الصراع الأخلاقي الآن واضحاً على وجهه. كان رجلاً مستقيماً، معتاداً على احترام القانون بدقّة. لكن العرض كان كبيراً. وفي النهاية، ما الذي يفعله من مذموم؟ لم يكن يُصدّق على صحة الوصية. لم يكن يُصادق عليها قانونياً. كان يحفظها ببساطة في أرشيفه، كما يحفظ مئات الوثائق الأخرى.

امتدّ الصمت. حبس فرانشيسكو أنفاسه.

— حسناً جداً، قال بورو أخيراً بصوت منهك. سأحفظ هذه الوصية في أرشيفي، مختومة. سأزوّدك بشهادة إيداع، تُثبت أنك سلّمتني هذه الوثيقة لصونها. لكن يجب أن أكون واضحاً تماماً بشأن نقطة: لن تُصادق هذه الشهادة إطلاقاً على صحة الوصية ولا على مطابقتها للقانون الفرنسي. ستُثبت فقط أنك سلّمتني وثيقة تدّعي أنها وصية ليوناردو دافنشي.

— هذا يكفيني تماماً، يا سيدي.

— وسأضيف ملاحظة في سجلاتي الخاصة، تابع بورو بنبرة أكثر حزماً، تشير إلى الظروف الدقيقة لهذا الإيداع وتحفّظاتي بشأن صحّة الوثيقة القانونية. ستبقى هذه الملاحظة سرّية، تُنقل فقط لخلفائي في المنصب. إنها ضماني الشخصي، حمايتي إن كان لهذه القضية أن تُبحَث يوماً ما.

تردّد فرانشيسكو. قد تكون هذه الملاحظة خطيرة. لكن الرفض قد يُفشل التفاوض كله.

— أقبل، قال. ستبقى تحفّظاتك في أرشيفك الخاص. والوصية نفسها؟

— ستُحفظ في صندوق مختوم، لا يُتاح الوصول إليه إلا بتقديم إذن مكتوب منك أو من ورثتك القانونيين. لن يستطيع أحد آخر مراجعتها.

— وشهادة الإيداع؟

— سأُحرّرها فوراً.

أخرج بورو ورقة رقّ فارغة وشرع في الكتابة بخطّه الموثَّقي الجميل. راقب فرانشيسكو القلم يخدش الورق، مشكّلاً الكلمات التي تختم اتفاقهما المذنب.

«أنا الموقّع أدناه، غيوم بورو، الموثّق الملكي في أمبواز، أشهد أنني تلقّيت من السيد فرانشيسكو ميلزي، النبيل الميلاني، لصونها في أرشيفي مختومة، وثيقة قُدّمت كوصية للسيد ليوناردو دافنشي الراحل، الفنان التوسكاني المتوفّى في أمبواز في 2 مايو 1519، الوثيقة المذكورة مؤرَّخة في 23 أبريل 1519. شهادة صادرة في أمبواز، في 15 مايو 1525 بطلب من السيد فرانشيسكو ميلزي».

ختم بورو أسفل الوثيقة ومدّها لفرانشيسكو، الذي أخذها بارتياح هائل.

— ها قد أُنجز الأمر. الخمسون دوكات لسان–دوني؟

وضع فرانشيسكو الكيس الأول على المكتب.

— أما بالنسبة للمبلغ الآخر...

دفع بتكتّم الكيس الثاني نحو الموثّق، الذي أخفاه في درج بحركة سريعة.

نهض بورو، مشيراً إلى أن اللقاء انتهى.

— يا سيد ميلزي، آمل ألا أضطرّ إلى الندم على ما فعلته للتوّ. منحتك ما طلبته، لكن اعلم أنني تصرّفت ضد ضميري. إن كانت هذه القضية ستُلحق ضرراً بأي كان، سأحمل المسؤولية الأخلاقية.

— لن يُظلَم أحد، يا سيد بورو، أكّد فرانشيسكو. بل على العكس. ستُصان أعمال المعلّم، وتُدرَس، وتُنقَل للأجيال القادمة. أليس هذا هو الأهمّ؟

— ربما. أو ربما تركت نفسي ببساطة أُشترى. الزمن سيُخبر.

غادر فرانشيسكو مكتب الموثّق وشهادة الإيداع مطويّة بعناية في حقيبته. عند خروجه إلى شارع أمبواز المشمس، شعر بمزيج معقّد من العواطف: ارتياح لنجاحه، وذنب لإفساده رجلاً مستقيماً، وارتياح لترسيخ كذبته في الأرشيف الرسمي.

ما لم يكن يعرفه، أن بورو، وقد بقي وحيداً في مكتبه، كان يُحرّر في سجلّه الخاص ملاحظة مفصّلة: *«هذا اليوم، 15 مايو 1525، تلقّيت من السيد فرانشيسكو ميلزي وثيقة قُدّمت كوصية لليوناردو دافنشي. بعد الفحص، تُظهر هذه الوثيقة مخالفات قانونية خطيرة. أولاً، لأن السيد ليوناردو لم يحصل قط على رسائل تجنّس، طُبّق حق الغريب على تركته عام 1519، مما يجعل أي وصية باطلة ولاغية. ثانياً، لا تتوافق صياغات الوثيقة مع الأعراف الموثَّقية. ثالثاً، لم يستطع السيد ميلزي تقديم أي شاهد على تحرير هذه الوصية. مع ذلك، قبلت أن أحفظ هذه الوثيقة مختومة من دون أن أُصادق عليها بأي شكل. تعليمات لخلفائي: عدم إظهار هذه الوثيقة أبداً من دون إذن مكتوب من ورثة ميلزي. الاحتفاظ بهذه الملاحظة ونقلها فقط إلى الموثّق التالي صاحب المنصب».*

ستبقى هذه الملاحظة مخفيّة لثلاثة قرون، منقولة من الأب إلى الابن داخل سلالة بورو، لتصبح الحلقة السرّية لسلسلة تواطؤ لا إرادي ستحمي خديعة

فرانشيسكو حتى نهاية القرن التاسع عشر، حين ستسمح انقراض عائلة بورو أخيراً بأن تبدأ الحقيقة في الظهور.

غادر فرانشيسكو، جاهلاً الدقّة التي وثّق بها بورو شكوكه، أمبواز في صباح اليوم التالي. كانت رحلة العودة نحو ميلانو أقلّ إثارة للقلق من الذهاب. نجح متجاوزاً توقّعاته. أصبح للوصية المزوَّرة الآن وجود رسمي، راسخ في الأرشيف الموثَّقي الفرنسي. والأفضل من ذلك، كانت شهادة الإيداع تحمل تاريخاً سابقاً منحها ستّ سنوات من أثر رجعي ظاهري — لن يستطيع أحد أن يُثبت أن الوثيقة لم تُودَع منذ عام 1519، حتى لو صدرت الشهادة عام 1525.

اكتملت الخديعة الآن، محمية بصمت موثّق ستتقاسم سلالته بأكملها ضميره المضطرب طوال قرون.

قضية تريفولزيو

تجسّد التهديد في أكتوبر 1525 في شخص المونسينيور جانجياكومو تريفولزيو، رجل دين طموح وهاوي فنّ.

كان فرانشيسكو قد سمع عن تريفولزيو قبل لقائهما الأول بوقت طويل. كان الرجل شخصية لا غنى عنها في الحياة الفكرية الميلانية: راعي الحاكم دافالوس الديني، وعضواً في عدة أكاديميات علمية، وجامعاً مشهوراً بذوقه المتطلّب وثقافته الموسوعية. كانوا يقولون إنه يملك ذاكرة عجيبة، قادرة على استشهاد مقاطع طويلة من بلينيوس الأكبر أو القديس أوغسطينوس من دون أن يُخطئ كلمة واحدة قط.

ما جعل تريفولزيو مخيفاً بشكل خاص، كان هوسه بالحقيقة والأصالة. بنى سمعته بكشف عدة مزيّفات — مخطوط مُدّعى لشيشرون تبيّن أنه تزوير من القرن الرابع عشر، وتمثال «*أثري*» لم يكن عمره في الواقع سوى عشرين عاماً. في الأوساط المثقّفة في ميلانو، لقّبوه بـ«*الكلب البوليسي*» لقدرته على شمّ الخدع.

أول مرة صادف فيها فرانشيسكو تريفولزيو كانت في استقبال في القصر الدوقي، في سبتمبر 1525. كان رجل الدين رجلاً في الأربعينات من عمره، طويل القامة ونحيلاً، بوجه ذي ملامح مزوّاة تمنحه مظهر الشكّ الدائم. بدت عيناه الرماديتان، الحادّتان والمتحرّكتان، تراقبان كل شيء، وتُصنّفان كل شيء، وتُحلّلان كل شيء.

خلال هذا الاستقبال، كان تريفولزيو يتجوّل بين المدعوين، متوقّفاً أمام كل عمل فني معروض ليفحصه بدقّة. راقبه فرانشيسكو من بعيد، آملاً تجنّب أي تفاعل. لكن القدر قرّر خلاف ذلك.

— السيد ميلزي، أليس كذلك؟ قال تريفولزيو مقترباً، وكأس نبيذ بيده. تلميذ ليوناردو العظيم السابق؟

التفت فرانشيسكو بابتسامة لطيفة أمِل أن تبدو طبيعية.

— هذا أنا، يا مولاي. أتعرفني؟

— بالسمعة فقط. لكن أيّ سمعة! يُقال إنك تحوز أجمل مجموعة أعمال لليوناردو خارج المجموعات الملكية. وأنك أصبحت الخبير الذي لا جدال فيه بشأن المعلّم. وأن أكبر جامعي أوروبا يستشيرونك.

كان في نبرة تريفولزيو شيء، سخرية خفيفة ربما، جعل فرانشيسكو حذراً.

— تبالغ الشائعات دائماً، يا مولاي. تشرّفت بخدمة المعلّم لسنوات عديدة، هذا صحيح. لكن أن أدّعي أنني خبير...

— تواضع مصطنع، قاطعه تريفولزيو. رأيت بعض القطع التي بعتها. إنها أصلية، من دون شكّ. أراني الكاردينال دوفيتسي رسومه النباتية. تحفة. يد ليوناردو مميّزة بين ألف يد.

— يسرّني أن يكون مولاي راضياً عن اقتنائه.

— راضٍ؟ إنه مبتهج به. رغم أنه تساءل أحياناً عن... كيف أقول... عن المصدر الدقيق لهذه الرسوم.

بدأ قلب فرانشيسكو يخفق بسرعة أكبر، لكنه حافظ على تعبيره غير المبالي.

— المصدر بسيط، يا مولاي. هذه قطع أوصى لي بها المعلّم في وصيته. كل شيء موثَّق تماماً.

— آه نعم، الوصية. سمعت عن هذه الوصية. من الغريب أن لا أحد يبدو أنه رآها. نتحدّث عنها، ونشير إليها، لكن الوثيقة نفسها تبقى غريباً... بعيدة المنال.

شعر فرانشيسكو بالعرق يتصبّب على جبينه رغم برودة أمسية الخريف.

— الوصية محفوظة في فرنسا، عند الموثِّق الذي سجّلها. أحوز نسخة موثَّقة، بالطبع، لكنّ الأصل يبقى في الأرشيف الموثَّقي لأمبواز.

— يا له من أمر مريح، لاحظ تريفولزيو بصوت رقيق. وثيقة حاسمة، لكنها للأسف يتعذّر الوصول إليها للتحقّق، محفوظة في مملكة بعيدة.

— يا مولاي، إن كنت تلمّح إلى شيء...

— لا ألمّح إلى شيء، يا سيد ميلزي. أتساءل ببساطة. هذه طبيعتي. أنا رجل فضولي. فضولي جداً، يُقال لي أحياناً.

مرّ خادم يحمل صينية من الأطباق الشهية. أخذ منها تريفولزيو بغياب ذهن، من دون أن يُبعد عينيه عن فرانشيسكو.

— أخبرني، يا سيدي، تابع رجل الدين، هذه القصة عن رسائل التجنّس التي منحها الملك فرانسوا للمعلّم... أواثق أنت منها؟

— واثق تماماً. ذلك مذكور في مراسلاتي مع أشقّاء ليوناردو بعد وفاته.

— مثير للاهتمام. لأنّني، أترى، لديّ مراسل في باريس، زميل عالِم لديه وصول إلى الأرشيف الملكي. وكتب لي مؤخّراً أن لا رسالة تجنّس باسم ليوناردو دافنشي موجودة في سجلات الديوان.

شعر فرانشيسكو بالأرض تنهار تحت قدميه. كان تريفولزيو قد حقّق. تحقّق من مصادر فرنسية. كان هذا الحديث الذي يبدو عرضياً في الواقع استجواباً مُعَدّاً بعناية.

— قد تكون الأرشيفات ناقصة، أجاب فرانشيسكو مجاهداً في الحفاظ على هدوئه. تضيع الوثائق، خصوصاً في زمن الحرب. جرت اضطرابات كثيرة في فرنسا في السنوات الأخيرة...

— على الأرجح، على الأرجح، سلّم تريفولزيو بإيماءة رأس لا تعكس أي اقتناع. لكن مع ذلك، هذا مقلق. رسائل تجنّس منحها الملك، هذه وثيقة مهمّة. يجب أن يكون لها أثر.

اقتربت مجموعة من المدعوين، مقاطعة حديثهما. استغلّ فرانشيسكو هذا التشتيت للانسحاب، مبرّراً ذلك بموعد عاجل. لكنها لم تكن سوى مهلة. كان تريفولزيو على أثره.

في الأيام التالية، علم فرانشيسكو أن رجل الدين يطرح أسئلة عنه في كل ميلانو. استجوب تجّار الفنّ الذين توسّطوا في مبيعاته، والجامعين الذين اشتروا أعمالاً، والموثّقين الذين حرّروا عقود البيع.

— إنه صارم، أفاد بومبيو أثناء أحد لقاءاتهما السرّية. يُدوّن كل شيء، ويُجمّع قوائم، ويقارن الشهادات. وكأنه يبني ملفّ اتهام.

— لكن على أي أساس؟ انفعل فرانشيسكو. أيّ جريمة ارتكبتها؟ امتلاك أعمال معلّمي، التي ورثتها شرعياً؟

— يشكّ في أن إرثك ليس شرعياً كما تدّعي. وبصراحة، ليس مخطئاً. إن وضع يده يوماً على أدلّة ملموسة...

— لا توجد أدلّة! قاطعه فرانشيسكو. الوثائق التي زوّرتها مثالية. لا يمكن تمييز الوصية عن أصل حقيقي. المراسلات لا تشوبها شائبة. لا يستطيع إثبات شيء.

— المشكلة ليست الوثائق المادية فقط. إنها منطق القصة. تريفولزيو عقل تحليلي. يبحث عن التناقضات، عن التفاصيل التي لا تنسجم. وقصتنا، مهما كانت مبنية جيداً، لها نقاط ضعفها.

— أيّ نقاط؟

— أولاً، غياب رسائل التجنّس في الأرشيف الفرنسي. اخترعنا هذه الرسائل لتفسير كيف استطاع ليوناردو أن يُوصي، لكن إن لم تكن موجودة في السجلات الرسمية، ينهار تفسيرنا. ثانياً، الوقت. لماذا انتظرت ستّ سنوات قبل تسجيل الوصية في فرنسا؟ هذا مريب. ثالثاً، الشهادات. الأشخاص الذين تدّعي أنهم شهدوا الوصية أو تلقّوا هبات

من المعلّم... بعضهم لا يتذكّر بوضوح، ويعطي آخرون روايات متناقضة.

— هذه تفاصيل ثانوية. نسيان طبيعي بعد سنوات عديدة.

— بالنسبة إليّ وإليك، إنها تفاصيل ثانوية. بالنسبة إلى تريفولزيو، إنها ثغرات في بناء احتيالي. وهو يملك الذكاء والعناد لاستغلالها.

— بماذا تقترح؟ أن أفرّ من ميلانو؟ أن أتخلّى عن كل ما بنيته؟

— لا. أقترح أن نُعدّ دفاعاً وجيهاً. أن نُعزّز نقاط ضعف قصتنا. وقبل كل شيء، أن نجد وسيلة لتحييد تريفولزيو قبل أن يصبح خطيراً حقاً.

— نُحيّده كيف؟

— عدة خيارات. يمكننا أن نُشكّك في مصداقيته بزرع شكوك حول مجموعته الخاصة — سمعت أنه يحوز تمثالاً صغيراً *«رومانياً»* قد يكون تزويراً حديثاً. يمكننا استعمال علاقاتك مع الحاكم لسحب إذنه بالتحقيق. أو يمكننا ببساطة شراءه — لكل رجل ثمنه.

التفت فرانشيسكو، صُدم من هذا الاقتراح الأخير.

— تتحدّث عن الرشوة؟

— أسمّي ذلك تفاوضاً. تريفولزيو جامع. اعرض عليه بعض القطع اللافتة، وقد يُظهر حماسة أقلّ... في تحقيقاته.

أثارت الفكرة اشمئزاز فرانشيسكو، لكنه لم يستطع إنكار منطقها: لكل رجل ثمنه. كان السؤال معرفة إن كان تريفولزيو من نوع الرجال الذين يمكن التفاوض على ثمنهم.

بعد أسبوع، تلقّى فرانشيسكو رسالة رسمية من تريفولزيو تدعوه لزيارته في الأسقفية *«لمناقشة مسائل ذات مصلحة مشتركة تتعلّق بإرث ليوناردو دافنشي الراحل»*. كانت النبرة لطيفة، لكنّ الدعوة كانت أشبه باستدعاء.

حضر فرانشيسكو في اليوم والساعة المحدّدين، برفقة بومبيو الذي قدّمه كمستشاره القانوني. استُقبلا في مكتب تريفولزيو الخاص، غرفة متقشّفة جدرانها مغطّاة بالكتب، وصليب خشبي داكن كبير يُهيمن على مكتب ضخم.

استقبلهما تريفولزيو بلطف غير مبالٍ.

— يا سيد ميلزي، يا سيد بونيني، أشكركما على حضوركما. اجلسا، أرجوكما.

جلسا في المقعدين غير المريحين اللذين أشار إليهما رجل الدين. استقرّ تريفولزيو خلف مكتبه، ضامّاً يديه أمامه في وضعية تُذكّر بقاضٍ على وشك إصدار حكم.

— سأذهب مباشرة إلى الموضوع، بدأ. منذ عدة أسابيع، أُجري تحقيقاً متكتّماً بشأن مصدر مجموعتك من أعمال ليوناردو. كشف هذا التحقيق عدة... تناقضات تُقلقني بعمق.

شعر فرانشيسكو بحلقه ينقبض، لكنه جاهد ليبدو هادئاً.

— تناقضات، يا مولاي؟ أيّها؟

فتح تريفولزيو سجلّاً موضوعاً أمامه وشرع في تعداد اكتشافاته بدقّة مدّعٍ عام:

— أولاً، رسائل التجنّس الشهيرة. لا توجد في أي سجلّ فرنسي رسمي. تحقّقت من ثلاثة مصادر مستقلّة. ثانياً، الوصية نفسها. لم يرها أحد قط، سواك. تدّعي أنها محفوظة عند موثّق في أمبواز، لكنك لا تستطيع تقديم أي دليل على تسجيلها. ثالثاً، بعض الأعمال التي تدّعي أنك ورثتها لا تظهر في جرد أملاك ليوناردو الذي أعدّه عملاء الملك في مايو 1519. خصوصاً قديس يوحنا معمدان وليدا مع بجعة نعلم أنهما كانا في ورشة المعلّم قُبيل موته.

أغلق السجلّ ونظر إلى فرانشيسكو مباشرة في عينيه.

— كيف تفسّر هذه التناقضات، يا سيد ميلزي؟

أخذ فرانشيسكو نفساً طويلاً. لو بدا دفاعياً جداً، سيؤكّد شكوك تريفولزيو. ولو كان متعجرفاً جداً، سيدفعه إلى مواصلة تحقيقه. كان

يجب إيجاد النبرة الصحيحة: مستاءً بما يكفي ليبدو مهاناً بصدق، لكن متعاوناً بما يكفي كي لا يبدو أن لديه ما يخفيه.

— يا مولاي، بدأ بصوت هادئ، أتفهّم اهتمامك بالحقيقة. إنها صفة مُعجبة عند رجل دين. لكن اسمح لي أن أُجيب نقطة نقطة عن... مخاوفك.

عدّ على أصابعه، مقلّداً حركة تريفولزيو:

— أولاً، بشأن رسائل التجنّس. من الممكن أنها لم تُسجَّل رسمياً قط في السجلات الكبرى للديوان. كان الملك فرانسوا يمنح أحياناً امتيازات برسائل خاصة لا تمرّ عبر القنوات الإدارية المعتادة. كان المعلّم مقرّباً من الملك. من المعقول أنه تلقّى ضمانات شفهية أو وثائق خاصة لا تظهر في الأرشيف الرسمي.

— ضمانات شفهية لا تُشكّل تجنّساً قانونياً، اعترض تريفولزيو.

— على الأرجح. لكن في سياق ذلك الزمن، بالروابط الشخصية بين ليوناردو والملك، كان يمكن اعتبار ضمانات كهذه كافية. تذكّر أن المعلّم كان طاعناً في السنّ ومريضاً. ربما لم تكن الإجراءات أولويته.

لم يبدُ تريفولزيو مقتنعاً، لكنه أشار لفرانشيسكو بمواصلة الكلام.

— ثانياً، بشأن الوصية. إنها موجودة. أحوز شهادة من موثّق أمبواز تؤكّد أنها محفوظة في أرشيفه مختومة. إن أردت، أستطيع أن أُريك هذه الشهادة.

— الشهادة ليست الوصية نفسها.

— هذا صحيح. لكن تحوي الوصية أحكاماً خاصة لا أرغب في إعلانها. تذكر هبات لأشخاص لم يعودوا في هذه الدنيا، وترتيبات عائلية دقيقة. تقديمها علناً سيخلق مشاكل أكثر مما يحلّ.

— أمر مريح، همس تريفولزيو.

تجاهل فرانشيسكو المقاطعة وتابع:

— ثالثاً، بشأن الأعمال التي لا تظهر في الجرد الملكي. يجب فهم السياق. أُعدّ الجرد بسرعة، في الاضطراب الذي أعقب موت المعلّم. كانت بعض الأعمال قد خرجت بالفعل من الورشة قبل الوفاة. القديس يوحنا المعمدان، مثلاً، عُهد إليّ بحفظه قبل أسابيع عدة من موت المعلّم، الذي أراد أن أواصل العمل عليه. لم يكن إذن في الورشة أثناء الجرد.

— هل لديك شهود على هذه... الحيازة المبكّرة؟ سأل تريفولزيو بتشكّك.

— نعم. السيد بونفال، الصيدلي الذي كان يعالج المعلّم. السيدة مارغريت دو روهان، التي كانت تزور كلو–لوسيه غالباً. قسّيس سان–فلورنتان، الذي كان يأتي ليعترف المعلّم. يستطيع الجميع أن يشهدوا أن بعض الأعمال كانت في حوزتي بالفعل قبل الوفاة الرسمية.

كانت هذه كذبة جريئة، لكن فرانشيسكو كان يعلم أن هؤلاء الشهود، حتى لو استُجوبوا، سيعطون أجوبة غامضة يمكن تفسيرها في الاتّجاه المرغوب. تلقّى الصيدلي والقسّيس *«هدايا»* ستجعلهما مترددَين في مناقضة فرانشيسكو. أما السيدة مارغريت، التي توفّيت قبل عامين، فلم تعد تستطيع الشهادة إطلاقاً.

دوّن تريفولزيو ملاحظات، وقلمه يخدش الورق بصوت جافّ تردّد صداه في صمت المكتب.

— هؤلاء الشهود، قال أخيراً رافعاً عينيه، اتّصلت بهم جميعاً مؤخّراً، أليس كذلك؟ لـ*«تُنعش ذاكرتهم»*؟

كان السؤال فخّاً. الاعتراف بالاتّصال سيعني الاعتراف بمحاولة التلاعب بالشهادات. إنكاره سيكون كذبة يسهل التحقّق منها.

اختار فرانشيسكو طريقاً ثالثاً:

— أُتيحت لي فرصة مراسلة بعضهم، نعم. بعد ستّ سنوات، من الطبيعي أن نُحيي الذكريات. لكنني لم أُلقّنهم شيئاً خاطئاً. طلبت منهم ببساطة أن يتذكّروا ما حدث فعلاً.

— وبمصادفة تامّة، تتطابق ذكرياتهم بالضبط مع روايتك للأحداث.

— يا مولاي، قال بومبيو الذي بقي صامتاً حتى ذلك الحين، يتّخذ هذا الحوار طابع استجواب. ليس على السيد ميلزي أي التزام بأن يُبرّر نفسه أمامك. بأيّ سلطة تجري هذا التحقيق؟

— بسلطة ضميري، يا سيد بونيني. حين أرى تناقضات تُوحي باحتيال محتمل، أرى أن من واجبي الأخلاقي أن أُحقّق. إن لم يكن لدى السيد ميلزي ما يخفيه، فلا يجب أن يخشى أسئلتي.

— لا يخشاها. لكنه يتساءل عن دوافعك. هل يحرّكك رغبة صادقة في الحقيقة؟ أم توجد أسباب أخرى، أكثر... شخصية؟

تجمّد وجه تريفولزيو.

— ماذا تقصد؟

— سمعت أنك تطمع في بعض قطع المجموعة. أنك حاولت عدة مرات اقتناءها، من دون نجاح. ألا يكون هذا الإحباط هو ما يُغذّي... حماسة تحقيقك؟

كانت هذه ضربة جريئة. لم يحاول تريفولزيو قط شراء أي شيء من فرانشيسكو. لكنّ الاتهام، مُطلَقاً علناً، قد يزرع شكّاً في دوافعه.

نهض تريفولزيو فجأة، كاداً يقلب محبرته.

— كيف تجرؤ! أنا رجل دين! لا أدع الجشع يُوجّهني!

— بالطبع لا، يا مولاي، أسرع فرانشيسكو قائلاً. أساء صديقي التعبير. لم يكن يشكّك في استقامتك. لكن عليك أن تفهم موقفنا. أسئلتك، مهما كانت مشروعة، تخلق أجواء شكّ تضرّنا. سيتردّد الجامعون في شراء الأعمال إن دارت شائعات عن مصدرها.

جلس تريفولزيو من جديد ببطء، غارقاً بوضوح في صراع داخلي. من جهة، كان حدسه يقول له إن فرانشيسكو يكذب، وإن كل قصة الإرث الشرعي هذه بناء احتيالي. ومن جهة أخرى، لم يكن لديه أي دليل ملموس، فقط تناقضات وشكوك.

— يا سيد ميلزي، قال أخيراً بصوت أهدأ، سأكون صريحاً معك. أظنّ أن إرثك ليس واضحاً كما تدّعي. أظنّ أن بعض الوثائق... جُمِّلت. ربما حتى صُنعت. لكنني أُقرّ بأنه ليس لديّ دليل رسمي على احتيال متعمّد.

توقّف قبل أن يُتابع:

— سأواصل إذن تحقيقي. سأكتب إلى معارفي في فرنسا للحصول على مزيد من المعلومات. سأستجوب الشهود الذين ذكرتهم. وإن وجدت أدنى دليل ملموس على التزوير، لن أتردّد في رفع هذه القضية أمام السلطات المختصّة. هل أنا واضح؟

— واضح تماماً، يا مولاي، أجاب فرانشيسكو وهو ينهض. واسمح لي أن أضيف أنني أتمنى لك حظّاً موفّقاً في أبحاثك. فلن تجد شيئاً يمكن أن يُشكّك في شرعية إرثي.

غادرا الأسقفية في صمت متوتّر. بمجرد وصولهما إلى الشارع، أطلق بومبيو تنهيدة طويلة.

— لدينا مشكلة. مشكلة كبيرة.

— أعلم، همس فرانشيسكو. لن يتخلّى تريفولزيو عن الأمر. إنه كالكلب مع عظمة. سيحفر، ويستجوب، ويتحقّق. وعاجلاً أم آجلاً، سيجد ثغرة.

— إذن يجب أن نتصرّف قبل أن يجد تلك الثغرة. يجب إما أن نُقنعه بإيقاف تحقيقه، أو أن نُشكّك فيه بما يكفي كي لا يأخذ أحد اتهاماته على محمل الجدّ.

أومأ فرانشيسكو برأسه، لكن قلبه كان ثقيلاً. مثّلت الزيارة بداية فترة من القلق الشديد.

بعد رحيل تريفولزيو، أُغلق الرجلان في مكتب العمل في القصر.

— يعرف شيئاً، استنتج فرانشيسكو بصوت متوتّر. أو على الأقل، يشكّ في شيء. هذا التحقيق الذي يهدّد بإطلاقه قد يكشف كل شيء.

فكّر بومبيو طويلاً قبل أن يجيب:

— تريفولزيو مخيف لأنه ذكي وعنيد. لكن لديه أيضاً نقاط ضعف. يجب أن نُحدّدها ونستغلّها.

— أيّ نقاط ضعف؟

— أولاً، كبرياؤه. إنه رجل يظنّ نفسه ألمع من الآخرين. إن قدّمنا له تفسيراً يُطري ذكاءه بينما يقوده على مسار كاذب، قد يتبعه. ثانياً، طموحه. تريفولزيو ليس سوى راعٍ ديني للحاكم. يحلم بمنصب أهمّ، ربما أسقفية. إن استطعنا أن نُوحي للحاكم أن تريفولزيو يتجاوز صلاحياته بإجراء هذا التحقيق...

— تقترح أن نجعله يُستدعى للنظام من قِبل رؤسائه؟

— بالضبط. الحاكم دافالوس يقدّرك. أنت مستشاره الفني. لو جعلته يفهم أن هذا التحقيق يُلحق بك ضرراً غير مبرَّر، وأن تريفولزيو يتصرّف بدافع غيرة شخصية بدلاً من اهتمام بالعدالة، قد يتدخّل دافالوس.

تأمّل فرانشيسكو هذا الاقتراح. كان محفوفاً بالمخاطر. لو انحاز الحاكم لتريفولزيو، سيتفاقم الوضع. لكنّ عدم فعل شيء كان خطيراً أيضاً.

— سأفكّر في أفضل نهج. في هذه الأثناء، يجب أن نُعدّ دفاعنا. هل الوثائق التي زوّرتها مقنعة بما يكفي؟

— الوصية والرسالة لأشقّائه ممتازتان، أكّد بومبيو. لكن يجب تعزيز الباقي. يجب أن تُدعَّم الشهادات المذكورة لتريفولزيو. قسّيس سان–فلورنتان، والسيد بونفال، والسيدة مارغريت دو روهان... يجب أن يتلقّوا جميعاً الأعمال الموعودة وأن يُعَدّوا للشهادة بشكل متماسك.

— كيف أُعدّهم من دون إثارة شبهاتهم؟ إن شرحت لهم بشكل مفرط ما يجب أن يقولوه، سيفهمون أنني أطلب منهم الكذب.

— لا حاجة لتشرح لهم. أرسل لهم الأعمال برسالة تُوحي بأنهم تلقّوها بالفعل من المعلّم، لكنهم نسوها. أمام عمل فني يصل فجأة، سيكون معظمهم سعداء جداً بحيث لن يطرحوا أسئلة.

اتّبع فرانشيسكو هذه النصيحة. أرسل بتكتّم رسلاً إلى فرنسا برُزم مغلَّفة بعناية. لقسّيس سان–فلورنتان، أرسل ثلاثة رسوم نباتية لليوناردو مرفَقة برسالة:

«يا أيها الأب المبجَّل، أثناء ترتيب أرشيف معلّمي الراحل، عثرت على هذه الرسوم التي كان ينوي إهداءها لك عرفاناً بدعمك الروحي أثناء مرضه الأخير. احتراماً لإرادته، أنقلها إليك اليوم، بتأخير بضع سنوات، لكن مع تأكيدي أنها صادرة من يده ومن قلبه».

كانت الصياغة ماهرة. كانت تُوحي بأن المعلّم عبّر عن نيّة إهداء هذه الرسوم، من دون تحديد إن كانت هذه الهبة قد تمّت في حياته أو أن فرانشيسكو ينفّذها الآن. كان القسّيس، وقد تلقّى هذه الأعمال الثمينة، يستطيع أن يشهد بحسن نيّة تام بأنه تلقّى «*في زمن المعلّم*» رسوماً من يده، من دون أن يكذب تقنياً، لكن خالقاً الانطباع المرغوب.

فعل المثل مع الشهود الآخرين. أرسل لكل واحد بعض الأعمال الثانوية مرفَقة برسائل غامضة. أجاب معظمهم بامتنان، من دون أسئلة مزعجة. وحده السيد بونفال، الصيدلي، أبدى حيرة:

«*يا سيدي، أشكرك على هذه الدراسات الرائعة للنباتات الطبية. مع ذلك، ربما تخونني ذاكرتي، لكنني لا أتذكّر أن المعلّم الراحل أعطانيها في حياته. أفلا تكون أنت من يُهديها لي اليوم على ذكراه؟*».

هدّد هذا الردّ بتدمير الاستراتيجية. لو شهد بونفال بأنه لم يتلقَّ شيئاً من المعلّم، فسيُلقي ذلك بالشكّ على كل الشهادات الأخرى. اضطرّ فرانشيسكو إلى التصرّف.

كتب للصيدلي رسالة طويلة يشرح فيها أن المعلّم، في أسابيعه الأخيرة، وزّع أعمالاً عديدة، لكنّ بعض المستفيدين، في اضطراب الحداد، لم يحتفظوا بذكرى دقيقة عنها. اقترح أن بونفال ربما نسي هذه الهبة في حزنه.

ثم، والأهمّ، أرسل لبونفال رسالة ثانية، سرّية، شرح فيها أن تحقيقاً خبيثاً جارٍ وأن بعض الحسّاد يسعون إلى التشكيك في إرث المعلّم الشرعي. طلب من الصيدلي، إن استُجوب، أن يؤكّد أنه تلقّى هذه الرسوم «*في زمن كان المعلّم لا يزال فيه حيّاً*».

كانت هذه الرسالة الثانية خطيرة. حوّلت بونفال إلى شريك واعٍ. لكن لم يكن أمام فرانشيسكو خيار. كان يجب التأكّد من شهادة الصيدلي.

قبل بونفال، رجل بسيط ومخلص، أن يشهد بالاتّجاه المرغوب. كتب في رده:

«يا سيدي، بعد التفكير ومراجعة سجلاتي، أتذكّر أن المعلّم أعطاني هذه الدراسات أثناء مرضه الأخير، عرفاناً برعايتي له. عكّر الحزن ذاكرتي، لكن كل شيء يعود إليّ بوضوح. إن استجوبتني أي سلطة، سأؤكّد من دون تردّد هذه الهبة».

تنهّد فرانشيسكو ارتياحاً. تعزّز شاهد حاسم. لكن كشف الحادث له هشاشة بنائه. شاهد واحد يتراجع، وينهار كل شيء.

تحقيق تريفولزيو

لم يُضيّع تريفولزيو وقتاً. منذ نوفمبر 1525، بدأ تحقيقه. كتب أولاً لمراسله الفرنسي، المونسينيور جان دو بيلاي، أسقف لومان، الذي كانت له علاقات في بلاط فرانسوا الأول.

كانت الرسالة مُحرَّرة بمهارة:

«أيها الأب المبجَّل جداً، أحتاج إلى استنارتك في قضية دقيقة تتعلّق بإرث فنان إيطالي متوفٍّ في فرنسا. توفّي ليوناردو دافنشي، ذلك الرسام التوسكاني ذائع الصيت، في أمبواز عام 1519. يدّعي أحد تلاميذه السابقين، المستقرّ في ميلانو، أنه ورث جزءاً كبيراً من أعماله بموجب وصية أتاحتها رسائل تجنّس منحها الملك. أيمكنك أن تتحقّق في الأرشيف الملكي إن كانت رسائل كهذه موجودة؟ وإن سُجّلت وصية؟».

استغرق هذا التحقيق أشهراً عدة، لأنّ المراسلات بين ميلانو وباريس كانت بطيئة. في انتظار الجواب، أجرى تريفولزيو تحقيقه في الميدان الميلاني.

استجوب أولاً ورثة ليوناردو الإيطاليين، أشقّاء المعلّم غير الأشقّاء في توسكانا. استُدعي السيد جوليانو دافنشي، الأكبر سناً، إلى ميلانو بحجّة شأن موثَّقي. استقبله تريفولزيو في الأسقفية واستجوبه.

— يا سيد جوليانو، هل تلقّيت إرثاً من أخيك الراحل؟

— نعم يا مولاي، أجاب جوليانو، الموثّق بحكم مهنته كما كان والده. تلقّيت بعض الأثاث، والملابس، ومبلغاً متواضعاً من المال. تقاسمت أنا وأخي أنطونيو هذه الممتلكات.

— وأعمال فنية؟ لوحات، رسوم، مخطوطات؟

— بعض الرسوم. دراسات تحضيرية عديمة القيمة التجارية الكبيرة. لم يكن أخي ليوناردو غنياً، خلافاً لما قد يظنّ البعض. بيعت معظم أعماله المهمّة أو أُهديت بالفعل في حياته.

— هذه الإرث، كيف وصلت إليكما؟

— عبر السيد فرانشيسكو ميلزي، الذي كان التلميذ الأقرب لأخي. أرسل لنا الأشياء التي كانت تعود لنا.

بعد رحيل جوليانو، دوّن تريفولزيو في سجلّه:

«يؤكّد الورثة الإيطاليون أنهم تلقّوا بعض الأعمال الثانوية، لكنهم لا يُبدون شكّاً تجاه ميلزي. شهادتهم محدودة القيمة، لأنهم لم يكونوا حاضرين في فرنسا وقت الوفاة».

استجوب تريفولزيو بعد ذلك عدة تجّار فنّ وجامعين ميلانيّين اشتروا أعمالاً لليوناردو عبر فرانشيسكو. أكّد جميعهم أنه يحوز أعمالاً للمعلّم ويبيعها أحياناً. لكن لم يستطع أي منهم تقديم وثائق تُثبت مصدرها.

استُجوب الكاردينال بيرناردو دوفيتسي دا بيبيينا، الذي اشترى اثنتي عشرة رسمة نباتية عام 1520.

— يا نيافتك، حين اشتريت هذه الرسوم، هل طلبت من السيد ميلزي أن يُثبت أنها تعود إليه شرعياً؟

أجاب الكاردينال بانزعاج:

— يا مولاي تريفولزيو، لست تاجر ماشية يتحقّق من مصدر كل حيوان. أنا هاوٍ للفنّ. حين تُعرض عليّ أعمال ذات جودة، أفحصها للتأكّد من أصالتها الفنية. لا تهمّني الأصالة القانونية. كان فرانشيسكو ميلزي تلميذ ليوناردو. من الطبيعي أن يحوز أعمالاً لمعلّمه. لم أرَ سبباً للشكّ.

— لكن ماذا لو سُرقت هذه الأعمال؟

— سُرقت من من؟ المعلّم مات. ليس له ورثة مباشرون. تلقّى أشقّاؤه نصيبهم. ممّن سرق فرانشيسكو؟ من ملك فرنسا؟ لكنّ الملك يمتلك بالفعل الجوكندا وأعمالاً رئيسية أخرى. لم يُبدِ أي مطالبة بشأن القطع التي يبيعها فرانشيسكو.

كانت هذه الحجّة، التي سيسمعها تريفولزيو من جامعين آخرين كثيرين، فعّالة بشكل مخيف. في غياب مُشتكٍ، من يستطيع أن يتّهم فرانشيسكو بالسرقة؟ حق الغريب لعب لصالح التاج الفرنسي، لكن فرانسوا الأول لم يبدُ مهتماً بذلك. من دون ضحية واضحة، كان من الصعب ملاحقة جريمة.

الهجوم المضادّ

بينما كان تريفولزيو يُجري تحقيقه، لم يبقَ ميلزي خاملاً. قرّر أن يأخذ المبادرة بدلاً من الانتظار السلبي.

كانت خطوته الأولى طلب لقاء خاص مع الحاكم دافالوس. كان رجلاً عسكرياً بالمهنة، خشناً في تصرّفاته. كان يُقدّر فرانشيسكو لمعرفته الفنية وقدرته على العثور على أعمال ذات جودة لمجموعته.

قدّم فرانشيسكو نفسه في القصر الدوقي في صباح من أبريل، حاملاً تحت ذراعه لوحة صغيرة ملفوفة بمخمل أحمر. استُقبل في المكتب الخاص للحاكم، غرفة متواضعة مؤثّثة بأثاث إسباني ذي خطوط متقشّفة.

— يا صاحب المعالي، بدأ فرانشيسكو بعد التحيات، جئت لطلب مشورتكم في قضية دقيقة. يُجري المونسينيور تريفولزيو تحقيقاً بشأن الإرث الذي تلقّيته من معلّمي الراحل ليوناردو دافنشي. يبدو أنه يُشكّك في شرعيته.

قطّب دافالوس حاجبيه.

— تريفولزيو؟ راعيّ الديني؟ أيّ سلطة له لإجراء تحقيق كهذا؟

— هذا ما أتساءل عنه أنا أيضاً، يا صاحب المعالي. هل يتصرّف تريفولزيو بأوامركم؟ أم يمنح نفسه صلاحيات تتجاوز منصبه؟

أجاب الحاكم، الذي لم يكن يحبّ أن يتصرّف أحد وراء ظهره من دون إذنه، بجفاء:

— لم يطلب مني أحد الإذن. إن كان تريفولزيو قد اتّخذ هذه المبادرة، فمن تلقاء نفسه.

— يا صاحب المعالي، تابع فرانشيسكو، أخشى ألا تكون دوافع المونسينيور تريفولزيو نبيلة بقدر السعي إلى العدالة. يطمع في بعض أعمال مجموعتي. عرض عليّ عدة مرات شراءها ورفضت. أخشى ألا يكون هذا التحقيق سوى وسيلة ضغط لإجباري على البيع بسعر بخس.

كانت هذه كذبة. لم يُقدّم تريفولزيو قط عرض شراء. لكن راهن فرانشيسكو على أن الحاكم لن يتحقّق من هذا الادّعاء وأنه سيكون أكثر ميلاً لتصديق مستشاره الفني بدلاً من راعٍ ديني بسيط.

أثبت الرهان أنه رابح. لم يكن دافالوس يحبّ تريفولزيو كثيراً — مثقّفاً متبجّحاً في نظره —، فقبل هذا التفسير.

— إن كان الأمر كذلك، فهذا غير مقبول. لا أستطيع أن أتسامح مع أن يُسيء عضو من بلاطي استعمال منصبه لمكاسب شخصية.

— يا صاحب المعالي، لا أريد أن أُسبّب مشاكل للمونسينيور تريفولزيو. ربما نستطيع أن نجعله يفهم أن هذا التحقيق يتجاوز صلاحياته وأنه يجب أن يقتصر على وظائفه الدينية؟

أومأ دافالوس برأسه.

— دع الأمر لي. سيتلقّى تريفولزيو تنبيهاً. ولأُثبت لك ثقتي باستقامتك، سأقبل العمل الذي يبدو أنك أحضرته لي.

فكّ فرانشيسكو غلاف اللوحة: عذراء صغيرة مع الطفل، نسخة من صنع يده عن أصل لليوناردو. لم تكن قطعة ذات قيمة كبيرة، لكنها كانت ذات صنعة جميلة وستُطري كبرياء الحاكم.

— يا صاحب المعالي، إنه لشرف أن أُهديها لك. هذه النسخة التي أنجزتها بتوجيه المعلّم نفسه أصبحت لك.

فحص دافالوس اللوحة بارتياح. لم يكن خبيراً كافياً ليُميّز نسخة عن أصل، ولم يُصحّح له فرانشيسكو ذلك.

— سأُعلّقها في غرفتي الخاصة. ستُذكّرني بإخلاصك وموهبتك.

غادر فرانشيسكو القصر الدوقي بشعور من الانتصار. نجح في تحويل الحاكم ضد تريفولزيو. لكن كانت هذه معركة واحدة فقط، لا الحرب. لن يترك رجل الدين نفسه يُرهَب.

المواجهة النهائية

بعد أيام قليلة، تلقّى فرانشيسكو استدعاءً *«لتوضيح بعض نقاط تحقيقه»*. لم يتخلَّ تريفولزيو.

قدّم فرانشيسكو وبومبيو نفسيهما في الأسقفية. استُقبلا في المكتب نفسه حيث كانت لفرانشيسكو مواجهته الأولى مع رجل الدين.

استقبلهما تريفولزيو ببرود مهذّب.

— يا سيد ميلزي، واصلت تحقيقي بشأن إرثك المزعوم. استجوبت الورثة الإيطاليين، وعدة جامعين، وكتبت إلى فرنسا للتحقّق من وجود رسائل التجنّس التي تستشهد بها.

— وماذا اكتشفت، يا مولاي؟

— أموراً مثيرة للاهتمام. يؤكّد الورثة الإيطاليون أنهم تلقّوا إرثاً. يؤكّد الجامعون أنك تحوز أعمالاً لليوناردو، لكن لا يستطيع أي منهم أن يشهد على مصدرها القانوني. أما بالنسبة إلى فرنسا، فلم أتلقَّ ردّاً بعد.

— يا مولاي، على أي أساس قانوني تُجري هذا التحقيق؟ لم يُتّهم السيد ميلزي بأي جريمة. لم يُقدّم أحد شكوى ضده.

لو كان لديك أدلّة على جريمة، لوجب عليك أن تنقلها للسلطات القضائية المختصّة. لكن ليس لديك أي منها، أليس كذلك؟ ليس لديك سوى شكوك وتلميحات.

تصاعد التوتّر. تدخّل فرانشيسكو ليُهدّئه:

— يا مولاي، أتفهّم اهتمامك بالعدالة. لكنني أؤكّد لك أن إرثي شرعي. إن أردت، أستطيع أن أُريك الوصية والمراسلات التي تُثبت شرعية حقوقي.

أخرج من حقيبته نسخة من الوثائق التي زوّرها والشهادة التي أصدرها بورو. وضعها على مكتب تريفولزيو. فحصها رجل الدين طويلاً، يقلّبها ذهاباً وإياباً، باحثاً عن مؤشّرات التزوير.

— تبدو هذه الوثائق أصلية للوهلة الأولى، اعترف. لكنّ الأصالة الظاهرية ليست دليلاً قاطعاً. يجب أن تُفحص من قِبل خبراء في الخطوط.

— لا أرى أي اعتراض، أجاب فرانشيسكو بثبات. اجعلها تُفحص من قِبل من تشاء. ستجد أنها أصلية.

كانت هذه مقامرة جريئة. راهن فرانشيسكو على أن تريفولزيو لن يجرؤ على تحليل الوثائق من قِبل خبراء حقيقيين، لأن ذلك سيتضمّن الإعلان علناً عن شكوكه ومخاطرة أن يُكذَّب.

نجحت المقامرة. فضّل تريفولزيو، الذي لم يُرد أن يفقد ماء وجهه بإطلاق اتهام لن يستطيع إثباته، أن يماطل.

— سأنتظر ردّ فرنسا قبل أن أقرّر ما سيلي. في هذه الأثناء، يا سيد ميلزي، أنصحك بألا تبيع أي عمل مهمّ. إن كشف تحقيقي مخالفات، فقد تُلغى هذه المبيعات وستُلزَم بردّ المال للمشترين.

— أُدوّن نصيحتك، أجاب فرانشيسكو. لكنني سأواصل إدارة إرثي كما أرى، ضمن حدود القانون.

على هذه الكلمات، غادر فرانشيسكو وبومبيو الأسقفية. بمجرد وصولهما إلى الشارع، أطلق بومبيو تنهيدة ارتياح.

— لعبت بحذر شديد. لو جعل تريفولزيو وثائقك تُفحص من قِبل خبراء...

— لن يفعل، قاطعه فرانشيسكو. إنه رجل دين، لا قاضٍ. ليس لديه السلطة ولا الوسائل لإجراء تحقيق قضائي حقيقي. كل ما يستطيع فعله، هو طرح الأسئلة والأمل بأن أفضح نفسي. لكنني لن أفضح نفسي.

الرسالة من فرنسا

في يوليو 1526، تلقّى تريفولزيو الردّ الذي كان ينتظره من فرنسا. كتب له المونسينيور دو بيلاي:

«أيها الأب المبجَّل جداً، حقّقت كما طلبت مني في قضية ليوناردو دافنشي هذه. راجعت أرشيف غرفة الحسابات واستجوبت الضباط الذين أجروا جرد أملاك الفقيد عام 1519. إليك ما استطعت إثباته:

لا يوجد أي أثر لرسائل تجنّس مُنحت لليوناردو دافنشي في السجلات الرسمية. تحقّقت مرّتين، والنتيجة نفسها: لم تُسجَّل أي رسالة خاصة بهذا الاسم بين 1515 و1519.

لا يذكر جرد أملاك الفقيد، الذي أعدّه السيد إتيان ديلوين والسيد غيوم دو مونكورنيه في مايو 1519، أي وصية. صُودرت الأعمال بحق الغريب، وفقاً للقانون المطبَّق على الأجانب المتوفّين من دون تجنّس.

لا تظهر عدة أعمال مهمّة في الجرد بينما كان يجب أن تكون موجودة فيه، خصوصاً قديس يوحنا معمدان وليدا مع بجعة كانا في ورشة المعلّم قُبيل موته.

تُوحي هذه العناصر بقوّة أن السيد ميلزي انتزع أعمالاً من الجرد الملكي وزوّر وصية لتبرير حيازتها. مع ذلك، لم يُبدِ جلالة الملك فرانسوا أي نية لمتابعة هذه

القضية. يمتلك الملك بالفعل الجوكندا وعدة أعمال رئيسية أخرى، ولا يرغب في الانخراط في إجراءات مكلفة لاسترجاع قطع موجودة في إيطاليا.

في الختام، أنت محقّ في الاشتباه باحتيال، لكن لا يمكن إثبات هذا الاحتيال بيقين من دون الوصول إلى الوثائق الأصلية، وحتى لو أُثبت، لا يبدو أن لأحد مصلحة في متابعته».

أعاد تريفولزيو قراءة هذه الرسالة عدة مرات بمشاعر متضاربة. من جهة، تأكّدت شكوكه: سرق فرانشيسكو الإرث. ومن جهة أخرى، لم تبدُ أي سلطة مستعدّة لملاحقة القضية.

استدعى رجل الدين فرانشيسكو من جديد، لكن هذه المرة باستراتيجية مختلفة. لن يسعى بعد الآن إلى فضح المزوّر. سيسعى إلى الحصول على تنازلات.

— يا سيد ميلزي، أعلن تريفولزيو أثناء هذا اللقاء، تلقّيت معلومات من فرنسا لا تخدمك. مع ذلك، أنا رجل واقعي. أتفهّم أن بعض المواقف معقّدة. وأن القانون المكتوب لا يُنصف أحياناً الحقائق الأخلاقية.

بقي فرانشيسكو، مندهشاً من هذا التغيير في النبرة، صامتاً بحذر، منتظراً ليرى إلى أين يريد رجل الدين أن يصل.

— إليك ما أقترحه عليك، تابع تريفولزيو. لن أواصل تحقيقي. سأعترف علناً بالشرعية الظاهرية لإرثك. في المقابل، ستُهدي كنيسة ميلانو عملاً مهمّاً من مجموعتك. لنقل عشرة رسوم تُحفظ في مكتبة الأسقفية، متاحة للأطباء والعلماء.

فهم فرانشيسكو المناورة. لم يستطع تريفولزيو أن يفضحه قانونياً، فحاول ابتزازه. كان هذا ابتزازاً متنكّراً بترتيب ودّي.

كان ردّة فعله الأولى الاستياء. لكنه استعاد رباطة جأشه. ربما كان من الأفضل إرضاء تريفولزيو بدلاً من الإبقاء على عدوّ مؤذٍ.

— يا مولاي، أجاب فرانشيسكو بعد التفكير، اقتراحك مثير للاهتمام. مع ذلك، الرسوم التي تطمع فيها من بين أثمن ما في مجموعتي. قيمتها لا تُقدَّر. لو تنازلت عنها، لكان ذلك فقط بضمان مطلق أنك ستوقف كل تحقيق وستُدافع علناً عن شرعية إرثي.

— لك كلمتي، أكّد تريفولزيو.

— كلمة رجل دين ليست وثيقة قانونية، ردّ فرانشيسكو. أريد اتفاقاً مكتوباً، موقَّعاً ومختوماً، تلتزم فيه بالاعتراف بإرثي وبألا تُشكّك أبداً في حقوقي مرة أخرى.

تردّد تريفولزيو. وثيقة كهذه ستجعله شريكاً. لكنّ إغراء الرسوم كان قوياً جداً.

— حسناً. سيُحرّر كاتبي هذا الاتفاق.

أُعدّت الوثيقة في الأيام التالية. تأكّد فرانشيسكو، بمشورة بومبيو، أنها متينة قانونياً. التزم تريفولزيو بـ*«الاعتراف بشرعية وصحّة الإرث الذي تلقّاه السيد فرانشيسكو ميلزي من ليوناردو دافنشي الراحل»* وبـ*«وقف أي تحقيق حالي أو مستقبلي بشأن أصل ومصدر الأعمال المكوّنة للإرث المذكور»*.

في المقابل، سيُهدي فرانشيسكو للأسقفية عشرة رسوم بيد ليوناردو، إضافة إلى مبلغ مئة دوكات ذهبي لبناء كنيسة صغيرة جديدة في الكاتدرائية.

وُقّع الاتفاق في أغسطس 1526، بحضور شهود. بالنسبة إلى فرانشيسكو، كان انتصاراً مريراً. اضطرّ إلى التنازل عن أعمال ثمينة، لكنه حصل على الاعتراف الرسمي بإرثه من أحد أهمّ منتقديه. كان هذا الاعتراف يستحقّ الثمن المدفوع.

بعد التوقيع، قال له تريفولزيو بابتسامة غامضة:

— يا سيد ميلزي، لا أزال لا أعرف إن كانت وصيتك أصلية أم لا. لكنّ أمراً واحداً مؤكّد: أنت رجل ذكي وعازم بشكل لافت. أحسن المعلّم اختيار وريثه.

لم يعرف فرانشيسكو كيف يُفسّر هذه الكلمات. أكانت مجاملة صادقة؟ أم لسعة سخرية أخيرة؟ فضّل ألا يُجيب وغادر الأسقفية بوثائقه.

في الشارع، كان بومبيو ينتظره بقلق.

— إذن؟ تمّ الأمر؟

— تمّ. حصل تريفولزيو على فديته. حصلنا نحن على سلامنا.

— أحسنت. عشرة رسوم مقابل سلامة المجموعة كلها، هذه صفقة مقبولة.

أومأ فرانشيسكو برأسه، لكنه شعر بمرارة عميقة. كانت هذه الرسوم العشرة التي تنازل عنها تُمثّل سنوات من عمل ليوناردو. كانت قطعاً لا تُعوَّض. وضحّى بها ليشتري صمت رجل دين جشع.

— على الأقل، واسى بومبيو، ستُحفظ في مكتبة الأسقفية. لن تضيع. سيستطيع العلماء دراستها.

— إن لم يُدمّرها القساوسة باعتبارها أعمالاً فاسقة، ردّ فرانشيسكو بمرارة. تعلم ماذا تظنّ الكنيسة عن التشريح. يعتبرونه تدنيساً للأجساد.

— تريفولزيو ليس غبياً. يعلم أن لهذه الرسوم قيمة علمية. سيحميها.

أراد فرانشيسكو أن يصدّق ذلك. كان تريفولزيو قبل كل شيء جامعاً. ستُزيّن هذه الرسوم مكتبه الخاص بدلاً من المكتبة العامة.

سلّم بسرعة الرسوم العشرة الموعودة. اختار قطعاً ذات جودة عالية، لكن ليست الأكثر إتقاناً. بقيت دراسات القلب في حوزته، كذلك رسوم الجهاز العصبي أو بنية العين.

وفى تريفولزيو بوعده. نشر في الأوساط المثقّفة في ميلانو أن إرث فرانشيسكو *«شرعي تماماً ومؤكَّد بالوثائق المناسبة»*. عزّزت هذه الضمانة من رجل دين مشهور بنزاهته الفكرية موقفه بشكل كبير.

شعر الجامعون الذين كانوا يترددون في شراء أعمال ذات مصدر مريب بالطمأنينة. استؤنفت المبيعات بقوّة. حتى إنه استطاع أن يرفع أسعاره، مستفيداً من هذه الشرعية المستعادة.

لكنّ الثمن النفسي كان باهظاً. أدرك فرانشيسكو أنه سيبقى دائماً تحت رحمة محقّق جديد عنيد يطرح الأسئلة الصحيحة. اعتمد أمانه على توازن هشّ بين معقولية وثائقه وغياب رغبة السلطات في الحفر عميقاً.

الزواج

في عام 1527، اتّخذ فرانشيسكو قراراً سيُغيّر حياته: تزوّج. في عمره، حان الوقت لتأسيس أسرة، ولو للحفاظ على المظاهر الاجتماعية. كان رجل في مرتبته يبقى عازباً يُثير شكوكاً. كانت تدور همسات بأن له سلوكيات منحرفة، بأنه أقام علاقة حميمة جداً مع معلّمه الراحل.

أضرّت هذه الشائعات، رغم أنها لا أساس لها — كانت العلاقة بين فرانشيسكو وليوناردو دائماً علاقة معلّم بتلميذ —، بسمعته. كان الزواج أفضل وسيلة لإسكاتها.

استُرشد اختيار الزوجة باعتبارات عملية. كان يبحث عن امرأة من عائلة طيبة، لكن من دون ثروة مفرطة، تمنحه الاحترام من دون طرح أسئلة كثيرة عن أنشطته. وجدها في شخص أنجيليكا لاندرياني.

كانت أنجيليكا في الرابعة والعشرين من عمرها، الابنة الصغرى لعائلة نبيلة لومبارديةصغيرة معدَمة. كان والدها، عسكرياً سابقاً، قد بدّد معظم إرث العائلة في القمار. لم تكن لأنجيليكا مهر كبير، مما قلّل فرصها في زواج جيد. بالنسبة إليها، كان الزواج من فرانشيسكو ميلزي، مستشار الحاكم الفني ومالك قصر جميل، فرصة غير متوقّعة.

التقاها في استقبال في القصر الدوقي. كانت شابّة ذات ملامح لطيفة من دون أن تكون لافتة، ذات آداب مهذّبة، وذكاء متواضع لكن كافٍ. بدت مطواعة، غير فضولية، راضية بقدرها. بالضبط ما كان يبحث عنه.

احتُفل بالخطوبة في أبريل 1527، والزواج في يونيو. جرت المراسم في كنيسة سانتا ماريا ديلي غراتسيه، تبعتها وليمة في قصر ميلزي. حضرها نحو خمسين مدعوّاً: أعضاء من النبلاء الميلانيين، وفنانون، وتجار. حتى الحاكم دافالوس نفسه شرّف المناسبة بحضوره.

كان بومبيو شاهد فرانشيسكو. في خطابه، أثنى على مزايا العريس وأعرب عن أمله بأن يُبارك هذا الزواج بأبناء كثيرين.

كانت ليلة الزفاف بالنسبة إلى فرانشيسكو امتحاناً أكثر منها متعة. كان عليه أن يُنجز واجبه الزوجي، لكنّ قلبه لم يكن فيه. خضعت أنجيليكا، المُربّاة على أشدّ التقاليد صرامة، بشكل سلبي، من دون أن تُظهر متعة أو استياء.

أنشأ فرانشيسكو وأنجيليكا روتيناً زوجياً لائقاً. كانا يتقاسمان الفراش نفسه، ويتناولان وجباتهما معاً، ويحضران القدّاسات جنباً إلى جنب. لكن لم تربطهما أي حميمية عاطفية حقيقية. كان ترتيباً عملياً أكثر منه اتحاد حبّ.

تبيّنت أنجيليكا زوجة فعّالة. كانت تُدير البيت بكفاءة، وتُشرف على الخدم، وتستقبل المدعوّين بلطف. لم تطرح قط أسئلة محرجة عن أنشطة زوجها، ولم تسعَ إلى فهم أسرار مجموعته من الأعمال الفنية.

كان فرانشيسكو واضحاً منذ البداية: العليّة في القصر، حيث كان يصون أثمن كنوزه، محرّمة تماماً على أنجيليكا. كانت مجاله الخاص الذي يجب ألا تدخله أبداً. قبلت أنجيليكا هذه القاعدة من دون احتجاج، كما كانت تقبل كل ما يقرّره زوجها.

الأبناء

في عام 1528، أنجبت أنجيليكا طفلهما الأول، ولداً سمَّياه أوراتسيو. شعر فرانشيسكو بعاطفة غير متوقّعة وهو يحمل ابنه المولود حديثاً. للمرة الأولى منذ سنوات، جرّب شيئاً لم يكن ملوّثاً بالكذب والخداع.

هل سيُصاب هذا الطفل البريء هو الآخر، يوماً ما، بالسرّ العائلي؟ أمل فرانشيسكو ألا يحدث ذلك. أراد أن يعيش أبناؤه في جهل الحقيقة، وأن يؤمنوا بصدق بشرعية الإرث العائلي.

لكن في الوقت نفسه، سيتعيّن على شخص ما أن يعرف الحقيقة. سيتعيّن على شخص ما أن يواصل الخديعة بعد موته. طارده هذا المأزق لعقود.

في عام 1530، وُلد الابن الثاني، فرانشيسكو الابن، الملقّب تشيكّو تمييزاً له عن والده. ثم في عام 1532 جاءت إليزابيتا، الابنة التي طالما أملتها أنجيليكا.

بثلاثة أبناء، أصبح قصر ميلزي بيتاً عائلياً حقاً. رنّت صرخات الأطفال في الممرّات، وازدحمت الغرف بالألعاب، وتعاقبت المرضعات والمربّيات. اضطرّ فرانشيسكو، الذي عاش لسنوات في صمت مجموعته المدروس، إلى التكيّف مع هذا الصخب المنزلي.

أثبت أنه أب منتبه، وإن كان بعيداً بعض الشيء. كان يقضي وقتاً مع أبنائه في المساء، يروي لهم قصصاً، ويُريهم رسوماً — أبداً أعمال ليوناردو، دائماً نسخه الخاصة —، ويُعلّمهم مبادئ الرسم والهندسة.

أظهر أوراتسيو، الأكبر، ذكاءً حادّاً وفضولاً لا يشبع. باكراً جداً على عمره، كان يطرح أسئلة محرجة عن مصدر ثروة العائلة، عن إرث ليوناردو العظيم الغامض الذي يتحدّث عنه الجميع.

— يا أبي، سأل ذات مساء بينما كان فرانشيسكو يُنيمه، لماذا لدينا كل هذه اللوحات والأوراق في العليّة؟ لماذا لا أستطيع رؤيتها؟

— ستراها حين تكبر. الآن، أنت صغير جداً على فهم قيمتها وأهميتها.

— لكنه إرث المعلّم العظيم، أليس كذلك؟ المعلّم الذي علّمك كل شيء؟

— نعم يا ولدي. يوماً ما، سيصبح كل هذا لك. وسيتعيّن عليك أن تحميه كما أحميه أنا.

— أحميه من من؟

تردّد فرانشيسكو. كيف يشرح لطفل في الخامسة أن الإرث العائلي يقوم على سرقة وتزوير؟

— من الذين لا يفهمون قيمة الفنّ. من الذين قد يريدون تدمير أو تبعثر ما خلقه المعلّم. أتفهم؟

أومأ أوراتسيو برأسه، من دون أن يفهم. لكن تركت هذه الأحاديث انطباعاً عميقاً في ذهنه الصغير. كان ينمو بوعي أن سرّاً عائلياً موجود، شيئاً مهماً سيُكشف له لاحقاً.

كان فرانشيسكو الابن، الأصغر، مختلفاً جداً عن أخيه الأكبر. كان صبياً مرحاً، خفيف الظلّ، أكثر اهتماماً بالألعاب والخيول من الفنّ أو الكتب. فهم فرانشيسكو أن هذا الابن لن يكون قط حارس الإرث. كان أوراتسيو من سيحمل العبء.

أما إليزابيتا، فنمت كفتيات عصرها، متعلّمة لتصبح زوجة صالحة وأمّاً صالحة. كان فرانشيسكو رقيقاً معها، لكنه لم يفكّر لحظة في تلقينها أسرار الإرث. في مجتمع أبوي، كانت الأسرار العائلية تُنقل من الأب إلى الابن، أبداً إلى البنات.

الازدهار والتوطيد

كانت أربعينيات القرن السادس عشر سنوات ازدهار نسبي. جلب له الزواج الاحترام الاجتماعي الذي كان يبحث عنه. نما أبناؤه بصحة جيدة. وبدلاً من أن تتقلّص مجموعته من أعمال ليوناردو مع المبيعات، ازدادت قيمتها مع الزمن.

لأن فرانشيسكو فهم مبدأً أساسياً في سوق الفنّ: الندرة تخلق الثمن. كلما باع بتقتير، ازدادت قيمة الأعمال التي يحتفظ بها. أصبح الجامعون الأوروبيون الآن يتنافسون على شرف اقتناء ولو رسم ثانوي واحد بيد ليوناردو.

أصبح تاجر فنّ محترفاً. طوّر شبكة من العملاء عبر أوروبا كلها: كرادلة في روما، وأمراء في فرنسا، ومصرفيون في البندقية، ونبلاء في نابولي. كانت كل عملية بيع مُدبَّرة بعناية لتعظيم الربح مع تقليل المخاطر.

واصل بومبيو أداء دور حاسم كوسيط ومستشار. ربطت الرجلين صداقة عميقة عبر السنين. أصبح بومبيو الشخص الموثوق الذي لم يستطع سالاي أن يكونه أبداً: ذكياً، ومتكتّماً، وموثوقاً.

كل مساء جمعة، كان بومبيو يأتي ليتعشّى في قصر ميلزي. بعد الوجبة، بينما تنسحب أنجيليكا مع الأطفال، كانا يُغلقان على نفسيهما في مكتب فرانشيسكو لمناقشة الأعمال.

— تلقّيت رسالة من الكاردينال فارنيزي، أعلن بومبيو ذات مساء من نوفمبر 1535. يرغب في اقتناء سلسلة من الرسوم المعمارية. مستعدّ لدفع حتى مئتي دوكات.

— فارنيزي؟ الكاردينال الذي انتُخب للتوّ بابا؟

— هو نفسه. اتّخذ اسم بولس الثالث. تخيّل القيمة التي ستكتسبها هذه الرسوم إن اشتراها البابا شخصياً!

فكّر فرانشيسكو. كان البيع للبابا فرصة استثنائية. ستجعل ضمانة البابا شرعية مجموعته منيعة نهائياً. لكن كان ذلك أيضاً محفوفاً بالمخاطر. كان الفاتيكان يملك وسائل تحقيق هائلة. لو كشف تحقيق الخديعة، لكانت العواقب كارثية.

— لا أعلم. قد يطرح الفاتيكان أسئلة محرجة عن المصدر.

— على العكس. البابا فارنيزي هاوي فنّ شغوف، لا محقّق تفتيش. يريد أعمالاً لليوناردو لمجموعته الشخصية، لا للتحقيق في أصلها. ثم فكّر في الحماية التي ستمنحك إياها رعاية البابا. من سيجرؤ على مهاجمة رجل يشتري البابا نفسه أعماله؟

أقنعت هذه الحجّة فرانشيسكو. نُظّمت المعاملة. اختار خمسة عشر رسماً معمارياً لليوناردو — مخططات تحصينات، ودراسات قِباب، ومشاريع كنائس. لم تكن قطعاً رئيسية، لكنها كانت ذات صنعة جميلة ولافتة بما يكفي لتُرضي جامعاً بابوياً.

جرت عملية البيع في يناير 1536، في روما. سافر فرانشيسكو برفقة بومبيو. كانت زيارته الأولى للمدينة الخالدة منذ سنوات تبعه فيها لليوناردو بين 1513 و1516.

تغيّرت روما. كانت المدينة لا تزال تحمل ندوب النهب الرهيب عام 1527، حين نهبت القوات الإمبراطورية ودمّرت لأسابيع. لكنّ إعادة الإعمار كانت جارية بالفعل. في كل مكان، كانت تنهض قصور جديدة، شاهدة على مرونة المدينة.

استُقبلا في الفاتيكان بالاحترام الذي يليق بتجار فنّ رفيعي المستوى. استقبلهما البابا بولس الثالث في مكتبته الخاصة.

فحص طويلاً الرسوم المعروضة، رافعاً إياها نحو الضوء، مقارناً إياها بأعمال أخرى لليوناردو يحوزها بالفعل.

— هذه الرسوم رائعة. نُميّز فوراً يد المعلّم. هذه الدقّة في الخطّ، هذه الصرامة الهندسية... نعم، هذه بالفعل أعمال أصلية لليوناردو.

— لقداستك عين خبير، أجاب فرانشيسكو بالتبجيل المناسب.

— عرفنا ليوناردو في حياته، أتعلم. كنّا آنذاك كارديناليًا، وكان يعمل لسلفنا ليون العاشر. رجل استثنائي، وإن كان متقلّباً جداً. كان يبدأ مئة مشروع من دون أن يُنهي واحداً قط!

ابتسم فرانشيسكو بلطف لهذه النادرة. تابع البابا:

— لكن، أخبرنا، يا سيد ميلزي، كيف ورث رجل شاب مثلك مجموعة كهذه؟ لم يكن عمرك سوى... كم، تسعة وعشرين عاماً حين مات المعلّم؟

كان السؤال، المطروح بودّ ظاهري، اختباراً في الواقع. فهم فرانشيسكو ذلك فوراً. كان عليه أن يُجيب بتفاصيل كافية تُرضي فضول البابا، لكن من دون أن يقول الكثير.

— تشرّفت بخدمة المعلّم لثلاثة عشر عاماً، يا قداسة البابا. من السادسة عشرة حتى موته. كنت أكثر من مجرّد تلميذ. كنت مساعده، وكاتبه، شبه ابنه بالتبنّي. لم يكن للمعلّم ورثة مباشرون. رأى من المناسب أن يُوصي لي بمعظم أعماله، عالماً أنني سأعرف كيف أصونها.

— وصية إذن؟

— نعم، يا قداسة البابا. حُرّرت بالأصول القانونية، أمام موثّق، وفقاً للقوانين الفرنسية.

— آه، فرنسا... مملكة محظوظة تمتلك الجوكندا. حاولنا اقتناءها لمجموعاتنا، لكنّ الملك فرانسوا يرفض قطعياً الانفصال عنها. يدّعي أنها بورتريهه المفضّل!

انحرف الحديث نحو مواضيع فنية أخرى. ذكر البابا مشاريعه للفاتيكان، والجداريات التي ينوي طلبها، والمنحوتات التي يرغب في اقتنائها. أجابه فرانشيسكو بحصافة، مُظهراً خبرته.

قبل البابا شراء الرسوم الخمسة عشر مقابل مئتين وخمسين دوكات ذهبي — خمسون أكثر من الثمن المذكور في البداية. نجح فرانشيسكو ليس فقط في البيع للبابا، بل أيضاً في الحصول على ثمن أعلى من توقّعاته.

بعد مغادرة الفاتيكان، احتفل بومبيو وفرانشيسكو بنجاحهما في حانة رومانية.

— ابتلع البابا الطعم. الآن، يمكنك أن تقول إن البابا نفسه يُصادق على مجموعتك!

— لم أكذب تماماً. الوصية موجودة فعلاً. كونها مزيّفة تفصيل تقني.

ضحكا معاً. كانت كل عملية بيع، وكل كذبة ناجحة، تحفر أكثر الهوّة بين الرجل الذي أصبحه والرجل الذي حلم بأن يكونه في شبابه.

1550: الكشف لأوراتسيو

في عام 1550، كان أوراتسيو في الثانية والعشرين من عمره. أصبح شاباً مكتملاً: ماهراً، ومثقّفاً، ومتوازناً. درس الآداب الكلاسيكية، والرسم، والعمارة. اهتمّ خصوصاً بأعمال ليوناردو، مستجوباً باستمرار والده عن تقنيات المعلّم، واكتشافاته، وعبقريته.

كان فرانشيسكو يراقب ابنه بمشاعر متضاربة. سيكون أوراتسيو الخليفة المثالي لإدارة الإرث. لكن لذلك، كان يجب كشف الحقيقة له. وكان فرانشيسكو يخشى هذه اللحظة منذ سنوات.

جاء المحفّز من اقتراح لأوراتسيو. ذات مساء، بعد العشاء، خاطب الشاب والده في مكتب العمل.

— يا أبي، لديّ اقتراح. أراضي تريتسو للبيع. إنها ضيعة رائعة، خصبة جداً، ستدرّ الكثير. لكن لشرائها، سنحتاج إلى بيع جزء من المجموعة.

شعر فرانشيسكو بارتباك. سيلفت بيع جزء من المجموعة الانتباه، ويوقظ الشكوك، ويخاطر بانهيار صرح الأكاذيب.

— هذه الأعمال ليست للبيع، أجاب بجفاء.

— لكن يا أبي، لدينا المئات منها! بيع خمسين رسماً لن يُحدث أي فرق. وسيسمح لنا باقتناء أراضٍ تُثري العائلة.

— لا تفهم، يا أوراتسيو. هذه الأعمال خاصة. لا يمكن بيعها هكذا، من دون احتياط.

— لماذا؟ ما الخاصّ فيها لهذه الدرجة؟ إنها رسوم لليوناردو، رائعة صحيح، لكن لدينا الكثير منها! لماذا هذا الغموض؟

فهم فرانشيسكو أن اللحظة قد حانت. لم يعد يستطيع التهرّب من الأسئلة. كان أوراتسيو كبيراً بما يكفي، ناضجاً بما يكفي ليعرف الحقيقة. وإن كان سيرث يوماً ما، وجب أن يعرف على أي أسس هشّة تقوم ثروتهم.

— اجلس، يا ولدي. علينا أن نُجري حديثاً أجّلته طويلاً جداً.

روى فرانشيسكو كل شيء. روى موت ليوناردو، وحق الغريب، والقرار اليائس بانتزاع الأعمال، وليلة السرقة، وتزوير الوصية، وسنوات الكذب، وقضية تريفولزيو، والمبيعات المتعاقبة.

استمع أوراتسيو بصمت، ووجهه ينتقل من الدهشة إلى عدم التصديق، ثم إلى الرعب. كان ينظر إلى والده وكأنه يراه للمرة الأولى.

— كذبتَ لثلاثين عاماً؟ همس. كل قصة الوصية الشرعية هذه... كانت مزيّفة؟

— نعم، اعترف فرانشيسكو. كذبت لحماية الإرث. ولحمايتنا.

— لكن إن انكشفت الحقيقة، سنخسر كل شيء! سمعتنا، وثروتنا، وربما حتى حريتنا!

— لهذا يجب أن تكون حذراً. المبيعات الضخمة التي تُفكّر فيها مستحيلة. ستلفت الانتباه، وتوقظ الشكوك.

أمسك أوراتسيو رأسه بيديه.

— يا أبي، وضعتني في موقف مستحيل. عليّ الآن أن أحمل هذا السرّ، وأعيش في الخوف، وأكذب أنا الآخر.

— أعلم، أجاب فرانشيسكو بحزن. لكنه كان ضرورياً. كان على شخص أن يعرف. كان على شخص أن يواصل حماية الإرث بعد موتي.

— وأبنائي؟ وأحفادي؟ هل سيحملون جميعاً هذا العبء؟

— طالما كان ذلك ضرورياً. حتى يمرّ وقت كافٍ كي لا يستطيع أحد أن يُقلقنا بعد الآن. ربما قرن. ربما قرنان.

— قرنان من الأكاذيب، همس أوراتسيو. أيّ إرث تتركه لنا هذا.

— إرث العبقرية، اعترض فرانشيسكو. لولانا، لكان قد ضاع. أليس هذا ثمناً مقبولاً؟

لم يُجب أوراتسيو. غادر المكتب من دون كلمة، تاركاً فرانشيسكو وحيداً مع ندمه.

المصالحة

بقيت العلاقات بين فرانشيسكو وأوراتسيو متوتّرة أشهراً عدة. كان أوراتسيو يتجنّب والده، بالكاد يخاطبه خلال الوجبات العائلية. حاولت أنجيليكا، التي شعرت بالضيق من دون معرفة سببه، أن تُصالحهما.

— ماذا حدث بينكما؟ كانت تسأل فرانشيسكو. لماذا يعاملك أوراتسيو ببرود كهذا؟

— خلافات بشأن إدارة الإرث، كان فرانشيسكو يجيب. لا شيء خطير. سيمرّ الأمر.

لكنّ الأمر لم يمرّ. بدا أوراتسيو عاجزاً عن قبول الكشف الذي دمّر الصورة المثالية التي كوّنها عن والده.

كان بومبيو، الذي كانت صحته تتدهور بسرعة، من أخذ الكلمة ليُصالح الأب والابن. في فبراير 1552، استدعى أوراتسيو لحديث خاص.

— أيها الشاب، قال له النحّات المسنّ، تحكم على والدك بصرامة الشباب الذي لم يواجه قط خيارات مستحيلة. وجد والدك نفسه أمام مأزق: أن يدع عبقرية ليوناردو تتبعثر وتضيع، أو أن يتصرّف خارج القانون لإنقاذها. اختار الخيار الثاني. أكان ذلك صائباً أخلاقياً؟ لا أعلم. لكنه كان مفهوماً إنسانياً.

— سرق، ردّ أوراتسيو. كذب. خدع أناساً واثقين.

— أنقذ كنوزاً كانت ستضيع. تحوي هذه المخطوطات التي انتزعها والدك اكتشافات سابقة للعلم الطبّي بقرون عدة. لو صادرها العملاء الفرنسيون، لانتهى بها الأمر في قبو، يقرضها الفئران. بفضل والدك، صينت، ودُرست، ونُقلت.

— بأيّ ثمن؟ بثمن شرف عائلتنا؟

— الشرف؟ كرّر بومبيو بابتسامة حزينة. يا ولدي، الشرف رفاهية يستطيع أن يتحمّلها من لم يواجه قط خيارات مؤلمة. لم يحظَ والدك بهذه الرفاهية. اضطرّ

إلى الاختيار بين ضميره الأخلاقي وصون العبقرية. اختار العبقرية. أيمكنك أن تلومه؟

بقي أوراتسيو صامتاً، يُفكّر.

— والآن، تابع بومبيو، تواجه الخيار نفسه. إما أن تكشف الحقيقة وتُدمّر عائلتك، أو أن تواصل الكذب وتصون الإرث. ماذا ستختار؟

— لا أعلم، اعترف أوراتسيو. لا أعلم حقاً.

— إذن، خذ وقتك للتفكير. لكن بينما تُفكّر، لا تُعاقب والدك على فعله ما ظنّ أنه صواب. حمل هذا الثقل وحده لثلاثين عاماً. يستحقّ على الأقل تعاطفك، إن لم يكن موافقتك.

كان لهذا الحديث أثر عميق في أوراتسيو. بدأ في استئناف علاقته بوالده. أصبح التواصل ممكناً من جديد، وإن ظلّ متوتّراً.

ذات مساء، عاد أوراتسيو إلى مكتب فرانشيسكو.

— يا أبي، أعلن بصوت منهك، فكّرت. سأفعل ما تطلبه. سأحمي السرّ. لكن بشرط.

— أيّ شرط؟

— أن تُعطيني كل التفاصيل. كل الوثائق، وكل الأدلّة، وكل أسماء الشركاء. يجب أن أعرف بالضبط أين المخاطر لأتجنّبها.

أومأ فرانشيسكو موافقاً بارتياح. أمضى الأشهر التالية يُلقّن أوراتسيو دقائق الخديعة. أراه الوثائق المزوَّرة، وشرح له كيف صنعها، وكشف له وجود الشركاء الثانويين، وعلّمه فنّ بيع الأعمال من دون إيقاظ الشكوك.

تعلّم أوراتسيو بسرعة. بعد أن قبل موقفه، أظهر مهارة مماثلة لمهارة والده في الإخفاء. نُقل السرّ. سيستمرّ الكذب.

الوثيقة المختومة

في عام 1555، اتّخذ فرانشيسكو قراراً طارده منذ سنوات. حرّر وثيقة كاملة تروي القصة بأكملها، من موت ليوناردو حتى الحاضر. ستُختم هذه الوثيقة وتُحفظ في الأرشيف العائلي، ألا تُفتح إلا من قِبل الأجيال القادمة، حين يمرّ وقت كافٍ يسمح بكشف الحقيقة من دون خطر.

أمضى ميلزي أسابيع يُحرّر هذا النصّ. أراده أكثر من مجرّد سرد للأحداث. أراد أن يشرح دوافعه، وشكوكه، ومبرّراته. أراد أن تفهم الأجيال القادمة لماذا تصرّف هكذا وماذا كان يأمل تحقيقه.

بدأت الوثيقة هكذا:

«إليكم من ستقرؤون هذه السطور بعد قرن أو أكثر، أريد أن أروي القصة الحقيقية لإرث ليوناردو دافنشي، قصة تختلف عمقاً عن تلك التي يعرفها العالم.

اسمي فرانشيسكو ميلزي. كنت التلميذ الأقرب لليوناردو دافنشي لثلاثة عشر عاماً، من 1506 إلى 1519. عشت إلى جانبه، وتعلّمت منه، وأحببته كما يحبّ الابن والده. حين مات في أمبواز، بفرنسا، في الثاني من مايو 1519، وجدت نفسي أمام خيار رهيب.

كانت القوانين الفرنسية، عبر حق الغريب، تمنح التاج كل أملاك أجنبي مات من دون تجنّس. لم يحصل ليوناردو قط على رسائل تجنّس. كان يجب إذن أن يعود كل إرثه إلى ملك فرنسا. صُودرت الأعمال الرئيسية — الجوكندا، والقديسة آنّا — وأصبحت الآن جزءاً من المجموعات الملكية.

لكن خلال الليلة التي تلت موته، اتّخذت أنا ورفيقي سالاي قرار انتزاع بعض الأعمال من الجرد الذي كان سيُجرى. أخفينا مخطوطات تحوي أبحاثاً علمية،

ودراسات تشريحية بدقّة لا مثيل لها، ورسائل عن الطيران والهيدروليك. انتزعنا أيضاً القديس يوحنا المعمدان وليدا مع البجعة.

أكانت سرقة؟ قانونياً، نعم. أخلاقياً، لطالما اعتقدت أنها لم تكن كذلك. كانت هذه الأعمال ستضيع، وتتبعثر، وتُدمَّر. كانت عبقرية ليوناردو ستُبتَر، منزوعة من بُعدها العلمي الذي كان ربما أهمّ حتى من بُعدها الفني».

واصل فرانشيسكو روايته عبر عشرات الصفحات، مُفصّلاً كل خطوة. شرح كيف زوّر الوصية، وكيف ابتكر المراسلات المُدَّعاة، وكيف أدار قضية تريفولزيو، وكيف باع الأعمال محافظاً على وهم الشرعية.

انتهت الوثيقة بتأمّل فلسفي:

«لا أعلم إن كنت قد أحسنت الفعل. يُطاردني هذا السؤال كل يوم. كذبت، وسرقت، وخدعت. حمّلت ذريتي عبئاً رهيباً. لكنني أنقذت أيضاً كنوزاً كانت ستضيع لولا ذلك.

ماذا سيفعل بهذه الوثيقة من يفتحها بعد قرن أو قرنين؟ هل سيُعلنها، كاشفاً بذلك الحقيقة ومدمّراً سمعة عائلتنا؟ أم سيُبقيها سرّاً، مديماً الكذب أطول بعد؟

لا أستطيع أن أُملي هذا القرار. يجب أن يتّخذ كل جيل خياراته الأخلاقية الخاصة. كل ما أستطيع قوله، هو أنني تصرّفت وفق ضميري، مهما كان ناقصاً. حاولت أن أخدم الجمال والعبقرية، حتى باستعمال وسائل مثيرة للجدل. فلتحكم عليّ الأجيال القادمة. أقبل ذلك».

وقّع فرانشيسكو الوثيقة وأرّخها: *«فرانشيسكو ميلزي، ميلانو، 15 أغسطس 1555»*. ختمها بشمع أحمر موسوم بختمه الشخصي، ثم وضعها في صندوق معدني أغلقه بمفتاح.

استدعى أوراتسيو وسلّمه الصندوق بجلال.

— تحوي هذه الوثيقة كل الحقيقة عن إرثنا. يجب ألا تُفتح إلا حين يمرّ وقت كافٍ كي لا يستطيع الكشف أن يضرّ العائلة بعد ذلك. ربما بعد مئة عام. ربما أكثر.

— كيف سأعرف متى تحين اللحظة؟ سأل أوراتسيو.

— لن تعرف. سيكون على ذريتك أن يقرّروا ذلك. دورك هو أن تنقل هذا الصندوق لابنك الأكبر، بالتعليمات نفسها. وهكذا من جيل إلى جيل، حتى يجد أحدهم الشجاعة لفتح صندوق باندورا هذا.

أخذ أوراتسيو الصندوق بإجلال، مدركاً الوزن الرمزي لما يحمله بين يديه.

— سأنقله بأمانة، وعد.

الانحدار

شهدت الستينيات من القرن السادس عشر انحدار فرانشيسكو الجسدي. في السبعين من عمره، أصبح رجلاً عجوزاً، شعره أبيض، وظهره منحنياً، ومشيته متردّدة. لكن بقي ذهنه حاداً، وواصل الإشراف على إدارة المجموعة والمبيعات العرضية.

توفّي بومبيو عام 1558. أثّر موته عميقاً في فرانشيسكو، الذي فقد بذلك آخر رابط حيّ له بزمن ليوناردو. كان بومبيو أكثر من شريك أو صديق. كان الشخص الموثوق، والمستشار، والدعم الأخلاقي الذي من دونه لم يكن ليستطيع على الأرجح الحفاظ على حياته المزدوجة طوال كل هذه السنوات.

توفّيت أنجيليكا هي الأخرى، عام 1562، جرفتها حمّى استنزفتها في أيام قليلة. بكاها فرانشيسكو بصدق، رغم أن زواجهما لم يكن قط اتحاد حبّ عاطفي. كانت

زوجة مخلصة، وأمّاً وفيّة، وربّة بيت كفؤة. استحقّت أفضل من أن تتزوّج رجلاً ينخره سرّ لم يستطع مشاركته معها.

كان فرانشيسكو يعيش الآن في ذكرياته. كان يقضي ساعات طويلة في الورشة السرّية بالعليّة، يتأمّل أعمال ليوناردو، ويعيد قراءة المخطوطات، ويستذكر السنوات التي أمضاها في خدمة المعلّم.

احتلّ القديس يوحنا المعمدان، الذي لم يبعه قط رغم عروض مغرية، مكاناً مركزياً في هذه الورشة الخاصة. كان ينظر إليه غالباً، يضيع في تأمّل تلك النظرة المرفوعة نحو السماء، وتلك الابتسامة الغامضة، وذلك الإصبع المشير نحو الأعالي.

— ماذا كنت لتفكّر في كل هذا، يا معلّم؟ كان يهمس أحياناً مخاطباً اللوحة. هل كنت لتُوافق على أكاذيبي؟ أم كنت لتُدينني؟

لم تكن اللوحة تُجيب. لكنّ فرانشيسكو أحبّ أن يتخيّل أن ليوناردو كان ليفهم، أن يكون ليغفر. لطالما كيّف المعلّم مبادئه مع الظروف. كان ليفهم أنه أحياناً، لخدمة خير أسمى، يجب أن نقبل بتجاوز القواعد العادية.

كان أوراتسيو يأتي غالباً لزيارة والده المسنّ. تحسّنت علاقاتهما كثيراً مع السنين. انتهى الأمر بأوراتسيو إلى قبول العبء الذي نُقل إليه، وأصبح الآن يُدير المجموعة بالحذر والمهارة نفسيهما لوالده.

— كيف تشعر اليوم يا أبي؟ كان أوراتسيو يسأل أثناء إحدى هذه الزيارات في خريف 1569.

— عجوزاً، يا ولدي. عجوزاً جداً. تؤلمني عظامي، وبصري يضعف، ويداي ترتجفان. لكن ذهني لا يزال صافياً. لا أزال أستطيع أن أستمتع بهذه العجائب التي أنقذناها.

وقفا أمام القديس يوحنا المعمدان، يتأمّلان معاً التحفة التي أقسم فرانشيسكو ألا يبيعها أبداً.

— ألم تندم قط؟ سأل أوراتسيو. بعد كل ما حدث، كل هذه الأكاذيب، كل هذه السنوات من الخوف؟

— ندمت على أنني اضطررت إلى الكذب، وأن أعيش في الخوف، وأن أُحمّل عائلتي سرّاً رهيباً. لكنني لا أندم على إنقاذ هذه الأعمال. انظر حولك. أليس هذا تبريراً كافياً؟

— أريد أن أصدّق ذلك، يا أبي. كي أستطيع أن أواصل العيش مع هذا السرّ.

— ستستطيع. أنت أقوى مما تظنّ. ويوماً ما، حين تنقل السرّ لابنك، ستفهم لماذا فعلت ما فعلته.

موت فرانشيسكو

في يناير 1570، شعر فرانشيسكو باقتراب نهايته. كان طريح الفراش منذ أسابيع عدة، منهكاً بحمّى مستمرّة لم يستطع الأطباء شفاءها. كانت أيامه معدودة.

استدعى أوراتسيو إلى فراشه.

— يا ولدي، قال بصوت واهن، لم يبقَ لي وقت طويل. أريد أن أقول لك بضعة أشياء أخيرة قبل أن أرحل.

جثا أوراتسيو قرب الفراش، آخذاً يد والده الهزيلة بيده.

— لا تتحدّث هكذا يا أبي. ستتعافى.

— لا، قاطعه فرانشيسكو. أنا طبيب نفسي. أعرف العلامات. الموت قريب. ويجب أن أنقل إليك تعليماتي الأخيرة.

سعل بصعوبة قبل أن يتابع:

— الصندوق المختوم الذي عهدت إليك به قبل خمسة عشر عاماً... لا يزال معك؟

— نعم يا أبي. إنه آمن في أرشيفي الشخصي.

— جيد. ستنقله لابنك الأكبر حين تشعر أن اللحظة حانت. وستقول له ما أقوله لك الآن: هذا السرّ عبء وشرف في آنٍ واحد. عبء لأنه يُجبر على الكذب، وعلى العيش في الخوف. وشرف لأنه يجعلنا حرّاس كنز لا مثيل له.

— سأقوله له، وعد أوراتسيو.

أغمض فرانشيسكو عينيه، جامعاً قواه لكلماته الأخيرة.

— كرّست حياتي لصون إرث ليوناردو. كانت مهمّتي، وواجبي، وسبب وجودي. الآن هذه المهمّة لك.

— كم من الوقت، يا أبي؟ كم من الأجيال سيتعيّن عليها أن تحمل هذا السرّ؟

— لا أعلم. ربما خمسة. ربما عشرة. ربما بعد مئتي عام، بعد ثلاثمئة عام، سيجد أحدهم الشجاعة ليفتح الصندوق ويكشف الحقيقة. أو ربما سيُحفظ السرّ إلى الأبد. لا أستطيع أن أتنبّأ بذلك.

فتح عينيه للمرة الأخيرة، مثبّتاً نظره على ابنه بحدّة تناقض ضعفه الجسدي.

— مهما حدث، يا أوراتسيو، عدني بأمر واحد: يجب أن تنجو الأعمال. هذا كل ما يهمّ. فلتُلطَّخ سمعتنا، وليُدنَّس اسمنا، لا يهمّ. لكن يجب أن تُصان أعمال المعلّم. هذا هو الجوهر.

— أعدك بذلك يا أبي. ستنجو الأعمال.

ابتسم فرانشيسكو بضعف، مرتاحاً بهذا الوعد.

— إذن أستطيع أن أموت مطمئناً. أُنجزت مهمّتي. الباقي بين يدَي الله والأجيال القادمة.

أغمض عينيه وغرق في نوم لن يستيقظ منه إلا لوقت قصير، قبل ساعات من موته.

توفّي فرانشيسكو ميلزي بسلام في السادس عشر من يناير 1570، بعد واحد وخمسين عاماً من موت ليوناردو دافنشي. كان قد بلغ التاسعة والسبعين من عمره. حتى النهاية، حفظ سرّه، لم يكشفه إلا لابنه أوراتسيو، وعهد باعترافه بعد الوفاة لوثيقة مختومة ستفتحها الأجيال القادمة يوماً ما.

كانت الجنازة مهيبة. احتفل الأسقف الأعظم بنفسه بالقدّاس في الكاتدرائية. حضر المراسم الحاكم الإسباني. تدافع عشرات الشخصيات من العالمين الفني والسياسي ليقدّموا آخر تكريم لمن كان التلميذ الحبيب لليوناردو والحارس الأمين لإرثه.

في خطابات التأبين، أُثني على إخلاص فرانشيسكو لمعلّمه الراحل، وتفانيه في صون أعمال العبقري، وسخائه تجاه المؤسسات الثقافية الميلانية. لم يذكر أحد المناطق المظلمة، والأسئلة العالقة عن المصدر الدقيق لمجموعته.

كان أوراتسيو، بثوب الحداد، يستمع إلى هذا الثناء بمشاعر متضاربة. لم يكن والده الوريث الأمين لوصية شرعية. كان لصّاً جريئاً، ومزوّراً موهوباً، ومحتالاً بارعاً.

لكنه كان أيضاً منقذاً. لولا تدخّله، لضاعت كنوز لا تُقدَّر بثمن. ستُميّز هذه الازدواجية — مجرم وبطل، لصّ وحارس — من الآن فصاعداً الإرث الذي يتلقّاه أوراتسيو.

بعد الجنازة، حين رحل كل المدعوّين، توجّه أوراتسيو وحيداً إلى الورشة السرّية في العليّة. تأمّل الأعمال التي صانها والده لأكثر من نصف قرن.

أُنقذ كل هذا بالكذب. سينجو كل هذا بفضل إدامة الكذب. أصبح أوراتسيو الآن حارس هذه الحقيقة المزدوجة: أصالة الأعمال وزيف مصدرها.

أخرج الصندوق المعدني الذي يحوي وثيقة والده المختومة. زنه، مغرياً للحظة بأن يكسر الختم ويقرأ هذه الشهادة بعد الوفاة. لكنه قاوم. كان والده واضحاً: هذه الوثيقة مُوجَّهة للأجيال المستقبلية، لا له.

— وداعاً يا أبي، همس في الورشة الخالية. عبؤك أصبح الآن عبئي. عسى أن أحمله بقدر ما حملته أنت.

نزل الدرج المؤدّي إلى العليّة، مُغلقاً الباب بعناية خلفه. عادت الورشة السرّية إلى الصمت والعتمة، حافظة كنوزها وأسرارها للعقود، والقرون القادمة.

في السنوات التالية، أدار أوراتسيو الإرث بالحذر والمهارة نفسيهما لوالده. باع أحياناً أعمالاً ثانوية لجامعين مختارين بعناية. أبقى على وهم شرعية المجموعة. نقل معرفته بالسرّ لابنه الأكبر، كارلو.

انتقل السرّ من ذرية إلى ذرية، وأضاف كل واحد طبقته الخاصة من الخديعة والتبرير. في القرن السابع عشر، حين بدت القضية ضائعة في ضباب الزمن، قرّر كارلو ميلزي أن يفتح الوثيقة المختومة، وفقاً لتعليمات جدّه فرانشيسكو.

سبّب الكشف صدمة داخل العائلة. اقترح بعض الأعضاء إعلان هذا الاعتراف بعد الوفاة. عارض آخرون ذلك، خشية العواقب القانونية والعار العائلي الناتج عنه.

بعد مداولات طويلة، وُجد حلّ وسط: ستُصان الوثيقة في الأرشيف العائلي، لكن لن يُفصح عن محتواها. أدام هذا القرار الكذب مع صون الحقيقة للتاريخ.

ستُميّز هذه الازدواجية عائلة ميلزي طوال قرون. سيتعيّن على كل جيل أن يتّخذ الخيار نفسه الذي اتّخذه فرانشيسكو: إدامة الكذب لحماية الإرث، أو كشف الحقيقة مخاطراً بفقدان كل شيء. وطوال قرون، سيختار الجميع الحفاظ على الكذب، مصبحين بذلك شركاء بعد الوفاة في السرقة الجريئة التي أنقذت العبقرية.

سينتقل السرّ من أب إلى ابن، عابراً القرون، ناجياً من الحروب، والثورات، والاضطرابات السياسية. في القرن الثامن عشر، خلال الحروب النابوليونية، سيأخذ بُعداً وطنياً: حماية الإرث الإيطالي من النهب الفرنسي. في القرن التاسع عشر، خلال حركة الوحدة الإيطالية (ريسورجيمنتو)، سيصبح رمزاً للمقاومة الثقافية الإيطالية. في القرن العشرين، خلال الحربين العالميتين، سينجو من القصف والاحتلال.

سيُعيد كل عصر ابتكار معنى الخديعة، مُكيّفاً إياها مع قيمه وشواغله الخاصة. لكن سيبقى السرّ نفسه سليماً، محمياً بحرّاس فهموا أن بعض الحقائق يجب أن تبقى مخفيّة كي ينجو الجمال.

على مرّ القرون، ستتبعثر المجموعة تدريجياً. ستجعل مبيعات متعاقبة، وهبات لمؤسسات، وتبرّعات استراتيجية، الأعمال التي أنقذها فرانشيسكو عام 1519 تنتهي في أعظم متاحف العالم. سيمتلك المتحف البريطاني، واللوفر، وأوفيتزي، والميتروبوليتان جميعها قطعاً صادرة عن كذبة ميلزي، من دون أن تعرف أبداً مصدرها الحقيقي.

سيبقى القديس يوحنا المعمدان، الذي أقسم فرانشيسكو ألا يبيعه أبداً، في العائلة حتى منتصف القرن التاسع عشر. في عام 1836، سيبيعه فيتوريو، آخر ذرية مباشرة لعائلة ميلزي، للوفر مقابل مبلغ كبير. ستنضمّ اللوحة إلى الجوكندا في المجموعات الفرنسية، مُغلقةً الدائرة التي بدأت قبل قرابة ثلاثة قرون.

كانت القصة بعيدة عن الانتهاء. كانت للتوّ تبدأ. ولأربعمئة وخمسين عاماً أخرى، ستحمي كذبة فرانشيسكو ميلزي عبقرية ليوناردو دافنشي، حتى أخيراً، في عام 2025، تنفجر الحقيقة في وضح النهار.

لكن حتى حينها، سيبقى السؤال قائماً: أكان فرانشيسكو ميلزي لصّاً أم منقذاً؟ مجرماً أم بطلاً؟ ستتوقّف الإجابة، كما دائماً، على من يطرح السؤال ولأيّ غاية.

لأن التاريخ، كالفنّ، ليس بسيطاً أبداً. مصنوع من مناطق رمادية، وخيارات مستحيلة، وأكاذيب تخدم الحقيقة وحقائق تُدمّر الجمال. فهم فرانشيسكو ميلزي هذا. ولهذا السبب نجت كذبته كل هذا الوقت.

الفصل 4: بنية الكذب

باريس، مكتب بيرتييه، 7 أكتوبر 2024

أغلق بيار بيرتييه الملفّ بحركة منهكة. أمامه، منتشرة على مكتبه، كانت الوثائق الاتهامية تُشكّل لائحة اتهام لا ترحم: نسخ مصوَّرة من المجلدات التسعة لفهرس أعمال فرانسوا الأول، ومراسلات بين مؤرّخي القرن التاسع عشر، وتحليلات فيلولوجية للوصية المزعومة، ودراسات مقارنة للخطوط.

انحنى مارشان نحو الشاشة حيث ظهر مقال ممسوح ضوئياً يعود إلى عام 1893.

— ما هذا؟

— مقال لأناتول دو مونتيغلون. *«وصية ليوناردو دافنشي»*، نُشر في وقائع اتحاد جمعيات الفنون الجميلة. أعجب قصة في هذه القضية كلها.

— أعجب من الباقي؟

— احكم بنفسك.

استقرّ بيرتييه في مقعده، يداه متصالبتان.

— نهاية القرن التاسع عشر. تتداول وصية ليوناردو، لكن فقط بترجمتها الإيطالية. لم يرَ أحد قط الأصل الفرنسي الذي كان يجب أن يُودَع لدى موثّق أمبواز عام 1519.

— أكان مكتب التوثيق لا يزال موجوداً؟

— نعم، بقي في العائلة نفسها منذ القرن الخامس عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر. كان آل بورو موثّقين من الأب إلى الابن. استمرارية استثنائية تعني أنه لو أُودعت الوصية هناك، لكانت المسوّدات الأصلية موجودة فيه. حاول كل مؤرّخي ذلك العصر الوصول إليها.

قطّب مارشان حاجبيه.

— من دون نجاح؟

— دائماً رفض مهذّب لكن قاطع. فشل مونتيغلون نفسه. الأب شوفالييه، مؤرّخ محلي مشهور، وشارل دو غراندميزون، أرشيفي

المقاطعة... جميعهم صُدّوا. يروي مونتيغلون ذلك: «*صُددنا بأدب وأناقة برفض قاطع*».

— تحت أيّ ذرائع؟

— تحت المبرّرات الكلاسيكية: أرشيف قديم لم يُصنَّف بعد، انتقال وشيك، وعود بأبحاث مستقبلية... كتب مونتيغلون: «*اعتبرنا الأمر مفهوماً*». كان قد فهم.

— والوثيقة؟

— في عام 1885 وقع حدث حاسم: انقرضت سلالة آل بورو. مات الممثّل الأخير من دون وريث ذكر. غيّر المكتب يده للمرة الأولى. ورث الموثّق الجديد، السيد مارتان، فوضى عارمة. كلّف أحد كتّابه بالفرز. اكتشف الكاتب أن أقدم الأرشيف، أرشيف القرن السادس عشر، مُخزَّن في براميل.

— براميل؟

— كانت ممارسة شائعة. يستشهد مونتيغلون بجاك-أوغست دو تو، المؤرّخ الكبير، الذي كان يصون مجموعاته هكذا. متينة، مانعة للتسرّب، حماية من الرطوبة والقوارض. في أحدها، وسط رزم من العقود القديمة، عثر الكاتب على وثيقة تُميّز نفسها.

أمرّر إصبعه على الشاشة.

— *«ليست المسوّدة الأصلية، بل نسخة قديمة على ورق من القرن السابع عشر، صُنعت بوضوح بسبب فضول والأهمية الاستثنائية للوثيقة»*.

— نسخة من القرن السابع عشر. بعد أكثر من قرن على الأحداث؟

— قرن ونصف، لأكون دقيقاً. وبالفرنسية، لا بالإيطالية. مما يُوحي بأن أصلاً فرنسياً كان موجوداً. نقل الكاتب الوثيقة لشخص يُدعى سكريب، أستاذ رسم في كلّية رومورانتان.

— رومورانتان؟ لماذا هناك؟

— أقام المعلّم هناك عامَي 1516–1517 لمشروع مقرّ ملكي لم يكتمل قط. قدّم سكريب الوثيقة لمؤتمر جمعيات الفنون الجميلة عام 1893.

نهض أمين المتحف وشرع في المشي جيئة وذهاباً.

— دعني ألخّص. لعقود، رفض آل بورو الوصول إلى أرشيفهم. ثم، فور انقراض العائلة وانتقال المكتب إلى يد جديدة، تُكتشف نسخة؟ مريح جداً. لو كان لدى آل بورو الأصل، لماذا هذا السرّ؟

— يُجيب مونتيغلون على ذلك بطريقة ما. يكتب: *«نعلم الآن أننا لن نجد المسوّدات القديمة للقرن السادس عشر وأن القطعة الأصلية ضائعة نهائياً»*.

— يا له من تلطيف. بماذا يُخبرنا هذا الاكتشاف؟

— في القرن السابع عشر، رأى أحدهم فائدة في نسخ هذه الوصية. وثيقة مهمّة بما يكفي لتستحقّ النسخ، لكنها ربما كانت تُثير مشاكل. وإلا، لماذا لا يُحفظ الأصل؟ اختفى الأصل بين القرن السابع عشر ونهاية القرن التاسع عشر. اختفاء... مناسب.

— مناسب؟

— لأن نسخة متأخّرة لا تُثبت شيئاً. لا فحص جدّي ممكن، ولا تحليل قِدَمي، ولا فحص للحبر، والورق، والأختام. مجرّد شهادة غير مباشرة. تُبقي قصة البرميل هذه على وهم أن أصلاً كان موجوداً بينما تجعل أدنى تحقّق مستحيلاً.

— أتظنّ أن ذلك كان متعمّداً؟ أن آل بورو أخفوا الأصل؟

— لا أستطيع إثبات شيء. لكن فكّر في التسلسل الزمني. لثلاثة قرون، حرصوا بغيرة على أرشيفهم. رفضوا وصول أهمّ المؤرّخين. ثم انقرضت العائلة، وتغيّر المكتب، وكأنّ بالمصادفة نجد نسخة لا تسمح بأي فحص، لكن تُبقي الأسطورة حيّة.

— مبالغ فيه، لكن ليس مستحيلاً.

— يتوافق مع النمط العام. في كل مرة نحفر، نجد آثاراً، لكن لا أدلّة قاطعة أبداً. خاصّية الخديعة المبنية جيداً.

عاد مارشان للجلوس.

— لماذا كان آل بورو ليحموا هذه الخديعة؟ أيّ مصلحة؟

— عدة فرضيات. أولاً، السرّ المهني. لا يكشف موثّق مخالفات أعمال أسلافه. سيُلقي ذلك بالشكّ على المهنة. ثانياً، الضغوط. ذرية ميلزي التي ربما اشترت الصمت. لن تكون المرة الأولى التي تستعمل فيها عائلة كبيرة نفوذها لإخفاء وثائق محرجة. وأخيراً، الافتراض الأبسط: لم يكن لديهم ما يخفونه لأنه لم يكن هناك شيء ليُوجد. لم يوجد الأصل قط. النسخة من القرن السابع عشر هي نفسها مزيّفة، صُنعت لتعزيز الأسطورة.

— يُقلقني تسلسل الأحداث. ثلاثة قرون من الصمت المطلق، ثم فجأة، تماماً حين انفجر الاهتمام بليوناردو في كل أوروبا، حين بدأ الفضوليون يطرحون الأسئلة الصحيحة، تُوجد نسخة.

— رأيت الجوهر. تُشكّل سنوات 1880–1890 نقطة تحوّل في الدراسات الليوناردية. نشر غوستاف أوزان سيرته، وحرّر شارل رافيسون–موليان مخطوطات المعهد. أصبح ليوناردو ظاهرة ثقافية كبرى. وفي هذه اللحظة بالضبط تظهر الوصية من جديد.

— جميلة جداً على أن تكون حقيقية. لو كنت آل بورو، ولو كان لديك سرّ عائلي، ما هي أفضل لحظة لكشفه؟

— تخيّل أنهم علموا دائماً أن هذه الوصية مثيرة للمشاكل. ربما حتى مزيّفة. لكن لم يستطيعوا قول شيء من دون تعريض شرف منصبهم للخطر. فحافظوا على الصمت. ثم مات آخر آل بورو. انقرضت

السلالة. لم يعد هناك حاجة لحماية السرّ العائلي. كيف يُكشف من دون أن يرتدّ ذلك على سمعة العائلة؟ تصبح قصة البرميل رائعة.

— بدأت أفهم. لا يتعيّن عليهم كشف أي شيء. الموثّق الجديد هو من يكتشف. آل بورو ماتوا، وكرامتهم محفوظة. وتسمح نسخة القرن السابع عشر بالحفاظ على الغموض.

— استراتيجية خروج مثالية. يُكشف السرّ، لكن لا يستطيع أحد اتهام آل بورو بالكذب. صانوا ببساطة وثيقة ربما لم يعرفوا طبيعتها الحقيقية.

— حتى الاكتشاف كان مدبَّراً؟

— بالأحرى، تمّ تسهيله. علم آخر آل بورو أنه سيموت من دون وريث، وأن المكتب سيغيّر يده. ربما ترك هذه الوثيقة في مكان سيُعثر عليها فيه. ليس بسهولة كبيرة، مما كان سيُثير الشبهات. لكن أيضاً ليس بصعوبة كبيرة. برميل بين براميل أخرى سينتهي كاتب دقيق بفتحه أثناء جرد. وفي الداخل، نسخة قديمة بما يكفي لتكون معقولة، وحديثة بما يكفي لتكون قابلة للقراءة، وقبل كل شيء، متأخّرة بما يكفي كي لا يكون أي فحص جدّي ممكناً.

أخرج وثيقة أخرى من درج.

— انظر. جرد لأرشيف المكتب أُجري عام 1860، قبل خمسة وعشرين عاماً من موت آخر آل بورو. خمّن ماذا نجد فيه؟

— لا ذكر للوصية؟

— لا شيء. الجرد مفصَّل. يُدرج مئات الوثائق من القرن السادس عشر. لكن ولا وصية واحدة لليوناردو دافنشي. إذن إما كانت مخفيّة في مكان لم يستطع حتى الجرد الرسمي إيجاده فيه، أو لم تكن موجودة بعد عام 1860، أو كانت موجودة، لكن اختار بورو ذلك العصر ألا يذكرها، عالماً أن وقته سيأتي.

— مذهل. مؤامرة تشمل عشرات الأشخاص.

— ليست مؤامرة. بل نقل. كان كل جيل من آل بورو يتلقّى السرّ من الجيل السابق. *«لدينا في أرشيفنا وثيقة مثيرة للمشاكل بشأن ليوناردو دافنشي. فقط ورثة عائلة ميلزي يستطيعون الوصول إليها. انقل هذه التعليمة لخليفتك»*. لا حاجة لتفسيرات مفصّلة. مجرّد توجيه بسيط، متكرّر من الأب إلى الابن.

— ولم يكسر أحد قط السلسلة؟

— لم يكن هذا التوجيه استثنائياً بالنسبة إليهم. سرّ من بين أسرار أخرى.

— إن كانت هذه النظرية صحيحة، فهذا يعني أن آل بورو كانوا يعرفون أن الوصية مزيّفة. كانوا شركاء منذ البداية.

— ليس بالضرورة شركاء نشطون. ربما كانوا ببساطة حرّاساً واعين. تخيّل: حوالي 1525، احتاج فرانشيسكو ميلزي، وقتها في ميلانو،

إلى تصديق وصيته المزوَّرة. ذهب ليرى موثّق أمبواز، غيوم بورو، جدّ السلالة.

— وقال له: *«صباح الخير، جئت لأُسجّل وصية مزوَّرة»*.

— لا، بالطبع. قدّم الوثيقة على أنها أصلية. لكن غيوم بورو، الذي لم يُولد أمس، رأى المشاكل. صياغات غير معتادة، وعناصر لا تنسجم. مثلاً غياب رسالة التجنّس، معلومة يعرفها الموثّق. أُتيح لفرانشيسكو خمس أو ست سنوات ليُتقن روايته، لكن بعض التفاصيل التقنية تفضح التصنيع المتأخّر. فرانشيسكو ميلزي نبيل ميلاني. ربما لديه مال ليشتري الصمت. يقبل بورو أن يغضّ الطرف، أن يحفظ *«الوصية»* في أرشيفه، مختومة، لكن من دون التصديق عليها. يمنحه ذلك نوعاً من الضمان. إن ساءت الأمور، يستطيع دائماً أن يقول إنه حفظ أثر هذه المخالفة.

شرع مارشان بالمشي جيئة وذهاباً.

— نظرية آسرة.

— لا دليل مباشر. لكن هناك مؤشّرات كثيرة تتقارب. رفض آل بورو العنيد لمنح الوصول إلى الأرشيف. غيابها من جرد 1860. الاكتشاف المناسب فور انقراض العائلة. وقبل كل شيء، حقيقة أنها نسخة من القرن السابع عشر لا الأصل من القرن السادس عشر.

— لماذا *«قبل كل شيء»*؟

— لأن نسخة من القرن السابع عشر، هي الحلّ الوسط المثالي. تُثبت أن الوثيقة كانت موجودة. بالضبط ما كنّا لنفعله لو أردنا كشف الحقيقة وإخفاءها في آنٍ واحد.

— ما يأسرني، هو ذكاء البناء. عند كل مستوى نجد بالضبط ما يكفي من المعلومات للحفاظ على الأسطورة، لكن لا يكفي أبداً لإثباتها نهائياً.

— فنّ الخديعة. لا نكذب أبداً كلياً. نترك آثاراً، لكن غير مؤكّدة. نخلق نظاماً يستطيع أن ينجو من صانعيه لأنه لا يعتمد على شخص، بل على مؤسسة.

— آل بورو كمؤسسة.

— كان لفرانشيسكو ميلزي عبقرية فهم أنه يحتاج إلى ضامن مؤسّسي. ليس مجرّد شركاء أفراد سيموتون حاملين سرّهم معهم. بل مؤسسة ستستمرّ.

تابع بيرتييه:

— لهذا تُهيمن عليّ هذه القضية منذ ثلاث سنوات. ليست مجرّد وثيقة مزيّفة. إنها بنية كذب كاملة، إنشاء متقن لدرجة أنه نجا خمسة قرون. لم يكن فرانشيسكو ميلزي مجرّد لصّ انتهازي. كان استراتيجياً فكّر على المدى الطويل جداً.

— لو افترضنا أن نظريتك صحيحة...

— حتى لو أخطأت في التفاصيل، يبقى النمط العام صالحاً. تطرح هذه الوصية مشاكل كثيرة جداً كي تكون أصلية. والطريقة التي صينت ونُقلت بها تُوحي برغبة متعمّدة في إبقاء الغموض.

— تخيّل أنك فرانشيسكو ميلزي عام 1519. عمرك تسعة وعشرون عاماً. فقدت للتوّ معلّمك. ليست لديك ثروة شخصية. تحتقرك عائلتك لأنك بدّدت شبابك في اتّباع فنان بدلاً من بناء مسيرة. وفجأة، تجد نفسك حائزاً أعمالاً قد تجعل منك رجلاً غنياً ومحترماً.

— إن استطعت إثبات أنها ملكك قانونياً، ردّ مارشان.

— جوهر المشكلة. من دون وصية، أنت مجرّد لصّ. مع وصية، أنت وريث شرعي. فتفكّر في اختراع وصية مزوَّرة. لكنك ذكي. تعلم أن التسرّع يقتل. تترك الأمور تستقرّ. تعود إلى إيطاليا بكنوزك. تنتظر. خمس سنوات، ربما ست. وحين تحتاج إلى إضفاء شرعية على بيع جزء من المجموعة، تُنتج الوصية. لا قبل ذلك. هذا ما فعله ميلزي. أول ذكر للوصية في مراسلاته يعود إلى عام 1525.

— أتظنّ أنه استغرق كل هذا الوقت لتصنيع الوثيقة؟

— لتصنيعها، والأهمّ، لخلق شبكة كاملة من الشهادات التي تدعمها. كان ميلزي مثقّفاً. عرف أهمية الأدلّة المتقاطعة. لا تكفي وصية وحدها. يحتاج المرء إلى أشخاص يستطيعون قول: «*نعم، رأيت*

ليوناردو يُحرّر هذه الوصية» أو *«نعم، سمعت ليوناردو يُعبّر عن هذه الإرادة الأخيرة»*.

— لكن كيف يجد شهوداً كهؤلاء؟

عاد بيرتييه إلى مكتبه وفتح ملفّاً آخر.

— انظر إلى هذه الرسائل. إنها مراسلات لأعضاء عائلة ميلزي بين 1520 و1530. نجد فيها إشارات إلى *«أصدقاء مخلصين»* *«يتذكّرون»* نوايا ليوناردو. خدم كلو–لوسيه الذين *«سمعوا»* المعلّم يتحدّث عن ورثته. قسّيس محلي *«حضر»* اللحظات الأخيرة. تتقارب كل هذه الشهادات بمعجزة نحو الاستنتاج نفسه: أراد ليوناردو أن يُوصي بكل شيء لفرانشيسكو.

— شهود مُشترون؟

— ربما ليس جميعهم. ربما اعتقد بعضهم بصدق أنهم يقولون الحقيقة. كان لدى ليوناردو فعلاً مودّة كبيرة تجاه فرانشيسكو. ربما تحدّث عنه كوريثه الروحي. استطاع هؤلاء الناس أن يُفسّروا كلمات ودّية على أنها وعود قانونية. واستطاع فرانشيسكو أن يُشجّع هذا التفسير. كلمة هنا، سرّ هناك. *«كان المعلّم يقول لي غالباً...»*، *«كان ليوناردو يرغب في أن...»*. شيئاً فشيئاً، تُبنى الأسطورة. وحين تظهر الوصية، لا يُفاجأ أحد حقاً. كان الجميع *«يعلمون»* بالفعل أن فرانشيسكو هو الوريث.

اقترب مارشان من المكتب.

— هذا تلاعب نفسي عالي المستوى.

— كان فرانشيسكو أرستقراطياً. تربّى على فنّ الدبلوماسية، والإقناع الدقيق. كان والده، جيوفاني ميلزي، قائد ميليشيا ميلانو. عائلة معتادة على دسائس البلاط، وألعاب السلطة. طبّق فرانشيسكو ببساطة هذه المهارات على وضعه الخاص.

— لكن هناك شيء يُزعجني، اعترض مارشان. لو كان فرانشيسكو لامعاً هكذا، لماذا لم يُزوّر رسائل تجنّس؟ لكان أتقن كذبته.

ابتسم بيرتييه.

— سؤال ممتاز. فكّرت فيه كثيراً. الفرضية الأولى. كان تزوير رسائل ملكية أخطر بكثير من تزوير وصية خاصة. كان الأرشيف الملكي محروساً، ومراقباً. إدراج وثيقة في هذا الأرشيف كان سيتطلّب تواطؤاً على أعلى مستويات الدولة الفرنسية. مستحيل لنبيل ميلاني شاب من دون علاقات في البلاط.

— والفرضية الثانية؟

— أدقّ. ربما لم يكن فرانشيسكو بحاجة إلى رسائل تجنّس. لم تكن خطته تتطلّب أن يتجنّس ليوناردو فرنسياً. على العكس، كان غياب التجنّس يلعب لصالحه.

— كيف ذلك؟

— فكّر. لو تجنّس ليوناردو، لخضعت أملاكه للقانون الفرنسي. كان يجب تسجيل وصيته رسمياً، والتحقّق منها، وتصديقها من قِبل السلطات الفرنسية. مستحيل تزوير كل ذلك. لكن لو مات ليوناردو أجنبياً، فإن وصيته تخضع للقانون الإيطالي، الأكثر مرونة بكثير. يمكن تحريرها بشكل خاص، من دون إجراءات صارمة جداً. استطاع فرانشيسكو أن يكتفي بتسجيلها لدى موثّق متسامح في إيطاليا، بعيداً عن نظر السلطات الفرنسية.

— لكن هذا يعني أيضاً أن أملاكه سقطت تحت حق الغريب.

— بالضبط! هذه عبقرية الخطة. لم تكن نية فرانشيسكو قط أن يُطالب بالأملاك التي بقيت في فرنسا، خصوصاً الجوكندا. كانت تلك ضائعة على أي حال. لا، كان يستهدف الأعمال والمخطوطات التي أخذها معه إلى إيطاليا. أفلتت تلك من حق الغريب لأنها لم تعد في الأراضي الفرنسية وقت موت ليوناردو.

بقي مارشان صامتاً لحظة، يهضم هذه المعلومة.

— إذن ضحّى فرانشيسكو بالجوكندا والأعمال الأخرى التي بقيت في فرنسا لينقذ ما سرقه بالفعل؟

— بالضبط. أجرى حساباً عملياً. بدلاً من محاولة الاحتفاظ بكل شيء والمخاطرة بفقدان كل شيء، تخلّى عمّا لم يستطع صونه على

أي حال. وركّز جهوده على إضفاء الشرعية على ما كان يحوزه بالفعل. استراتيجية انسحاب ذكية.

عاد بيرتييه ليجلس وضمّ أصابعه.

— لكن هناك عنصر أكثر إقلاقاً بعد. عثرت على مراسلات بين فرانشيسكو ميلزي ووالده جيوفاني. في هذه الرسالة، يذكر فرانشيسكو *«الإرث الثمين الذي عهد به المعلّم»* ويطلب مشورة والده بشأن *«أفضل طريقة لصونها وتثمينها»*. نبرة الرسالة نبرة رجل يسعى إلى إضفاء الشرعية على موقفه، لا نبرة وريث مطمئنّ لحقوقه.

— لديك هذه الرسالة؟

— نسخة. الأصل في أرشيف الدولة في ميلانو. انظر إلى هذا المقطع.

مدّ نسخة مصوَّرة لمارشان.

— *«يا أبي، أحمل ثقل مسؤولية كبيرة. أصبحت أعمال المعلّم الآن تحت رعايتي، ويجب أن أتأكّد من ألا يستطيع أحد الطعن في حقّي في الاحتفاظ بها. اتّخذت بعض الخطوات لتوطيد موقفي، لكنني أخشى أن يسعى البعض لمنازعتي هذا الإرث. أشِر عليّ بالسلوك الواجب اتّباعه»*.

— *«بعض الخطوات»*، كرّر مارشان. قد يكون هذا تصنيع الوصية.

— أو على الأقل التحضيرات. تعود هذه الرسالة إلى عام 1521، أي بعد عامين من موت ليوناردو. كان فرانشيسكو لا يزال يبني آلية دفاعه. لن تظهر الوصية في الوثائق الرسمية إلا بعد أربع سنوات.

— أثمّة ردّ من الأب؟

— للأسف لا. أو على الأقل، لم أجده. لكنّ صمت جيوفاني ميلزي نفسه بليغ. لا تذكر أي رسالة أخرى من فرانشيسكو لوالده هذا الإرث صراحة. وكأن الموضوع أُغلق بعد هذه المراسلة. إما أعطى جيرولامو موافقته، أو أمر ابنه بالصمت بشأن هذه القضية.

— كلما حفرنا أعمق، ازدادت صورة فرانشيسكو ميلزي تعقيداً. ليس التلميذ المخلص والساذج للأسطورة. إنه رجل محسوب يُخطّط لكل خطوة بعناية.

— رجل من عصر النهضة، أجاب بيرتييه. لا ننسَ السياق. كانت إيطاليا في القرن السادس عشر عالماً من الدسائس، والمؤامرات، والخيانات. نجا آل ميلزي أنفسهم من الحروب بين ميلانو والبندقية وفرنسا بالإبحار بمهارة بين الفصائل. نشأ فرانشيسكو في هذه البيئة. بالنسبة إليه، لم يكن اختراع وصية مزوَّرة لحماية إرثه جريمة على الأرجح، بل ضرورة عملية.

— مسألة شرف حتى؟

— ربما. في رؤيته للعالم، كان الوريث الروحي الحقيقي لليوناردو. لم تفعل الوصية التي اخترعها سوى تثبيت واقع أخلاقي موجود بالفعل. لم يكن يسرق المعلّم، بل ينفّذ نواياه الحقيقية.

— ترشيد مريح.

— يُرشّد كل المحتالين أفعالهم. هذا إنساني. لكن في حالة فرانشيسكو، كان هناك على الأرجح جزء من الحقيقة. كان ليوناردو يحبّه. أسرّه بأسراره، وتقنياته، ومخطوطاته. استطاع فرانشيسكو أن يعتقد بصدق أنه يستحقّ هذا الإرث.

فتح بيرتييه ملفّاً آخر، أكثر سماكة.

— جمعت كل الشهادات المعاصرة عن العلاقة بين ليوناردو وفرانشيسكو. فازاري، بالطبع، الذي يصف فرانشيسكو بـ*«التلميذ الأكثر محبوبية»*. لكن أيضاً رسائل من معاصرين، وإشارات في سجلّات ذلك العصر. تنبثق منها صورة معقّدة.

— بأيّ معنى؟

— يبدو أن ليوناردو كنّ مودّة حقيقية لفرانشيسكو، لكن أيضاً لسالاي، ولتلاميذ آخرين. لم يكن من النوع الذي يملك مفضّلاً واحداً فقط. كان رجلاً يُوزّع مودّته، وتعاليمه، وأسراره على عدة أشخاص. كان فرانشيسكو مهماً، صحيح، لكن ليس فريداً.

— مما يجعل فكرة أنه أوصى بكل شيء لفرانشيسكو أقلّ إقناعاً.

— بالضبط. لو أراد ليوناردو أن يُحرّر وصية، لكان على الأرجح قسّم أملاكه بين عدة ورثة. فرانشيسكو للمخطوطات العلمية، وسالاي لبعض الأعمال، وربما آخرون للباقي. فكرة أنه منح معظم إرثه الفني لشخص واحد فقط تتناقض مع ما نعرفه عن شخصيته.

— بنيت ملفّاً مثيراً للإعجاب. لكن لا يزال ينقصنا دليل قاطع. كل ما لديك، مؤشّرات، وتناقضات، وغياب وثائق. لا شيء يُثبت بشكل لا يُدحض أن الوصية مزيّفة.

— هذه هي المشكلة مع الاحتيالات المبنية جيداً. بحكم التعريف، صُمّمت لتصمد أمام الفحص. أُتيحت لفرانشيسكو ميلزي حياة كاملة ليُتقن كذبته. دمّر الأدلّة المزعجة، وخلق أدلّة مؤاتية، واشترى الصمت. بعد خمسة قرون، نحاول إعادة بناء الحقيقة من شظايا.

— إذن كيف نُقنع المجتمع العلمي؟

— بالتراكم. لا يُثبت مؤشّر واحد شيئاً. لا يُثبت مؤشّران شيئاً كبيراً. لكن عشرة مؤشّرات، خمسة عشر مؤشّراً، عشرون مؤشّراً، كلها تُشير نحو الاتجاه نفسه... في لحظة ما، يصبح ثقل الدليل ساحقاً.

نهض بيرتييه وشرع في العدّ على أصابعه.

— واحد: الغياب التامّ لرسائل التجنّس في الأرشيف الملكي الفرنسي. اثنان: التناقضات في نصّ الوصية نفسها. ثلاثة: صمت الأرشيف الموثَّقي لأمبواز لثلاثة قرون. أربعة: الاكتشاف المناسب لنسخة تماماً

حين بدأ المؤرّخون طرح الأسئلة. خمسة: شهادات مونتيغلون التي تُعبّر عن شكوك خاصة. ستة: غياب ذكر الوصية في جرد 1860 لأرشيف آل بورو. سبعة: مراسلات فرانشيسكو ميلزي التي تُوحي بأنه كان «*يُوطّد موقفه*». ثمانية: تطبيق حق الغريب الذي يُثبت أن ليوناردو لم يكن متجنّساً. تسعة: سلوك سالاي الغريب الذي يختفي بشكل غامض بعد موت ليوناردو. يمكن أن يكون لكل عنصر من هذه العناصر تفسير بريء إن أُخذ منعزلاً. لكن جميعها معاً؟ تُشكّل حزمة قرائن يصعب دحضها جداً.

— المشكلة، اعترض مارشان، أنك تطلب من الناس أن يُصدّقوا مؤامرة استمرّت خمسة قرون. هذا كثير.

— ليست مؤامرة بمعنى مؤامرة منظّمة. إنها سلسلة قرارات فردية، اتُّخذت في عصور مختلفة، من قِبل أشخاص مختلفين، أسهم جميعهم في إدامة الكذب. يخترع فرانشيسكو المزيّف. يقبل آل بورو حمايته. ينسخه ناسخو القرن السابع عشر من دون التشكيك في أصالته. يُكرّر مؤرّخو القرن التاسع عشر الأسطورة لأنها جميلة. لا أحد يُدير الكلّ. إنه نظام يُغذّي نفسه بنفسه.

— كأسطورة حضرية تديم نفسها.

— بالضبط. تستمرّ الأساطير الحضرية ليس لأن مجموعة منظّمة تنشرها، بل لأنها تُلبّي حاجة نفسية. مُرضية جداً عاطفياً كي يرغب أحد في التشكيك فيها.

جلس مارشان وفكّر طويلاً.

— أتعلم ما يُصدمني أكثر في هذه القضية كلها؟ ليس الاحتيال نفسه بقدر رغبتنا الجماعية في عدم رؤيته. لخمسة قرون، درس آلاف المؤرّخين ليوناردو، وفحصوا وصيته، ومع ذلك لم يجرؤ تقريباً أي منهم على القول: *«مهلاً، هذا لا يصمد»*.

— لأن التشكيك في الوصية يعني التشكيك في تاريخ كامل. يعني الاعتراف بأن أجيالاً من الخبراء أخطأت. يعني تدمير خرافة. لا يحبّ الناس ذلك. يفضّلون إدامة خطأ مريح على مواجهة حقيقة مزعجة.

— ومع ذلك، ستفعل ذلك.

— ليس لديّ خيار. الحقيقة التاريخية أهمّ من الراحة الفكرية. واجبي كمؤرّخ أن أقول ما حدث فعلاً، حتى لو أزعج ذلك.

في الخارج، ارتفع ضجيج المرور من الشارع. كان ضوء بعد الظهر يخفت، قاذفاً ظلالاً برتقالية على أكوام الوثائق.

— بيار، قال مارشان أخيراً، أتساءل أحياناً إن لم تكن تبني أسطورتك الخاصة. بعد خمسمئة عام، سيتأمّل مؤرّخون آخرون عملك ويتساءلون إن لم تكن ضحية تحيّزاتك الخاصة.

— هذا ممكن، اعترف بيرتييه. التاريخ ليس نهائياً أبداً. يُعيد كل جيل كتابة الماضي عبر منظور عصره. نبذل قصارى جهدنا بالأدوات والمنهجية المتاحة لنا. لو وجد أحد بعد خمسة قرون أدلّة جديدة تُبطل نظريتي، فبها ونعمت. سيعني ذلك أن البحث التاريخي يواصل التقدّم.

— أنت مستعدّ لقبول أنك قد تكون مخطئاً؟

— بالطبع. المؤرّخ الذي ليس مستعدّاً لمراجعة استنتاجاته أمام أدلّة جديدة ليس مؤرّخاً، بل أيديولوجياً. لكن في الحالة الراهنة لمعرفتنا، بالوثائق المتاحة لنا، أنا مقتنع أن وصية ليوناردو مزيّفة اخترعها فرانشيسكو ميلزي.

نهض مارشان واقترب من النافذة.

— لنتحدّث الآن عن الجزء الآخر من المعادلة. استيلاء فرانسوا الأول على الجوكندا. أخبرتني العام الماضي أن حق الغريب مثير للجدل قانونياً جداً وأن اقتناء الجوكندا يمكن أن يُعاد التشكيك فيه اليوم، كما في الواقع كل الجزء من أعمال ليوناردو التي اقتناها فرانسوا الأول. ما حقيقة الأمر بالضبط؟

خاض بيرتييه في شرح طويل.

— تحت الإمبراطورية الرومانية، عام 212، سمح الإمبراطور كاراكالا للأجانب بنقل أملاكهم مقابل ضريبة قدرها 10%. كان ذلك عادلاً نوعاً ما. لكن بعد سقوط روما عام 476، تراجع كل شيء. في

العصر الإقطاعي، بين القرنين التاسع والثالث عشر، أُدخل حق الغريب الذي بقي ضريبة بسيطة متواضعة.

— ماذا يتغيّر بعد ذلك؟

— انقلب كل شيء مع المركزية الملكية! عام 1475، أصدر لويس الحادي عشر مرسوماً حوّل النظام جذرياً. من الآن فصاعداً، تُصادَر أملاك الأجنبي الذي يموت من دون رسالة تجنّس بالكامل من قِبل الملك. أصبح هذا المبدأ *«قانوناً عاماً للمملكة»*.

— وهذا هو الوقت الذي استولى فيه فرانسوا الأول على الجوكندا إذن؟

— بالضبط. عند وفاة ليوناردو دافنشي، استعمل الملك حق الغريب هذا لمصادرة اللوحة على حساب الورثة الشرعيين. لكن هذه هي المشكلة: يخالف هذا الاستيلاء القانون الطبيعي.

— القانون الطبيعي؟ ماذا تقصد بذلك؟

— هي مجموعة الحقوق المتأصّلة في كل إنسان: حق الملكية، والحياة، والحرية. هذه الحقوق عالمية ولا تتبدّل. كان فرانسوا الأول ملزماً باحترام هذا القانون الطبيعي، لكنه انتهكه. لاحقاً، وصف واضعو دستور 1789 الملكية بـ*«حق مقدّس لا يُسقَط بالتقادم»*.

— هل أُلغي حق الغريب في النهاية؟

— نعم، تدريجياً. ألغته الثورة عام 1791. أدان باربير دو فيوزاك هذه *«المقولة الفظيعة»* التي بموجبها *«يعيش الأجنبي حرّاً، لكنه يموت عبداً»*. للأسف، أعاد القانون المدني لعام 1803 إدخاله جزئياً بشروط المعاملة بالمثل. لم يُلغَ نهائياً إلا عام 1819.

— ومن الناحية الدستورية؟

— واضح تماماً! يُخالف حق الغريب المادة 17 من إعلان 1789 التي تحمي الملكية باعتبارها *«حقاً لا ينتهك ومقدّساً»*. يُخالف أيضاً مبدأ المساواة في المادة الأولى. أكّد المجلس الدستوري ذلك عام 2011. يمكن حتى لمسألة دستورية ذات أولوية أن تستهدف مرسوم 1475، رغم قِدَمه.

قاطعه مارشان.

— مهلاً. تتحدّث عن الدستورية، لكنّ الدستور الفرنسي حديث. كيف يمكن أن يُطبَّق بأثر رجعي على أحداث القرن السادس عشر؟

— اعتراض ممتاز. الجواب دقيق. تُعتبر المبادئ الدستورية، تلك المتعلّقة بالحقوق الأساسية، ذات بُعد عالمي وأبدي. لا تخلق هذه الحقوق، بل تعترف بها. كان حق الملكية موجوداً قبل 1789، حتى قبل 1475. إنها حقوق طبيعية، متأصّلة في الحالة الإنسانية. لم يُلغِها مرسوم لويس الحادي عشر، بل انتهكها. ويبقى هذا الانتهاك قابلاً للطعن اليوم.

— إذن استيلاء الجوكندا قابل للطعن قانونياً؟

— أكثر من قابل للطعن: غير موجود! أثبت مجلس الدولة أن عملاً مشوباً بمخالفة جسيمة وصارخة يجب أن يُعتبر غير موجود. وفق مبدأ «*فراوس أومنيا كوروبيت*» (الاحتيال يُفسد كل شيء)، لا يخلق عمل حصل عليه الاحتيال أي حقوق. العمل غير الموجود لم يُوجد قانونياً أبداً.

— ماذا ستكون العواقب؟

— لا ينتج عمل غير موجود أي أثر قانوني ويمكن إبطاله في أي لحظة. لا يخلق أي حق مكتسب. سيكون إدراج الجوكندا في الملك العام غير موجود إذن. حتى قواعد عدم قابلية التقادم وعدم قابلية التصرّف بالمجموعات العامة ستكون غير قابلة للاحتجاج بها.

— أتقصد أن الجوكندا يجب أن تُعاد لورثة ليوناردو دافنشي؟

— بالضبط! يُشكّل الاستيلاء تحت غطاء حق الغريب المخالف للمبادئ الأساسية اعتداءً جوهرياً على حق الملكية. تستمرّ هذه المخالفة منذ خمسة قرون. ينصّ قانون التراث الفرنسي أيضاً على الشطب في حالة «*التسجيل غير المستحقّ في الجرد*».

— هذه أطروحة جريئة تُشكّك في قرون من الحيازة الفرنسية!

— جريئة، صحيح، لكنها راسخة قانونياً. يبقى السؤال: هل يستطيع القانون أن يُصحّح ظلماً تاريخياً قديماً كهذا؟

بقي مارشان غارقاً في أفكاره. تركه ما شرحه له بيرتييه للتوّ متأمّلاً. لو كان الاستدلال صحيحاً قانونياً، فسيفتح ذلك آفاقاً هائلة. ليست وصية ليوناردو مزيّفة على الأرجح فحسب، بل استيلاء فرنسا على أعماله ربما غير قانوني أيضاً.

— بيار، قال ببطء، أتدرك ما تقترحه؟ لو قُبلت حجّتك القانونية، لن يقتصر ذلك على الجوكندا. يمكن المطالبة بكل أعمال ليوناردو الموجودة حالياً في فرنسا.

— أدرك ذلك تماماً. لهذا بالضبط هذه القضية متفجّرة. لا نتحدّث ببساطة عن خلاف أكاديمي بشأن أصالة وثيقة. نتحدّث عن شرعية حيازة فرنسا لبعض أعظم تحف تاريخ الفنّ.

— لن يترك اللوفر أبداً هذه الأعمال ترحل.

— على الأرجح لا. لكن السؤال ليس ماذا سيقبل اللوفر أو يرفض. السؤال هو ما هو العادل، وما هو القانوني. لا يتعلّق الأمر بحماية مصالح مؤسسة، مهما كانت مرموقة. يتعلّق الأمر بإثبات الحقيقة.

نهض بيرتييه وشرع في المشي جيئة وذهاباً، يداه خلف ظهره.

— افهمني جيداً يا أنطوان. لست تحطيمياً يريد تدمير اللوفر أو حرمان فرنسا من إرثها. لكنني أؤمن بعمق أن للمؤسسات الثقافية مسؤولية أخلاقية. لا يمكنها أن تستمرّ في صون أعمال مصدرها مريب، اقتناؤها تمّ بوسائل غير قانونية، ببساطة لأن ذلك يناسبها.

— لكن التقادم... اعترض مارشان. بعد خمسة قرون، ألا تُطبَّق مبادئ التقادم بالتأكيد؟

— هنا يصبح التحليل القانوني آسراً. يفترض التقادم عملاً قانونياً صحيحاً في الأصل. لا يمكن أن يخضع عمل غير موجود للتقادم لأنه لم يُوجد قانونياً قط. الأمر أشبه بأن أُعطيك ورقة نقدية مزيّفة. حتى بعد خمسين عاماً، ستبقى هذه الورقة مزيّفة. لا يُحوّل الزمن عملاً غير قانوني إلى عمل قانوني حين تكون المخالفة جوهرية وتمسّ المبادئ الأساسية.

— تُميّز بين المخالفة العادية والمخالفة الجوهرية؟

— نعم. يمكن أن يُغطّي التقادم خطأ إجرائياً، أو عيباً شكلياً بسيطاً. لكن انتهاك الحقوق الأساسية، والاعتداء على المبادئ الدستورية، لا يمكن أن يُشرَّع أبداً بمجرّد مرور الزمن. وإلا، لأنشأنا نظاماً تُكافَأ فيه أخطر المخالفات بقِدَمها.

أومأ مارشان برأسه ببطء.

— بدأت أفهم استدلالك. لكن عملياً، من يستطيع أن يرفع هذه المطالبة أمام المحاكم؟ ليس لليوناردو ذرية مباشرة.

— اكتشف باحثان إيطاليان مؤخّراً على الأقل أربعة عشر ذرية أحياء لليوناردو دافنشي، من نسل أشقّائه غير الأشقّاء. سيكون لهؤلاء الورثة الجانبيين صفة قانونية للتقاضي.

— أتظنّ أنهم سيفعلون؟

— لا أعلم. ربما لا يعرف بعضهم حتى أنهم ينحدرون من ليوناردو. قد لا يرغب آخرون في خوض معركة قانونية معقّدة ومكلفة كهذه ضد الدولة الفرنسية واللوفر. لكن قانونياً، سيكون لهم الحقّ في فعل ذلك.

— وإن فعل أحدهم، ما المحكمة المختصّة؟

— إنها مسألة معقّدة من القانون الدولي الخاص. من حيث المبدأ، ستكون المحكمة المختصّة فرنسية، بما أن الأعمال موجودة حالياً في فرنسا. لكن ستوجد حجج لصالح ولاية قضائية إيطالية أو حتى دولية. من دون احتساب الآثار الدبلوماسية بين فرنسا وإيطاليا. لكن بصراحة، لا أظنّ أننا سنرى محاكمة قريباً. ستكون التبعات واسعة جداً. لو قبلنا بأن حق الغريب كان مخالفاً للمبادئ الأساسية، سيفتح ذلك الباب أمام آلاف المطالبات بشأن أعمال أخرى، وممتلكات أخرى، اقتُنيت بالطريقة نفسها عبر القرون.

— إذن يبقى كل هذا نظرياً؟

— في الوقت الراهن، نعم. لكنّ المهمّ، هو أن نُثبّت المبدأ. أن نُظهر أن هذا الاستيلاء لم يكن شرعياً. أن نجعل الناس يفهمون أن اللوفر يحوز الجوكندا وأعمال ليوناردو دافنشي الأخرى بحادثة تاريخية قائمة على قانون ظالم.

— إذن ماذا تفعل الآن؟ هل تستمرّ في تحطيم هذه الأسطورة؟

— لا، أُقدّم رواية بديلة، مدعومة بأدلّة صلبة. الناس أحرار في تصديق ما يريدون.

— تُغيّر هذه الخديعة إدراكنا لفرانشيسكو ميلزي كلياً. كنّا نراه تلميذاً مخلصاً، ربما انتهازياً، استغلّ موت معلّمه ليستولي على بعض الأعمال. لكن لو كان كل هذا مُخطّطاً له، لو أنشأ نظاماً بهذا التعقيد، يُشرك موثِّقين، ويُدبّر نقل السرّ، فقد كان عقلاً من الطراز الأول.

— هذا يجعله شخصية أكثر إثارة تقريباً من ليوناردو نفسه.

— لا نُبالغ. يبقى ليوناردو ليوناردو. لكن نعم، كان فرانشيسكو بالتأكيد أكثر من مجرّد تلميذ. رجل ذكي، ومثقّف، قادر على تلاعب معقّد. درس القانون. عرف كيف يخلق وثائق تحمل مظهر الأصالة. وكاد ينجح في خداع الجميع.

— كاد. لكن ليس تماماً. لأن النظام كان به ثغرة.

— أيّ ثغرة؟

— الغياب التامّ لأي أثر في الأرشيف الملكي الفرنسي. استطاع فرانشيسكو أن يُسيطر على ما يحدث في إيطاليا. استطاع أن يتأكّد من أن موثِّقي أمبواز سيحفظون السرّ. لكنه لم يستطع أن يُنشئ إدخالات مزيّفة في سجلات ملك فرنسا. لم يستطع أن يُصنّع رسائل تجنّس لم توجد قط. هذا ما فضحه. لو كانت رسائل التجنّس موجودة،

لو وُجدت في الأرشيف الملكي، لانهارت نظريتنا كلها. لكنها غير موجودة. وهذه حقيقة لا يمكن دحضها. اخترع فرانشيسكو خديعة متقنة جداً، لكنه لم يستطع إعادة كتابة التاريخ الرسمي.

— إذن يقوم تحقيقك في النهاية على غياب. غياب وثائق كان يجب أن توجد لو كانت الرواية الرسمية صحيحة.

— مفارقة بحثي. أُثبت شيئاً بما لا يُوجد. هذا مُحبِط فكرياً، لكنه المنهج الوحيد الممكن حين نتعامل مع خديعة كهذه.

فتح بيرتييه ملفّاً أخيراً لم يُرِه بعد.

— هناك عنصر آخر لم أذكره بعد. عثرت على رسالة لشخص يُدعى كارلو تسانغريلو، هاوي فنّ اشترى مخطوطات لليوناردو من فرانشيسكو، ثم من ابنه أوراتسيو. هذه الرسالة، المؤرَّخة عام 1585، موجَّهة لجامع إسباني. يذكر تسانغريلو فيها أن بعض المخطوطات التي اقتناها حملت ملاحظات من فرانشيسكو ميلزي بدت وكأنها *«تريد تبرير حيازته»* لهذه الوثائق.

— ملاحظات تبريرية؟ بأيّ معنى؟

— لا يُقدّم تسانغريلو تفاصيل، لكنه وجد ذلك غريباً. يكتب: *«لماذا سيحتاج وريث شرعي إلى تبرير حيازته باستمرار؟ وكأنه يريد أن يُقنع أحداً، أو ربما يُقنع نفسه»*. إنها ملاحظة ثاقبة من شخص تعامل مع هذه الوثائق مباشرة.

— هل لا تزال هذه الملاحظات موجودة؟

— بعضها، نعم. فحصت عدة مخطوطات من كوديكس أتلانتيكوس في ميلانو. نجد فيها بالفعل ملاحظات هامشية لفرانشيسكو، أُضيفت بعد موت ليوناردو، تقول أشياء مثل «*موروث من المعلّم*» أو «*تلقّيته وفق إرادته الأخيرة*». إنها تأكيدات متكرّرة، مُلحّة، وكأن فرانشيسكو أراد أن ينحت شرعية حيازته في الحجر.

— سلوك شخص ذي ضمير متعِب؟

— أو شخص يتوقّع طعوناً مستقبلية ويريد أن يُعدّ دفاعه. كان فرانشيسكو منهجياً. لم يترك شيئاً للصدفة. أصبح كل مخطوط مُعلَّق عليه قطعة إضافية في ملفّ إضفاء الشرعية.

اقترب مارشان ليفحص النسخ المصوَّرة للملاحظات.

— هل جعلت خطّ هذه الملاحظات يُحلَّل؟ للتأكّد من أنها فعلاً من فرانشيسكو؟

— نعم، من قِبل خبيرين مستقلّين. أكّد كلاهما أنه بالفعل خطّ فرانشيسكو ميلزي. الحبر والورق متوافقان مع فترة 1520–1530. أُضيفت هذه الملاحظات في السنوات التي تلت موت ليوناردو.

— إذن كان فرانشيسكو يبني بالفعل روايته الشرعية.

— بالضبط. هذا ليس تصرّف وريث مطمئنّ. إنه تصرّف شخص يعلم أن موقفه هشّ ويريد تعزيزه بكل الوسائل.

أغلق بيرتييه الملفّ.

— ما أودّ معرفته؟ ما كان بالضبط في تلك النسخة من القرن السابع عشر. أكانت مطابقة للنسخة الإيطالية المعروفة؟ أكانت هناك اختلافات، تفاصيل إضافية؟

— سؤال جيد. للأسف، لا يُقدّم مونتيغلون هذه التفاصيل في مقاله. يكتفي بالقول إنها كانت نسخة.

— مُحبِط.

— كل شيء في هذه القضية مُحبِط. في كل مرة نظنّ أننا أمسكنا بقطعة حاسمة، تفلت منّا. الأمر أشبه بمطاردة ظلّ.

— لكن علّمتني قصة البرميل هذه شيئاً مهمّاً. أن الخديعة، إن كانت خديعة، صُمّمت لتدوم. عرف مُصمّموها أنه يجب عليهم أن يتركوا آثاراً، لكن ليس كثيراً. أن يُتداولوا وثائق، لكن ليس الأصول. أن يخلقوا شهادات، لكن غير قابلة للتحقّق. أن يبنوا نظام حماية، لكن لا يبدو مريباً. توازن دقيق، محفوظ بشكل لافت.

ضمّ مارشان ذراعيه.

— تجعلني تقريباً أُعجب بهذه الخديعة، إن كانت خديعة.

— أوه، لكنني أُعجب بها! إنها تحفة في نوعها. بناء بدقّة استثنائية. كان فرانشيسكو ميلزي، إن كان حقاً مؤلّف كل هذا، عبقرياً بطريقته الخاصة. فهم أن الكذب يجب أن يحمل ثغرات، ومناطق ظلّ،

وتناقضات ثانوية. لأن هذا بالضبط ما نجده في الواقع. توثيق مثالي جداً يُثير الشبهات.

— لو كنت محقّاً، لو كان كل هذا بناءً احتيالياً، فهي إذن إحدى أكبر عمليات النصب في تاريخ الفنّ.

— ليست *«إحدى الأكبر»*. الأكبر. لأنها نجحت في خداع الجميع. المؤرّخون، الخبراء... حتى اللوفر قبل من دون تشكيك مصدر بعض الأعمال.

— والآن ستُدمّر هذا البناء.

— سأكشف الحقيقة، ردّ بيرتييه. هذا مختلف. وبصراحة، لست متأكّداً أن هذا أمر جيد.

— كيف ذلك؟

— لأن هذا الكذب سمح بإنقاذ أعمال. لو لم يسرق ميلزي هذه اللوحات والمخطوطات، ماذا كان سيحدث لها؟ أكانت ستنجو؟ أكانت ستُصان بهذه العناية؟

— تُبرّر السرقة؟

— ألاحظ أن النتائج غامضة. خدمت الخديعة قضية الفنّ. هذا مقلق أخلاقياً، لكنه لا يُنكَر تاريخياً.

— هذا حزين تقريباً. أن ينتهي بناء كهذا بأن يُفكَّك. كل هذا لكي يجد أستاذ الحقيقة في الأرشيف.

— لا تحزن كثيراً على المزوّرين. حظوا بمسيرة جميلة. خمسة قرون، ليست بالأمر الهيّن. وتنتهي الحقيقة دائماً بالظهور. هذا قانون التاريخ.

— دائماً؟

— دائماً. عاجلاً أم آجلاً، تظهر وثيقة من جديد، تُكتشف شهادة، يصبح تناقض صارخاً جداً. يمكن أن يدوم الكذب طويلاً، لكن ليس أبدياً.

أطفأ مارشان الشاشة.

— إذن، ماذا نفعل الآن؟ سأل مارشان.

— الآن؟ سنتعشّى. فكّرت بما يكفي لهذا اليوم.

نهض الاثنان معاً. ارتدى مارشان سترته بينما كان بيرتييه يُرتّب الوثائق بعناية في ملفّاتها الخاصة.

— سؤال أخير، قال مارشان وهو يتّجه نحو الباب. لو كانت الوصية مزيّفة، ماذا يتغيّر عملياً؟ هل سيضطرّ اللوفر إلى إعادة أعمال؟ أستكون هناك عواقب قانونية؟

— لا، لا عواقب قانونية فورية من دون قرار قضائي. ثم، لمن نُعيد؟ الدولة الفرنسية المسروقة عام 1519؟ ذرية ليوناردو المباشرة؟ لم يُرزَق بها. يبقى الورثة الجانبيون، من نسل أشقّائه. لا يزال بعضهم موجوداً اليوم.

— إذن، لماذا تكشف كل هذا؟

— لأن التاريخ يجب أن يُروى كما حدث، لا كما نتمنّى أن يكون قد حدث. لأن فرانشيسكو ميلزي، لصّاً كان أم بطلاً، يستحقّ أن تُعرَف قصته. لأن ليوناردو يستحقّ أفضل من أسطورة رومانسية مبنية على أكاذيب.

غادرا المكتب وأخذا المصعد. وصل المصعد. انفتحت الأبواب بصرير معدني. قبل أن يدخل، التفت مارشان نحو بيرتييه.

— أتعلم ماذا أظنّ؟ أظنّ أنك محقّ. الوصية كانت مزيّفة. كان فرانشيسكو ميلزي محتالاً. حمى آل بورو سرّه لثلاثة قرون. والآن، بفضلك، سيعرف العالم أخيراً الحقيقة.

— ربما. إن أراد أحد أن يستمع إليّ حين أكشف هذه القصة.

— سيستمعون إليك. قصة كهذه، لا يمكن ألا نستمع إليها.

حين خرجا إلى البهو، توقّف مارشان فجأة.

— خطر لي شيء للتوّ. هذه النسخة من القرن السابع عشر التي وُجدت في البرميل. أين هي الآن؟

— لا يُحدّد مونتيغلون ذلك في مقاله. يذكر أنها عُرضت في مؤتمر 1893، لكن بعد ذلك؟

— بالضبط. ثقب أسود. نعرف أنها وُجدت عام 1885، وعُرضت عام 1893، ثم... لا شيء آخر. اختفت مرة أخرى.

— أتظنّ أن بالإمكان إيجادها من جديد؟

— يجب البحث. الأرشيف المحلي لأندر إي لوار، ربما. أو جمعية الفنون الجميلة. أو ذرية السيد سكريب الذي عرضها.

— سأستفسر منذ الغد. لو كانت هذه النسخة لا تزال موجودة في مكان ما، لكانت قطعة رئيسية لملفّنا.

— رئيسية وخطيرة. لو كانت موجودة وأمكن فحصها، فقد تُؤكّد شكوكي أو تُبطلها تماماً.

— أتخشى ما قد نكتشفه؟

— لا، لست خائفاً. بنيت نظرية صلبة قائمة على غياب الأدلّة. لو ظهرت أدلّة مادية، قد تُغيّر كل شيء. إما ستُؤكّد أن هذه النسخة نفسها مزيّفة متأخّرة، مما يُعزّز نظريتي. أو ستكشف أن أصلاً فرنسياً كان موجوداً فعلاً، وحينها سيتعيّن عليّ إعادة النظر في كل حجّتي.

— يصعب عليّ أن أُصدّق أن أحداً لم يُفكّر في البحث عن هذه النسخة قبلك.

— ربما فعل أحد ذلك. ربما وُجدت وضاعت من جديد. أو ربما جعلها أحدهم تختفي عمداً لأنها كشفت أكثر مما ينبغي.

— طبقة إضافية أخرى للغموض.

— هذا ما يجعل هذه القضية ساحرة إلى هذا الحدّ. تفتح كل إجابة عشرة أسئلة جديدة.

سارا في صمت لبضع دقائق، على امتداد نهر السين الذي تعكس مياهه أضواء الجسور. مرّت مراكب الجولات النهرية، محمَّلة بالسيّاح، تمسح كشّافاتها الواجهات التاريخية. على جسر الفنون، كان بعض الموسيقيين يعزفون موسيقى الجاز. كانت المدينة تعيش، غير مبالية بألغاز الماضي التي كان رجلان يحاولان حلّها. كسر مارشان الصمت أخيراً:

— أطرح سؤالاً يُقلقني منذ مساء أمس. كيف ستكشف ما اكتشفته؟ كتاباً أكاديمياً تقليدياً؟ مقالاً علمياً؟ وقبل كل شيء، لأي جمهور؟

— هذا هو السؤال الذي أطرحه على نفسي منذ أسابيع. لديّ خياران. الطريق التقليدي: نشر اكتشافاتي في مجلّة علمية، بكل الحواشي، وكل المراجع، وكل الصرامة المنهجية المطلوبة. سيصل ذلك ربما لمئتي شخص في العالم. متخصّصون سيناقشون حججي في مقالات متخصّصة أخرى. بعد عشر سنوات، ربما، ستبدأ نظريتي بالقبول في الوسط الأكاديمي.

— والخيار الآخر؟

— كتابة كتاب للجمهور العريض. تحقيق سردي على شكل رواية أروي فيه بحثي كقصة، بتشويق، وكشوفات تدريجية، وشخصيات تنبض بالحياة. كتاب يروي ليس فقط ما اكتشفته، بل كيف اكتشفته. تصبح عملية البحث نفسها الحبكة.

— تريد أن تُروّي بحثك؟

— بالأحرى أن أجعله متاحاً. تبقى الحقائق حقائق. الوثائق التي أستشهد بها حقيقية. الأرشيفات التي أذكرها موجودة. لكن طريقة تقديمها يمكن أن تكون إما منفّرة، أو آسرة. أستطيع أن أقول «*يكشف تحليل فهرس أعمال فرانسوا الأول غياب رسائل التجنّس*» أو أستطيع أن أروي كيف أمضيت ثلاثة أيام أُقلّب تسعة مجلدات مغبَّرة، إحباطي المتزايد، ثم الإشراقة حين فهمت ماذا يعني هذا الغياب.

— المشكلة هي المصداقية. لو نشرت فقط كتاباً للجمهور العريض، ستُتّهم بالإثارة. سيقول الأكاديميون إنك تسعى إلى إحداث ضجّة بدلاً من صنع علم. لو نشرت فقط مقالاً أكاديمياً، لن يسمع به أحد خارج الدائرة الضيقة للمتخصّصين.

— لهذا أظنّ أنه يجب فعل الأمرين. أنشر أولاً مقالاً أكاديمياً صارماً. هذا يُثبّت مصداقيتي. يُظهر أنني لست هاوياً يُطلق اتهامات في الهواء. ثم، أنشر كتاباً سردياً يأخذ الحقائق نفسها، لكن يُقدّمها بطريقة متاحة. يُحيل الكتاب إلى المقال للقرّاء الذين يريدون التعمّق. المقال يُضفي الشرعية على الكتاب، والكتاب يُشيع المقال.

— تُراهن على اللوحتين من دون المساس بأي منهما.

— هذا بالضبط. أظنّ أنها الاستراتيجية الوحيدة القابلة للتطبيق. يظهر المقال في، لنقل، «*معهد لاينتس للعلوم الاجتماعية*»، الذي

لديه لجنة قراءة. عشرون صفحة تقريباً، وثلاثون حاشية، كل الترسانة الأكاديمية. أنشره أيضاً على موقع إلكتروني موجّه للحقوقيين، مثلاً «*قرية العدالة*»، الذي يراجعه بانتظام محامون، وقضاة، ومؤرّخو قانون. أتجنّب المنشورات التقليدية جداً، مثل «*دالوز*»، أو «*الحوليات*»، أو «*مجلّة التاريخ الحديث والمعاصر*». لكن أختار انتشاراً واسعاً على «*أكاديميا.إيدو*»، موقع شبكي أمريكي يسمح بربط الباحثين ببعضهم البعض، ومتابعة أعمالهم المتبادلة، وتبادل المعارف. وبعد ستة أشهر، يصدر الكتاب. حوالي مئتين وخمسين صفحة، بالصرامة الوقائعية نفسها، لكن مُقدَّمة بشكل سردي.

— أيّ ناشر تُفكّر فيه؟

— ليس ناشراً تقليدياً. مقاربتهم تجارية أساساً. يريدون كتباً أكثر مبيعاً، كتباً تُعجب أكبر عدد. موضوعنا متخصّص جداً بالنسبة إليهم. ثم، المهل لا تنتهي. بين قبول المخطوطة والنشر، يمكن أن يمرّ عامان. هدفهم مالي بحت ولا يهمّني. في ثلاثينيات القرن الماضي، رفضت دار غاليمار مخطوطة لويس–فرديناند سيلين، «*رحلة إلى آخر الليل*»، التي قُبلت أخيراً لدى دار دونويل، دار نشر صغيرة جداً. انتهى الأمر بسيلين، بعد أن اشتهر، ليُستعاد لدى غاليمار.

— بمن تُفكّر؟

— لا أحد بعينه. أرفض أن ألعب اللعبة المعتادة. توجد مئات دور النشر الوهمية التي تقترح طبعات محدودة على نفقة المؤلّف. تنتهي النسخ غير المباعة، وهي كثيرة، مطحونة. أما الدور الكبرى، فتتلقّى شهرياً مئات المخطوطات التي تُرفَض منهجياً. أصبح ذلك عملاً تجارياً حقيقياً. لا يُحتفَظ إلا بما له إمكانية بيع كبيرة. أما الباقي فيسقط في الفخّ، من دون أن يُقرأ حتى. لا، أُفكّر بالأحرى في النشر الذاتي الرقمي. في منصّات إلكترونية، مثل أمازون، وكوبو، وآبل بوكس، وغوغل بلاي بوكس.

— ما الميزة؟

— ستكون الميزة حاسمة. رؤية عالمية بتكلفة أقلّ، انتشار كتاب إلكتروني، مع طباعة ورقية عند الطلب. لا مخزون لإدارته، ولا ناشر لإقناعه، ولا حقوق للتفاوض عليها. أتحكّم في كل العملية، من المخطوطة إلى البيع. وقبل كل شيء، يمكن أن يكون الكتاب متاحاً خلال أسابيع قليلة، لا عامين.

— مُقاربة من هذه الزاوية، إنه حلّ جذّاب فعلاً.

حين وصلا إلى مطعم إيطالي صغير، جلسا إلى طاولة قرب النافذة. أحضر لهما النادل قائمة الطعام والخبز. لبضع دقائق، درسا الأطباق بصمت. بعد الطلب، استأنف بيرتييه الحديث.

— بدأت أرى بنية الكتاب. أفتتح بموت ليوناردو. أروي أجواء كلو– لوسيه، وحضور فرانشيسكو وسالاي، والتوتّرات. ثم أنتقل إلى الجرد، دقيقة بدقيقة، بتشويق: هل سيُكتشف فرانشيسكو؟ بعد ذلك، أتابع الأثر عبر القرون: كيف استمرّت الوصية، وكيف حماها آل بورو، وكيف كاد مؤرّخو القرن التاسع عشر يكتشفون الحقيقة. وأنتهي بتحقيقي الخاص، اكتشافي التدريجي للحقيقة في الأرشيف.

— يُشبه هذا رواية إثارة تاريخية، لكن كل شيء فيه حقيقي.

— نعم، تقريباً. سيعرف القرّاء أنهم لا يقرؤون خيالاً. كل مشهد أصفه حدث فعلاً، أو على الأقل، حدث على الأرجح وفق الوثائق المتاحة لي.

— لكن كيف تُدير مناطق عدم اليقين؟ اللحظات التي لا نعرف فيها بالضبط ماذا حدث؟

— أقولها بوضوح. أحافظ على الأمانة الفكرية بينما أبني الرواية. لن يُخدع القرّاء أبداً بشأن ما هو حقيقة ثابتة وما هو تخمين معقول.

أحضر النادل طبقيهما. شريحة لحم ميلانية لبيرتييه، ومعكرونة كاربونارا لمارشان. بينما كانا يأكلان، استمرّ إعداد الاستراتيجية النشرية.

— بالنسبة إلى المقال الأكاديمي، ما المحور الرئيسي؟ سأل مارشان. غياب رسائل التجنّس؟ التحليل الفيلولوجي للوصية؟ حق الغريب؟

— الثلاثة، لكن مُنظَّمة بشكل تراكمي. أبدأ بتحليل الوصية نفسها: التناقضات، والمفارقات التاريخية، ومشاكل الصياغة. ثم أُقدّم غياب رسائل التجنّس في الأرشيف الملكي، مع شرح مفصّل لمنهجيتي البحثية. ثم أشرح حق الغريب وعواقبه القانونية. وأختم بقصة آل بورو والبرميل، التي تُظهر كيف استمرّت الخديعة عبر القرون. يُعزّز كل عنصر الآخر. إن أُخذ منفرداً، يمكن الطعن في كل حجّة. لكن معاً، تُشكّل حزمة قرائن يصعب دحضها.

— أتُدرك أنك ستكسب أعداء؟ يوجد مؤرّخون أمضوا حياتهم يُدافعون عن أصالة الوصية. أمناء متاحف تقوم سمعتهم على الخبرة التي قدّموها. جامعون يمتلكون أعمالاً يُزعَم أنها موروثة عن ميلزي.

— أعلم. وأُعدّ نفسي لذلك. لو كنت محقّاً، وأظنّ أنني محقّ، فيجب أن تكون لدينا الشجاعة لقوله، أيّاً كانت العواقب. لا أستطيع أن أصمت لمجرّد أن اكتشافي يُزعج.

— وإن أخطأت؟ إن ظهرت وثائق جديدة تُثبت أن ليوناردو تلقّى بالفعل رسائل تجنّس، أن الوصية أصلية؟

— إذن أكون مخطئاً. وسأعترف بذلك علناً. سأُراجع استنتاجاتي. لكن على الأقل، سأكون قد طرحت الأسئلة الصحيحة. سأكون قد أجبرت المجتمع العلمي على إعادة فحص وثيقة قُبلت لقرون من دون نقد حقيقي. حتى لو دُحضت نظريتي، سأكون قد دفعت البحث للتقدّم. هكذا يعمل العلم. بالفرضيات، والاختبارات، والدحض المحتمل.

الموقف الوحيد الصادق فكرياً. لا يتقدّم التاريخ إلا حين نجرؤ على التشكيك باليقينيات الراسخة. لو اكتفى الجميع بتكرار ما قيل بالفعل، لما تقدّمنا أبداً.

خُصّصت نهاية الوجبة للتفاصيل العملية. كيف نُنظّم الحواشي في المقال؟ هل يجب تضمين إعادة إنتاج فوتوغرافية للوثائق؟ كيف نتأكّد من أن ترجمات اللاتينية والإيطالية القديمة صحيحة؟ من يستطيع مراجعة المخطوطة قبل التقديم؟

خرجا من المطعم نحو الساعة العاشرة مساءً. كان ليل باريس عذباً، والشوارع لا تزال نابضة بالحياة.

— عد بسلام، قال بيرتييه. وفكّر فيما قلناه هذا المساء. غداً، سأبدأ بالكتابة وسأعرض عليك مسوّداتي الأولى للمراجعة والتصحيح، إن أردت. أولاً المقال الأكاديمي. سيأتي الكتاب لاحقاً.

— أقبل بسرور بالغ. لكن هل أنت متأكّد من رغبتك في خوض هذه المغامرة؟ بمجرّد أن تنشر، لن يكون هناك رجوع ممكن. سيُوصَم اسمك بأنك من شكّك في أصالة وصية ليوناردو. سيراك البعض مُراجِعاً تحريفياً.

— أنا متأكّد. حافظ فرانشيسكو ميلزي على سرّه لخمسة قرون. آن الأوان أن يكشفه أحد.

افترقا عند ناصية الشارع. غادر مارشان نحو المترو بينما مشى بيرتييه نحو شقّته. في رأسه، كانت الجمل تتنظّم بالفعل، وكانت الحجج تتبلور. رأى المقال يتشكّل، ثم الكتاب الذي سيليه. حين وصل، استحال عليه النوم. كانت الإثارة الفكرية قوية جداً. جلس إلى المكتب، الحاسوب مضاء، وبدأ الكتابة. عنوان المقال: *«الاستيلاء المثير للجدل على الجوكندا من قِبل الملك فرانسوا الأول وعواقبه في ضوء إمكانية مطالبة ذرية ليوناردو دافنشي بملكية اللوحة»*.

بداية النصّ: *«حين أنهى ليوناردو دافنشي بورتريه موناليزا، كان بالتأكيد بعيداً عن تخيّل أن الملك فرانسوا الأول سيستولي عليها عند وفاته مستعملاً حق الغريب، وأن تلميذه فرانشيسكو ميلزي سيستحوذ على لوحاته الأخرى، بعد أن يكون قد صنّع على الأرجح رسالة مزوَّرة ووصية مزيّفة. كان أبعد بعد عن الشكّ في أن بورتريهه سيصبح الأغلى والأشهر في العالم، محمياً تحت زجاج مُصفَّح في متحف يزوره كل عام ملايين الأشخاص من أصقاع الأرض الأربعة...»*

ساعتان من الكتابة المتواصلة أنجز خلالهما بيرتييه الخطوط العريضة لحجّته. حين توقّف، نحو الساعة الواحدة صباحاً، كان منهكاً، لكن راضياً. شكّلت خمس صفحات مكثّفة هيكل المقال. قبل إطفاء الحاسوب، أنشأ ملفّاً جديداً بعنوان مؤقّت: *«رواية»*. في هذا الملفّ الفارغ، ملاحظة بسيطة: *«الفصل 1- سيّد كلو-لوسيه. الفصل 2- عملاء الملك. الفصل 3- سنوات التضليل. الفصل 4-*

بنية الكذب». تأمّل هذه السطور لبضع ثوانٍ، ثم أطفأ كل شيء وذهب لينام. للمرة الأولى منذ أشهر، نام بعمق، من دون أحلام مقلقة.

في صباح السبت التالي، استقبل بيرتييه أنطوان مارشان نحو الساعة التاسعة والنصف. كان أمين المتحف يحمل تحت ذراعه مجلَّداً سميكاً من الورق المقوّى.

— أمضيت الليل أُفكّر في حديثنا. بدأت أُجمّع وثائق للمقال الأكاديمي. ها هي.

فتح بيرتييه المجلَّد وشرع في تصفّح الوثائق.

— عمل ممتاز. أرى أنك عثرت حتى على المراسلات بين مونتيغلون وغراندميزون التي كنت أبحث عنها منذ أسابيع.

— كانت في الأرشيف الوطني، في مجموعة الجمعيات العلمية. مررت بها عند الافتتاح هذا الصباح.

— ذهبت إلى الأرشيف الساعة الثامنة صباحاً يوم سبت؟

— لم أستطع النوم. فضّلت أن أكون منتجاً. انظر ماذا وجدت.

أخرج مارشان نسخة مصوَّرة من رسالة مخطوطة مؤرَّخة في 12 أبريل 1889.

— إنها رسالة من غراندميزون إلى زميل مؤرّخ، شخص يُدعى ليون بالوستر. استمع إلى هذا المقطع: *«يُصرّ آل بورو على رفضهم غير*

المفهوم منحنا الوصول إلى أرشيفهم من القرن السادس عشر. لديّ انطباع مزعج بأنهم يُخفون شيئاً، لكن ماذا؟ أيخشون أن نكتشف مخالفة في عقود أسلافهم؟ أم يحمون شخصاً نافذاً؟ يُشاركني مونتيغلون شكوكي، لكن ليس لدينا وسيلة لإجبارهم. السرّ المهني الموثَّقي حصن منيع».

رفع بيرتييه عينيه.

— هذا رائع. كانت لدى غراندميزون شكوك منذ عام 1889. أربع سنوات قبل العرض العلني للنسخة. يُؤكّد هذا أن الشكوك كانت تتداول في الأوساط العلمية قبل اكتشاف البرميل بوقت طويل. يجب أن تُدمَج هذه الرسالة بالتأكيد في المقال. تُظهر أن الخديعة كانت تتصدّع في نهاية القرن التاسع عشر. أُمضي الصباح كله في تنظيم الوثائق، وهيكلة الحجّة. كتابة، وتحقّق من المراجع، واقتراحات إعادة صياغة. استمرّ العمل حتى المساء، بناء منهجي للحجّة. أنتج ثماني صفحات مكثّفة إضافية تُشكّل قلب المقال.

— هذا عمل جيد. أسبوع آخر بهذا الإيقاع وسيكتمل المقال. والكتاب؟ متى ستبدأ؟

— بمجرّد إرسال المقال إلى المجلّة ونشره على المنصّات الإلكترونية. أريد أن أُؤمّن الخطوة الأكاديمية أولاً قبل أن أنطلق في المغامرة السردية.

بعد ظهر الثلاثاء التالي، قدّما نفسيهما في المعهد الوطني لتاريخ الفنّ. استقبلتهما السيدة دوران، امرأة في الستينات من عمرها بنظارة نصف هلالية، في قاعة استشارة الأرشيف.

— أيها السيدان، أخرجت كل ما لدينا عن أناتول دو مونتيغلون. يوجد ما يكفي لملء اليوم كله.

على طاولة الاستشارة الكبيرة، كانت مكدّسة عشرة صناديق أرشيف رمادية.

— نبحث تحديداً عن كل ما يتعلّق بوصية ليوناردو دافنشي. ملاحظات، ومسوّدات، وانطباعات شخصية، وشكوك ربما عبّر عنها خاصّة بشأن أصالة هذه الوثيقة.

— أتركك تعمل. إن احتجت إلى أي شيء، أنا في المكتب المجاور. يمكنك تصوير الوثائق، لكن من دون فلاش، بالطبع.

لثلاث ساعات، قلّبا الأرشيف. كانت مراسلات مونتيغلون ضخمة: مئات الرسائل المتبادلة مع مؤرّخين آخرين، وأمناء متاحف، وجامعين، وأرشيفيين. كان مارشان هو من قام بالاكتشاف الكبير، نحو الساعة الرابعة.

— بيار! انظر إلى هذا!

كان يحمل رسالة مخطوطة مؤرَّخة في 15 يونيو 1893، بعد أسابيع قليلة فقط من عرض نسخة الوصية في المؤتمر.

— إنها رسالة إلى صديقه بول مانتز، الناقد الفني والمؤرّخ المحترم.
استمع: «*صديقي بول، بشأن نسخة وصية ليوناردو التي عرضها سكريب في المؤتمر الأخير، لديّ تحفّظات جدّية لم أستطع التعبير عنها علناً من دون خلق حادثة مزعجة. يبدو الورق فعلاً من القرن السابع عشر، أُقرّ بذلك. لكن الحبر يبدو لي مريباً. أسود جداً، ومنتظم جداً، ومصون بشكل جيد جداً لوثيقة يُفترض أنها خُزّنت في برميل لقرنين. الوثائق من القرن السابع عشر التي راجعتها لها عادة حبر بُنّي، منزوع اللون قليلاً. ثم، أيّ مصادفة استثنائية أن تظهر هذه الوثيقة من جديد تماماً حين بدأنا جميعاً نتساءل عن غياب الأصل! التسلسل مثالي جداً بحيث لا يُثير الشبهات. أخشى أننا نتعامل مع تصنيع متأخّر، ربما بداية القرن التاسع عشر، مقصود لسدّ الفراغ الوثائقي والإجابة عن الأسئلة المحرجة التي كنّا نطرحها. لكن من دون تحليل كيميائي معمّق للحبر والورق، يستحيل التأكّد. ومن سيجرؤ على طلب تحليل كهذا؟ من سيجرؤ على التشكيك علناً في وثيقة قُدّمت بهذه الرسمية من قِبل أستاذ محترم أمام جمعية من العلماء؟ سيكون ذلك تعريض النفس للعار واتهامات التحطيمية*».

أخذ بيرتييه الرسالة بحذر، أعاد قراءتها ثلاث مرات.

— كانت لدى مونتيغلون نفسه شكوك عميقة! ولم يجرؤ على التعبير عنها علناً! أنطوان، أتُدرك ماذا يعني هذا؟ واحد من أعظم مؤرّخي

الفنّ في القرن التاسع عشر، هو نفسه من روى الاكتشاف، اعتقد خاصّة أنها مزيّفة!

واصل بيرتييه ومارشان بحثهما. اكتشفا ثلاث رسائل أخرى عبّر فيها مونتيغلون عن تحفّظاته، دائماً بطريقة خاصّة تماماً، دائماً مُستنتجاً أنه من الأفضل عدم خلق جدل علني.

خرجا من المعهد في نهاية بعد الظهر، حاملَين نسخاً مصوَّرة عديدة.

— لدينا الآن دليلنا على أن حتى المعاصرين الأكثر تأهيلاً كانت لديهم شكوك جدّية، انتصر بيرتييه.

عند عودته إلى المكتب، دمج فوراً هذه الاكتشافات الجديدة في المقال. عمل حتى وقت متأخّر من الليل. نحو منتصف الليل، توقّف.

— أنطوان، أظنّ أن مقالنا اكتمل. ست عشرة صفحة من النصّ الرئيسي، واثنتان وعشرون حاشية. إنه صلب.

في الأسبوعين التاليين، تلقّى تدريجياً ردود المراجعين الثلاثة. كانت تعليقاتهم إيجابية عموماً، مع بعض اقتراحات التحسين. مستنداً إلى هذه الردود، أثرى بيرتييه بشكل جوهري قسمه عن حق الغريب ونيّأ تفسيره لصمت آل بورو. في بداية يناير 2025، كان المقال جاهزاً. قدّمه بيرتييه إلى *«معهد لايبنتس للعلوم الاجتماعية»*. في الوقت نفسه، برمج نشره على *«أكاديميا.إيدو»* و*«قرية العدالة»*.

— الآن يجب الانتظار. ستستغرق لجنة القراءة ثلاثة أشهر على الأقل.

— والرواية؟

— نبدأ الآن.

في الأشهر التالية، انغمس بيرتييه في كتابة الرواية. بنهاية أبريل 2025، اقتربت الرواية من اكتمالها. حوالي مئتين وخمسين صفحة. في مساء من بداية مايو، اقترح مارشان:

— يجب الآن عنوان مؤثّر.

بعد عدة اقتراحات، رفع مارشان رأسه فجأة.

— لديّ فكرة. ما رأيك بـ: *«الوصية كانت مزوّرة»*؟

ترك بيرتييه العنوان يتردّد صداه في ذهنه.

— نعم. إنه مثالي. مباشر، ومستفزّ، ومثير للفضول.

خُصّص يونيو للمراجعة الدقيقة. في نهاية أغسطس 2025، وصلت الرسالة الإلكترونية المنتظَرة بشدّة: قُبل المقال للنشر. في الثاني عشر من نوفمبر 2025، قُدّمت مخطوطة الرواية إلى منصّات النشر الذاتي. في السادس عشر من نوفمبر 2025، نُشرت *«الوصية كانت مزوّرة»* رسمياً على الإنترنت. شهدت الأسابيع التالية انتشار الرواية. صدرت ترجمات بالإنجليزية، والألمانية، والإيطالية، والإسبانية. كانت

الانتقادات متفاوتة، لكن إيجابية عموماً. تقبّل بيرتييه هذه الانتقادات بفلسفة. في مساء من ديسمبر، أسرّ لمارشان:

— لا يمكن إرضاء الجميع. المهمّ هو أن تصل الرسالة. يعرف الناس الآن أن وصية ليوناردو تطرح مشاكل جدّية.

الخاتمة

باريس، متحف اللوفر، 20 ديسمبر 2025

وقف بيار بيرتييه وحيداً أمام الجوكندا، في قاعة الدول المزدحمة بسيّاح قادمين من كل أنحاء العالم. كانت سرقة مثيرة قد وقعت في اللوفر قبل أسابيع قليلة. جرت السرقة في معرض أبولّو في الطابق الأول من جناح دونون. سُرقت تسع مجوهرات وجواهر تاج فرنسا. أسقط اللصوص تاج الإمبراطورة أوجيني الذي وُجد تالفاً. وقعت الأحداث على بعد أمتار قليلة فقط من الجوكندا.

مرّ شهر منذ نشر روايته، وأربعة أشهر منذ نشر مقاله. كانت السيدة لا تزال هناك، خلف زجاجها المُصفَّح، هادئة، غامضة. أهمّ، في النهاية، من سرقها، أو ورثها، أو باعها، أو اشتراها؟ نجت. هذا كان الجوهر. لحق به مارشان بعد دقائق قليلة.

— هل أنت بخير؟ تبدو غارقاً في أفكارك.

— كنت أُفكّر. في كل الطريق الذي قُطع منذ ثلاث سنوات. في الاكتشافات، والشكوك، واليقينيات التي تُبنى.

— أيّ ندم؟

— لا شيء. فعلت ما كان يجب فعله. كشف الحقيقة، أو على الأقل روايتي للحقيقة.

حولهما، كان السيّاح يتزاحمون بالمئات، يلتقطون صوراً شخصية، ينبهرون. لم يعرف أحد. لم يهتمّ أحد بمعرفة كيف وصلت هذه اللوحة إلى هناك.

خرجا من قاعة الدول، عبرا المعارض. في الممرّ، صادفا صفّاً من طلاب الثانوية.

— وها هي الجوكندا، كانت المعلّمة تشرح، أشهر لوحة في العالم. رسمها ليوناردو دافنشي في فلورنسا بين 1503 و1506، ثم أخذها معه إلى فرنسا حيث توفّي عام 1519. أُوصي باللوحة للملك فرانسوا الأول وهي جزء من المجموعات الفرنسية منذ ذلك الحين.

تبادلا نظرة تفاهم. استمرّت الرواية الرسمية تُروى، هادئة. كم من الوقت سيلزم قبل أن تتغيّر؟

— أتعلم ما يُصدمني؟ همس مارشان. قد يُصبح كتابك، بعد بضعة قرون، ما أصبحت عليه وصية فرانشيسكو المزيّفة بالنسبة إلينا. رواية من بين روايات أخرى.

— أنت محقّ. يُعاد كتابة التاريخ باستمرار. كتبت روايتي. سيأتي آخرون سيكتبون روايتهم.

عبرا الهرم. امتدّت باريس حولهما.

— بيار، سؤال أخير. بعد كل هذا العمل... أما زلت تظنّ أن فرانشيسكو ميلزي أخطأ بسرقة هذه الأعمال؟

— كان فرانشيسكو رجل عصره. تصرّف وفق الأعراف الأخلاقية للقرن السادس عشر. نحكم عليه بقيمنا من القرن الحادي والعشرين. من على حقّ؟ كلاهما. لا أحد. الأمر يتوقّف على وجهة النظر. خطا بضع خطوات قبل أن يتابع.

— ما هو مؤكّد، أنه لولا جرأة فرانشيسكو، لما كان لدينا ربما هذه المخطوطات العلمية الاستثنائية. هل كان حق الغريب عادلاً؟ لا. هل كانت السرقة مبرَّرة؟ على الأرجح لا. لكنّ النتيجة موجودة. تحف صينت، ودُرست، وأُعجب بها ملايين الأشخاص.

— هذا ما كان يجب أن تكتبه في خاتمة الرواية.

— لا. ما كتبته أفضل. عرضت الحقائق. لكنني تركت الحكم الأخلاقي للقارئ. مجرم أم بطل؟ لصّ أم منقذ؟ يُكوّن كل قارئ رأيه الخاص. هذه هي القوة الحقيقية للرواية التاريخية. تطرح أسئلة بدلاً من أن تفرض أجوبة.

— والآن؟ ما سيكون تحقيقك التالي؟

— لا أعرف بعد. لكنني متأكّد أن في مكان ما، في أرشيف مغبَّر، تنتظر حقيقة أخرى أن تُكتشف. تنتظر خديعة أخرى أن تُفكَّك. تنتظر قصة أخرى أن تُروى.

— وستكون هناك لتُقدّمها.

— سنكون هناك. أنت وأنا. لأن هكذا يعمل التاريخ. يحمل كل جيل الشعلة. يواصل كل باحث العمل الذي بدأه من سبقوه.

بقيا صامتَين لبضع لحظات.

— يجب أن أذهب، قال مارشان. لكن شكراً يا بيار. على كل شيء. لإشراكي في هذه المغامرة. لإظهارك لي أنه لا يزال بإمكاننا صنع اكتشافات تاريخية كبرى في القرن الحادي والعشرين.

تصافحا، ثم افترقا. بعد ساعات قليلة، سيُغلق المتحف. سيرحل السيّاح. سيُجري الحرّاس جولتهم. وستبقى الجوكندا هناك، في العتمة، لا تبتسم لأحد، حافظة أسرارها. خلق فرانشيسكو ميلزي خديعة استمرّت خمسة قرون. كان بيار بيرتييه قد كشفها للتوّ. لكن في الجوهر، هل كان هذا السرّ مهمّاً حقاً؟ هل تقلّص جمال اللوحة بسببه؟ هل كانت العاطفة التي تُثيرها أقلّ صدقاً؟ بالطبع لا. كان الباقي مجرّد ضجيج وصخب. تنتهي كل قصة إنسانية بالذوبان في الزمن. لكنّ الأعمال تبقى. الجمال ينجو. تعبر الابتسامة الغامضة القرون. في الخارج، كانت باريس تضجّ بملايين حيواتها. سيتأمّل مؤرّخون آخرون عصرنا. سيكتشفون أسراراً أخرى. سيكتبون روايات أخرى. وكان هذا جيداً جداً. كان يعني أن السعي وراء الحقيقة لا نهاية له، أن لكل جيل مساهمته التي يُقدّمها، أن عمل المؤرّخين لن يكتمل أبداً. ابتسم بيرتييه لنفسه، ثم أسرع خطاه. كان لديه موعد عشاء مع زوجته التي أهملها كثيراً خلال هذه السنوات الثلاث من

الهوس. حان وقت العودة إلى الحياة الطبيعية. على الأقل لبعض الوقت. حتى يستدعيه اللغز التالي.

****